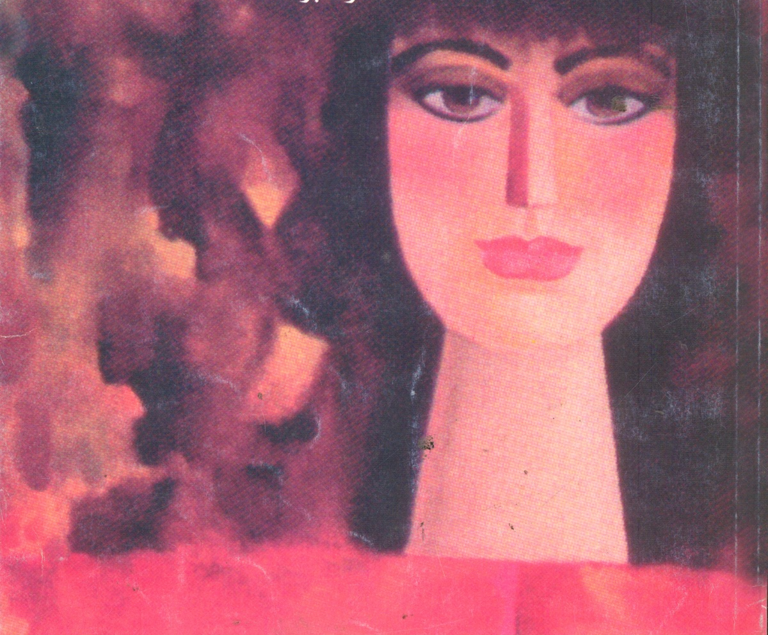
أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

نوفمبر ١٩٩٩- العدد ١٧١



أمى أضيئى الشمس رواية من داغستان / البياتى :
سارق نار أم فحم ؟ / جرّ شَكَلَ : باب جديد
للمناوشات / لعبة الست كاريوكا / أنت أخى يامارسيل
خليفة / حوار مع عز الدين نجيب / قصيدة جديدة لعفيفى مطر

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى
التقدمى الوحدوى/ نوفمبر ١٩٩٩

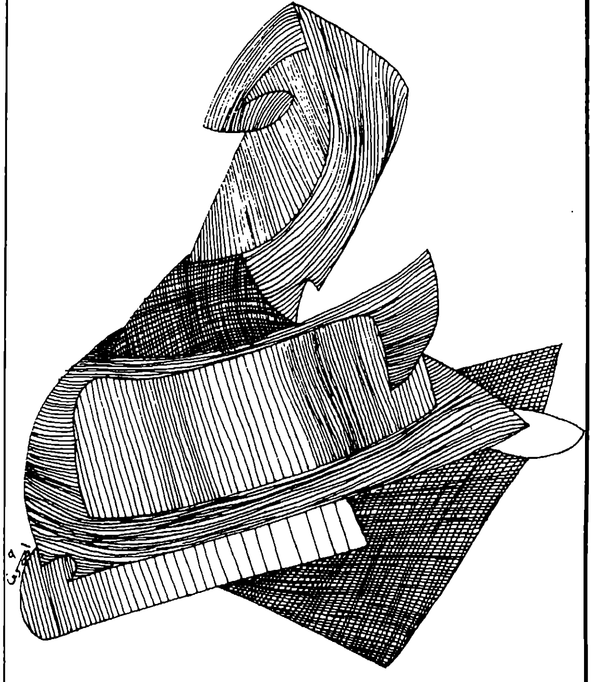
أدب ونقد

التصميم الأساسى للغلاف الفنان:
محيى الدين اللباد
لوحة الغلاف للفنان الأردنى : اديب مكى(مجلة عمان)
الرسوم الداخلية للفنان: أشرف ابراهيم
(لوحة غلاف العدد الماضى للفنانة : شلبية ابراهيم)
(رسوم العدد الماضى للفنانين: يوسف الناصر وفيصل لعيبى مأخوذة- بالاتفاق- من مجلة بانيبال بلندن).
(طبع شركة الأمل للطباعة والنشر).
أعمال الصف والتوضيب الفنى: نسرين سعيد ابراهيم
مؤسسة الأهالى

المراسلات : مجلة أدب ونقد ١ / شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالى» القاهرة- ت ٥٧٩١٦٢٧ /٢٨/٢٩ فاكس: ٥٧٨٤٨٦٧

الاشتراكات (لمدة عام) ٢٤ جنيها / البلاد العربية ٣٠ دولار للفرد- ٦٠ دولار للمؤسسات / أوربا وأمريكا ١٠٠ دولار باسم الأهالى -مجلة أدب ونقد.الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

المحتويات



أول الكتابة

خروجا مما تصورنا أنه حالة الضجر العام بعد هوجة المبايعة ، حاولنا في هذا العدد أن «نجرّ شكل» بعض المؤسسات والأفراد آملين أن يحدث اشتباك صحي من نوع ما بين أفكار وتيارات وتوجهات، ويبلور مع الزمن مجموعة من قضايا الاختلاف والاتفاق، وحرصنا أن يكون هذا الاشتباك حول القضايا لا الأفراد ، بعد أن تابعنا على امتداد الشهور الماضية معركة شائنة لتلويث كتاب وسياسيين شرفاء والتشهير بهم، وافتعال المعارك الزائفة معهم، وادعاءات البطولة على حسابهم وقد بينت هذه المعركة مستوى التدهور الذى وصلت إليه حال أخلاقيات العمل السياسي والعام في سنوات الركود التى عشناها على مدى عقدين رغم لحظات التوهج بين الحين والآخر.

ولم يكن الركود سمة للحياة السياسية وحدها بل إنه طال كل مؤسساتنا بما فيها مؤسسات الثقافة وتنظيمات المثقفين فأنتج حالة من التآكل ، بدا معها كما لو كان سوس قد أخذ ينخر في بدن هذا العملاق ويزحف على عقله بهدوء في ظل البطالة الفعلية الواسعة بين المتعلمين.

وبالرغم من المؤسسات والمنظمات الكثيرة وتجمعات المثقفين المتزايدة كان ما أسميه بالعزف المنفرد سمة شائعة ، وليس نجاح العالم المصرى «أحمد زويل» في الحصول على جائزة نوبل في الكيمياء إلا دليلا على هذه الحالة ، ويكفي أن نتابع التحقيقات الصحفية التى جرت في مؤسسات التعليم التى تخرج منها «أحمد زويل» قبل أن يسافر إلى أمريكا ليواصل تعليمه هناك ويتوصل إلى اكتشافه الذى رشحه للجائزة لنعرف حال التعليم العام في مصر ، ونتأكد أن هذه الحال لا يمكن أن تساعد على تأهيل علماء أكفاء أو باحثين قادرين على الإبداع: وبالقطع فلو لم يسافر «زويل» إلى أمريكا ليعيش في بيئة علمية صحية تتوافر لها كل إمكانيات التقدم والنمو ويعمل الباحثون فيها كفريق لما وصل أبدا إلى الجائزة.

وهذا لا يعني أن هؤلاء التلاميذ الذين تحدثت عنهم المدرسة الابتدائية في امبابة للمحررة وقالت إنهم سيئو التغذية بل جائعون يستحيل أن يخرج منهم عالم أو كاتب كبير أو باحث ، على العكس تماما فلو توافرت لهؤلاء فرصة حقيقية ومناخ ملائم لأتى بعضهم بالمعجزات وقد رأت المحررة أنه ليس أقل من «جر شكل» . النظام الاقتصادى -الاجتماعي كله والخيارات السياسية للقائمين عليه التى جعلت مجانية التعليم خرافة ووأدت مواهب كثيرة قبل أن تنضج وتعطى..

أما الفنان« عز العرب » فيقدم لنا تلخيصا بليغا لسيرة الفنانة الراحلة

«تحية كاريوكا» بنت البلد ، ويطرح علينا سؤالا كبيرا هو لماذا دأب المجتمع على وضع الراقصة فى مرتبة الجوارى مما أدى إلى الخلط بين المعايير العلمية أو الفنية والأحكام الأخلاقية فى رؤية الرقص الشرقى الذى يرى الفنان أن علينا نحن المثقفين أن نرد له اعتباره ،وهو ما سبق أن فعله المفكر الأمريكى الفلسطينى الأصل «إدوارد سعيد» الذى كتب عن «تحية كاريوكا» .«كثير من الظواهر أو الشخصيات أو الحالات التى نعتبرها -نحن أهل الثقافة المحترمة- خارجة عن نطاق عملنا الجاد، إنما هى ظواهر وشخصيات وحالات تكتنز مجموعة هائلة من الدلالات ..» كما يقول حلمى سالم .

فى رثائه «لتحية كاريوكا» قال إداورد سعيد» إنها ضيعت الشرائط التى سجلت عليها أفلامها وبددت الصور والكتابات الغزيرة التى مدحتها أو انتقدتها على مدى ستين عاما ولم يبق لها أرشيف خاص بها فبدت هذه الحالة وكأنها تجسيد عفوى لوضع دولة متخلفة مهدرة لثرواتها مثلما هو حال بلدنا.

ومع ذلك نعدكم أن نفرد ملفا خاصا لهذه الفنانة الفريدة فى تاريخنا ، ملف نضع مقالة «عز العرب» خطوطه العريضة التى سيكون علينا أن نعتبرها أساسا لعملنا.

ويجر «ماجد يوسف» شكل «النطاعة» المتفشية فى حياتنا ويواسى ضحاياها بعد أن ذاق الأمرين . وتكتب «غادة نبيل» عن مارسيل خليفة وقضائه قائلة إنه فى ظل الوصاية الأبدية لن يصدق أى نظام بمؤسساته أن الشعوب قد بلغت سن الرشد» .. ويغيب عن حزمة جر الشكل زميلنا العزيز «طلعت الشايب» رغم أنه هو صاحب فكرة الباب، وسوف نلح عليه منذ الآن ليجر شكلكم فى العدد القادم .. فكم من القضايا الملحة سوف نكون مدعوين لمتابعتها ، فعندما يكون هذا العدد بين أيديكم سوف يكون الحكم قد صدر فى قضية الكاتبتين الكويتين«ليلى العثمان » و«عالية شعيب» المقدمتين للمحاكمة بسبب ادعاء بعض الظلاميين الذين انتزعوا جملا من روايات الأولى وأشعار الثانية وقالوا إنها تتضمن دعوات غير أخلاقية.

وقبل أيام من مصادرة جريدة السياسة بسبب تطاولها على الذات الأميرية كما قيل كان أمير الكويت قد استخدم صلاحياته الدستورية للافراج عن أستاذ العلوم السياسية فى جامعة الكويت الدكتور «أحمد البغدادى» الذى جره بعض هؤلاء إلى المحكمة بدعوى التطاول على الرسول لانه كتب مقالا فى مجلة طلابية ، فحكمت الأخيرة بحبسه شهرا ، وسارعت جهات تنفيذ الأحكام بايداعه السجن فعلا حيث أضرب عن الطعام.

ويهدى عيده جبير قصته الملعب الطبيعى بكل من أحمد البغدادى ومارسيل خليفة مرة أخرى أتذكر معكم قول الشاعر الراحل «عبد الرحمن الخميسى» كنت طيلة الوقت أدافع عن قيثارتى أكثر مما أعزف الحانى فالمبدعون والمفكرون العرب يعيشون إلى حالة طوارئ إضافة لحالة الطوارئ العامة فى غالبية البلدان

، فهم محاصرون بين مطرقة الجماعات الظلامية التكفيرية فقيرة الثقافة والروح ضيقة الصدر، وسندان الاستبداد الحكومى، لذا يصبح ما سميته بالعزف المنفرد فى أول هذا المقال خطرا على المستقبل فالعزف المنفرد فى العمل الابداعى، ضرورى فى حالة الابداع ذاتها لكن المبدعين والمثقفين عامة مطالبون بخلق أشكال للتضامن والحماية الجماعية لأنفسم ضد هؤلاء الذين يملؤهم الفزع من انتصار الحرية ومن الآفاق غير المحدودة التى تتفتح فى ظلها للفنان والكاتب العربى ،وهم يجمعون كل عدتهم فى أوطاننا ساعين إلى القطع الطريق عليها، غير مدركين أن العودة للماضى .. ليست مستعصية فحسب بل مستحيلة، إنها حالة من معاندة التاريخ وفرض الماضى على المستقبل ولا أحد يستطيع أن يتنبأكم من التضحيات علينا نحن المثقفين أن نقدمها على هذا الطريق الطويل، ولكى تثمر هذه التضحيات. ثمة حاجة لأن تتسع قاعدة التيار العقلانى الديمقراطى والمستنير فى المجتمع العربى، وأن تتقدم الدعوة لفصل الدين عن السياسة بثبات وجذرية ودأب، وتتعمق الدراسات العلمية التى تدرس هذه الظاهرة الثقافية -السياسية الكبيرة فى البلدان العربية والإسلامية والتى يطلق عليها أصحابها وصف الصحوة الاسلامية والتى جرت إليها نفرا من المنتمين للتيارات القومية التقدمية إذ رأوا فى روحها الاحتجاجية المتوثبة ضد إسرائيل والصهيونية مبررا كافيا لغض الطرف عن أفكارها وممارساتها ضد حرية الفكر والاعتقاد وتحرير المرأة، وبدا كما لو أننا بصدد تكرار أخطائنا القريبة حين ارتضينا بمقايضة الحريات السياسية بالانجازات الاجتماعية.

هذا هو موضوع زمننا الكبير والذى سندخل به إلى القرن القادم وما لم تصف العقلانية والحداثة والديمقراطية جميعا حسابها الفكرى معه دون تردد، سوف تصحبنا التداعيات المريرة إلى القرن الجديد لنظل نراوح مكاننا أو نخطو للأمام خطوة ونعود للخلف خطوات تمهيدا للخروج من التاريخ.

إن الوجه الآخر لحالة الهوس العصابى باسم الدين الشائعة فى حياتنا هو ذلك الشعور اللاوعى بالدونية تجاه ثقافة العالم المتقدم وهو ما يلتقط الناقد «خالد سليمان» مغزاه فى متابعته لبعض عروض المسرح التجريبى التى برزت فيها عروض للمسرح العربى جدية مبهجة ومتقدمة بل ومتفوقة بكل المقاييس على بعض العروض الغربية التى ترفع لافتات تجريبية وتستخف بنا، يقول خالد بغضب عن المفتونين «عمال على بطال» بالمسرحين الأوروبى والأمريكى.

«لم يشعر هؤلاء بالدونية والعار حين تم فرض الحماية الثقافية عليهم فى بداية القرن الواحد والعشرين، ومطلع الألفية الثالثة، واستقدموا لهم لجنة مشاهدة للعروض المشاركة فى المهرجان مكونة من بريطانى وفرنسى وأسبانى وكأن العالم العربى من المحيط إلى الخليج لا يوجد به مثقف أو مسرحى واحد موضوعى» إنها العقلية التابعة نفسها التى قوضت مهرجان المسرح العربى قبل سنوات ليواصل التجريبى حضوره منفردا رغم الانتقادات الجذرية والجدية له.

وقدر لى أن أشاهد العرض الفرنسى الفائز هذا العام «من أجلك أفعل» هذا بجائزة لجنة التحكيم والذى كان عرض سيرك تدرب فنانوه تدريبا راقيا يصعب ادراجه فى خان مسرح فالسيرك فن له أدواته ورؤاه والمسرح فن آخر، ولكن لاقتة التجريب التى لم يعرف أحد حتى الآن لماذا حرص القائمون على المهرجان على رفعها عليه قدمت مبررا لأن يصبح كل شئ ممكنا بينما يعانى المسرح المصرى من حالة ركود وتعثر خانقة.

كنا قد قررنا قبل فترة طويلة أن نعد الملفات عن كتابنا وفنانينا العرب وهم أحياء احتفاء بانتاجهم ولا ننتظر حتى يموتوا لنمشى فى الجنازات، ونكتب كلما التأبين التى تقيدها رهبة الموت، هكذا احتفلنا بكل من «على الراعى» و«شكرى عياد» قبل أن يرحلا عن دنيانا، وأعددنا ملفات عن أحياء أمد الله فى أعمارهم، ولكن الموت يفاجئنا كل يوم، وها قد رحل كل من «البردونى» وعبد الوهاب البياتى« سارق الفحم » كما يكتب عنه الشاعر «عبد المنعم رمضان» نصه الجميل رغم قسوته إذ يرى أن هزيمة ١٩٦٧ كانت أول الشفاء من «حمى البياتى» الذى روج عبر نصف قرن لرؤية شعرية يجب أن تزول وقد زالت فعلا- من وجهة نظر عبد المنعم رمضان طبعا..

على أى حال سوف تقرأون «النص» الذى يتضمن رفضا مبطنا لتعددية الشعر، ولعل دليل قوة هذه التعددية فى النظر وفى قدرات التلقى والتذوق والأمزجة أن تكون واضحة للغاية بمقارنة نص «رمضان» مع ما كتبه «عذاب الركابى» الذى رأى فى« البياتى» بروميثيوس عصرنا، سارق النار الذى لن يزيل اسمه رأى شاعر آخر فيه..

ويخصنا الشاعر الكبير محمد عفيفى مطر» بنصه الجديد «منمنمة يؤبدون لحظة السيراميك ونؤبد الزلزلة» نص يحمل غموضه المعتاد الممتع مع هجائه المرير الساخر لحالة التردى والهوان. العربى الذى يولد ما لا نهاية له من عدم وانسحاق وتدن أخلاقى وإنسانى وسياسى للنظم وانهيارات المثقفين الذين باعوا أنفسهم للنظم المهترئة وخانوا حلم الزلازل.

فمن -بالجراح البليغة- أعطاك هذى الدلاء.
لكى تتسقى، واعطاك فسحة عمر
وأغرى بك المومياء
لتطويك بين لفائف كتانها المتوقدة حتى تفوح
عظامك بالند والمر محترقا بالحنوط
يبلل وجدك مجدُ السراب!

قبل سنوات كتب لنا «صنع الله ابراهيم روايته الجميلة «ذات» مطلقا تعبيره التهكمى «مسيرة السرمكة» على الحمى التى أصابت المصريين بعد أن انتعشت صناعة السيراميك، أو ربما انتعشت بسبب هذه الحمى التى أصابت كل بيت ،وها هو «عفيفى مطر» يجد فيه أى السيراميك مطلقا من «خرائب

الأشكال»..

أما الديوان الصغير فى عددنا هذا فهوَ رواية قصيرة من «داغستان» البلد الأسيوى المسلم فى الاتحاد الروسى التى دخلت فى نزاع مؤلم مع الدولة الروسية تحت راية الاسلام ، وشنت القوات الروسية حربها الوحشية ضد «الشيشان» بدعوى أن المحاربين الداغستانيين يعتمدون فى تسليحهم عليها..

وليست نزعات الاستقلال فى آسيا الوسطى جديدة ولكن أخطر ما فيها الآن أنها «تستلهم» تجربة طالبان المحزنة فى أفغانستان بعدائها للفكر والمرأة وللاخرين جميعا ،و تتلقى الدعم من بعض البلدان العربية الاسلامية التى يتغاضى حكامها عن حقيقة أن تفتيت روسيا سوف يشكل خطرا كبيرا على الوطن العربى فى المستقبل القريب..

إن أحدا لا يستطيع أن يقف ضد الطموح الوطنى للاستقلال خاصة بعد أن عجزت التجربة الاشتراكية للاتحاد السوفيتى خلال سبعين عاما عن حل المسألة القومية حلا جذريا رغم الاسهامات النظرية الجادة والجهود الكبيرة فى هذا السياق .. ولكن مصير «البوسنة» يجب أن لا يغيب عن أذهاننا ،فقد تحولت الدولة الصغيرة التى استقلت عن الاتحاد اليوجوسلافى إلى قاعدة أمريكية وماخور كبير تعربد فيه القوات الأمريكية، لأن هذه الكيانات الصغيرة سوف تبقى لزمن طويل قادم عاجزة عن حماية استقلالها.

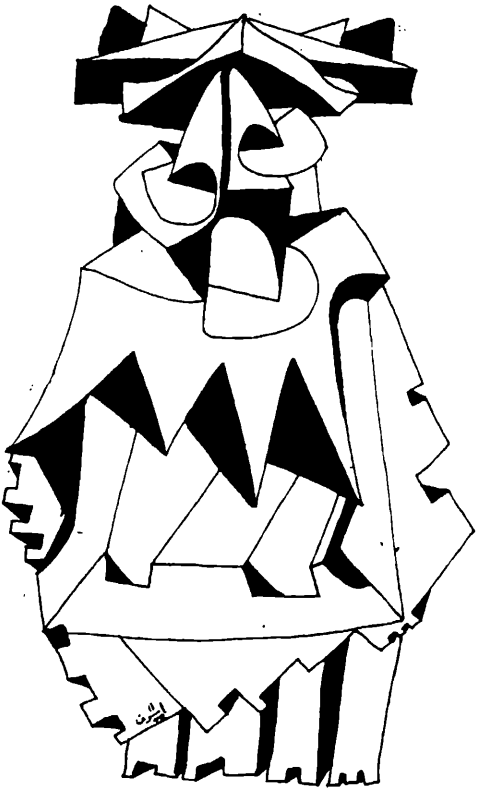
أمي: أضيئى الشمس لأحمد خان أبو بكر هى إضاءة ساطعة لأدب آسيا الاسلامية فى ظل الدولة الاشتراكية ترجمها لنا من الانجليزية الصديق « أحمد مصطفى ».

وفضلا عن قيمتها الفنية الرفيعة والخاصة جدا فإن هذه الرواية الصغيرة تحمل لنا بصورة جنينية تلك الوعود التى حملها المشروع الاشتراكى للناس والذى كان ينضج حتى فى زمن الحرب حيث المحبة والود والتضامن والغيرية والتعايش الصحى بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة أو الموطن.

ويتسم المنحى التعليمى فى هذه الرواية بفنية عالية تبتعد به عن الوعظ والتبشير والنصح لتحيله إلى وجدان خالص مركب كالوشى على بساطته .

سوف نعود مرة أخرى إلى آداب آسيا الوسطى ،وحتى نفعل ذلك لعلنا نقرأ معا مرة أخرى شعر «رسول حمزاتوف» الذى سبق أن قدمنا له ديوانا صغيرا وهو ابن داغستان الاشتراكى الأممى القلب والضمير لنكتشف علاقات القرابة بين هذا النص الذى نقدمه لكم وبين الشاعر الذى أحب وطنه والإنسانية كلها.

المحررة



دراسة

العنصرية فى أدب الأطفال العبرى ٢

(أفنير كرميلى نموذجاً)

انطوان شلحت

* أفنير كرميلى» هو الاسم المستعار للكاتب الاسرائيلى شراغا غفنى. ألف عشرات الكتب الخاصة للأطفال والفتيان الأماليد* الممهورة بتوقيعه الصريح وبخمسة أسماء مستعارة هى: «أفنير كرميلى »(وهو الاسم المستعار الأكثر شهرة له بين سائر أسمائه المستعارة) وإيتان درود» و«أون شريغ» و«يغتال غولان» و«إيتان نوتيف».

ولتوسيع دائرة الضوء حول هذا الكاتب نستعين بمقابلة مطولة أجراها محرر مجلة «مونتين» الاسرائيلية الشهرية، رون ما يفرغ، مع شراغا غفنى بالتزامن مع تزايد وتيرة الاهتمام بالعنصرية فى أدب الأطفال.

غفنى -كما يعرفه المحرر- هو أحد رجال «أرض إسرائيل الكاملة» فى سن ١٦ عاماً، تطوع للخدمة فى صفوف منظمة «الليحى» (احدى المنظمات الارهابية الصهيونية التى انشقت عن «الاتسل) .وقد حفر تأثير ابراهام شتيرن (يائير) ، قائد هذه المنظمة الذى مات مقتولا ، بصماته العميقة عليه . يقول غفنى إن مقومات رؤيته السياسية مصدرها فى رؤية شتيرن الأصلية وبوحيها يكتب قصصه ويبنى أنماط شخوصها.

يرصد كرميلى فى حكايته -كما كتب محرر» مونتين» -دولة إسرائيل كما لو أنها أرض العبرانيين القديمة . «إنه يتطلع إلى قيام البعث العبرانى فى أرض العبرانيين كلها من الفرات حتى النيل . انه يرى فيها مصدر الحياة للإنسانية جمعاء ومنارا للأغيار».

فى سن (٤٣) عاما بدأ غفنى فى دراسة موضوع التاريخ فى جامعة بار إيلان . ويفسح المحرر المجال أمام

غفني ليسرد بيوغرافيته : «ابن ٥٥ عاما ، من قدامى «الليحى» ، أب لثلاثة وجد لأحفاد . التاريخ -عملى الأساسى . يرى نفسه خارج ما يسميه «النطاق التقليدى» للكتاب الاسرائيليين . يرى نفسه كاتباً عبرانياً يخدم ، فى نتاجه ، مثل الانبعاث العبرى للأمة العبرانية الشابة الآخذة بالنمو فى البلاد . لا يرى فى هذه الأمة استمراراً للأمة اليهودية فى المهاجر وإنما هى انبعاث واستمرار للأمة العبرانية التوراتية التى أضفت على بلاد العبرانيين خصوصيتها وعظمتها فى التاريخ»

ويشدد المحرر على أن مؤلفات كرميلى القصصية ونتيجة لسرعة انتشارها واتساع نطاق المنكبين على قراءتها تؤدى دوراً فى مخاطبة وعى الطفل اليهودى (القارئ) أكثر بما لا يقاس من كتب التاريخ التى يجرى تعليمها فى المدارس اليهودية حسب مناهج وزارة المعارف والثقافة الخاصة بالطلاب اليهود (والتى لا تخلو هى أيضا من عناصر التشويه والتزييف).

وقرأ كرميلى على مسامع محرر« مونيتين» مقطعاً من مقال يختزل رؤيته السياسية: كان كتبه إبان دراسته الأكاديمية وضمنه بعضا من أفكاره أنفة الذكر . وجاء فى هذا المقطع : «أرض العبرانيين، وأرض إسرائيل هى جزئها الجنوبى ، الممتدة على ضفتى الفرات وعلى ضفتى نهر الأردن فى مفرق العبور واللقاء بين آسيا وأوروبا وإفريقيا وفى قلب الانسانية ، هى فى تمامها وحدة ثيوقراطية وسياسية- ما معناه وحدة سياسية طبيعية واحدة -هى مركز العالم . إذا أصبحت موحدة يصبح بمستطاع شعوبها التى تعيش فيها أن تستثمر كل منافعها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية من أجل عظمة وازدهار الوطن المشترك لصالح كل أبنائه والمخلصين له».

بوحى هذه «الرؤية» كتب شراغافنى حكاياته للأطفال ، وبوحيها أيضا قال إنه يستعد لكتابة غيرها .. ولكتابة حكايات للكبار أيضا . والمقصود ب« الكبار» هنا، كما يوضح ذلك بنفسه ، أولئك الصغار الذين كبروا على حكاياته ويعتمد على أنه عبأهم بـ «رؤياه» التى سيضمنها مؤلفاته القادمة.

نبدأ الغوص فى« أفكار» كرميلى من خلال التعرض إلى بعض كتب سلسلة قصصه حول «فرقة البحارة» التى ترصد ، حسبما جاء فى تظهير كل كتاب ، مغامرات «أفراد الفرق السرية العبرية من أجل إقامة إسرائيل وعملياتهم الماحقة ضد

العرب . وتسرد كل قصة «عملية بطولية» تقوم بها هذه الفرقة ويرى الكاتب أنها تجلب الفخار للنشء الاسرائيلى الجديد وتبرز أمامهم الخلفية التى مهدت لإنشاء دولة إسرائيل.

كانت الصهيونية تهدف إلى الاثبات ، خلال عملية تشويه مفضوحة ، بأن فلسطين لم تكن سوى أرض خالية من السكان عبارة عن «بلاد قاحلة تملأها الحشرات والمستنقعات» كتب موشيه سميلانسكى فى صحيفة «العالم» ، ٢٩/ ١/ ١٩١٤ ، يقول« وصفت دعاية الفكرة الصهيونية منذ نشأتها البلاد التى ستتوجه إليها كبلاد خربة ومهجورة تنتظر الخلاص بفارغ الصبر .وفى محاولتها لاثبات هذا الهدف لم تستطع الصهيونية أن تنفى كلية حقيقة وجود شعب عربى فلسطينى يقيم فوق هذه الأرض. وأوقعها هذا فى تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز نصوصها على الحديث عن شخصية العربى أو البدوى ، لا العربى الفلسطينى ،مع التأكيد على افتقار الروابط بين هذا العربى أو البدوى وبين أرضه.

وبما أن الأرض فى مثل هذه الحالة هى الوطن وبما أن العربى يفتقر إلى الروابط القوية بالأرض لهذا فإنه يفتقر إلى الروابط القوية بالوطن فهو اليوم مقيم فى فلسطين ويمكن أن يقيم غدا فى الأردن أو فى سورية أو فى هونولولو.

انطلاقا من هذه الفرية يبرز كرميلى فى قصة «البحارة فى عملية الانقضاض» إن المهمة المثلى التى يتطلع إلى تحقيقها افراد الكيبوتس هى« تخليص البلاد من أيدى الغرباء واعادتها إلى الشعب العبرى (ص٦٥) . ويأخذ «البحارة» ، الذين ينتصر لهم كرميلى ، على افراد الكيبوتس تفكيرهم بأن مهمة طرد الغرباء لا يجرى تحقيقها «بقوة السيف وإنما بقوة المحراث» (ص٦٥) فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة . ألم يكتب يعقوب روئى ، فى مقاله عن العلاقات بين سكان رحوبوت وجيرانهم العرب فى السنوات بين ١٨٩٠- ١٩١٤ ، يقول «منذ أوائل أيام الاستيطان ساد الرأى القائل بأن العربى يحترم ويعرف لغة واحدة هى القوة»؟.

يجهد كرميلى كذلك فى شرح طابع الصهيونية الحضارى ورسالتها المدنية إلى «أرض اسرائيل» . فإن العرب فى قصصه هم ليسوا «غرباء» فقط عن الأرض وإنما «غرباء» أيضا عن الحضارة والتطور . ونراه يعكس بلغة موجهة لوعى الطفل ما روّج له دعاة الصهيونية الأوائل فى هذا الصدد.

ولقد عبر ثيودور هرتسل، حين صاغ مشروعه الصهيوني في كتابه «دولة اليهود»، عن هذا التوجه حين كتب في مقطع «فلسطين أم الارجنتين»، مفضلا فلسطين لتنفيذ مشروعه على الارجنتين، ما يلي «بالنسبة لأوروبا فإننا سنكون لهم هناك (في فلسطين -المؤلف) بمثابة جزء من السور الدفاعي أمام أسيا. ويكون بمستطاعنا أن نزودها بالقوات الأمامية الحضارية ضد البربرية».

كما نجد الدليل على هذه الفكرة في السؤال الأول من مجموع أسئلة امتحان الاعانة لطلاب صفوف الثوامن (كانون الأول ١٩٧١) حيث جاء فيه ما يلي: «لم يتوقف استيطان اليهود لفلسطين أبداً. وبغض النظر عن عدد اليهود الاجمالي في البلاد كان الكثيرون منهم مفكرين وحكماء ومبدعين نشروا أبحاثا وكتبا وبالمقارنة معهم فإن العرب والمسيحيين الذين استقروا في هذا المكان (بما معناه أنهم ليسوا أبناء هذا الوطن بل بمثابة مستقرين- المؤلف) لم ينتجوا في فلسطين أي شئ له أهمية بالرغم من قدسية البلاد لأديانهم».

إن أفراد الكيبوتس، في القصة المذكورة آنفا «كانت غايتهم جلب البركة والتطور ليس لليهود فحسب وإنما أيضا للفلاحين العرب الحمقى المستغلين (بالفتح) استغلالا بشعا من قبل أسيادهم الأفندية «(ص٦٥).

يقابل هذه الرسالة «الحضارية السلامية للكيبوتس» وحشية ما بعدها وحشية للعصابات العربية. ففي كل القصص التي قرأناها لا نجد البطل العربي إلا «فرداً في عصابة» أو «متعطشا للدم اليهودي». على وجه العموم يعبأ الطفل اليهودي، القارئ لهذه القصص، بالاحساس الواعي أن العربي يمكن أن يكون كل شئ سوى نفسه، سوى الإنسان المركب بكل ما فيه من خير وشر، سوى الإنسان العادي.

وبنموذجية بالغة يتفنن المؤلف، في مقاطع متباينة من القصة، في وصف التفاوت بين وحشية العربي وحضارة اليهودي- قرية العربي وكيبوتس اليهودي. لنقرأ هذا المقطع: «لم يكن في كل البلاد كيبوتس سعى رجاله للحياة بسلام مع جيرانهم العرب ومساعدتهم مثل كيبوتس بيت غيبغ. وعلى الرغم من أن العصابات العربية قامت أكثر من مرة بشن غزوات على هذا الكيبوتس وكثيرا ما قام الفلاحون العرب، بتحريض من زعمائهم الأفندية، بمهاجمة رجال الكيبوتس وهم يحرثون حقوله، لم يتخل



الكيبوتس عن طريقه السلمي . لقد تسامح دوماً مع مهاجميه وتطلع إلى أن يعقد معهم حلفا أبديا . ولهذا اختارت السلطات البريطانية والزعماء العرب هدفا أول لهجوم العصابات العربية كيبوتس بيت غيبغ الذى كان لقمة سائغة فى نظرهم »(ص ٦٥-٦٦).

ولا يعدو العرب فى هذه القصة أكثر من كونهم فريقا من المرتزقة تكفى شارة ضابط بريطانى لتستفز مشاعرهم المتعطشة للدم اليهودى : «باثارة حماسهم نفخ الضابط البريطانى فيهم روح القتال والرغبة فى الخروج فوراً لتنفيذ العملية ضد الكيبوتس . وبسرعة فائقة استنفر المقاتلون العرب من أماكن نومهم فى القرية حيث جرى توزيعهم على خمس فرق . الفرقة الأولى ، تعدادها مائة شخص ، انيطت بها مهمة التسلل خلسة إلى البوابة واقتحام الكيبوتس . الفرقة والثالثة والرابعة ، تعداد كل واحدة منها ثلاثين شخصا ، انيطت بها مهمة محاصرة الكيبوتس ،ومنع هروب الأشخاص من داخله كى يقتلوا كل أهاليه- رجالا ونساء وأطفالا . الفرقة الخامسة ، تعدادها عشرة أشخاص ، انيطت بها مهمة قطع الاتصال الهاتفى عن الكيبوتس ، قبل الهجوم وبعد ذلك سد الطريق التى تصل ما بين الكيبوتس والخضيرة لئلا تصل من هناك مساعدة لليهود »(ص.١٠٠-١٠١).

ينتقل كرميلى من وصف التحضير للهجوم إلى وصف الهجوم العربى .وعنون الفصل الخاص بذلك تحت عنوان «اذبحوا اليهود» . ويكتب «بهتافات» عليهم و«اذبحوا اليهود» (كتبها باللهجة العربية وأحرف عبرية وكتب معناها بالعبرية بين قوسين -المؤلف) انقض العرب من كل حدب وصوب على السياج »(ص ١٠١ -١٠٢).

ينتهى «الهجوم العربى» إلى الفشل . لكن المؤلف يعود ليؤكد لقرائه الأطفال انه «لا حدود لنهم العرب خصوصا إذا كانت الفريسة يهودية».

وعلى امتداد فصل كامل عنوانه «التحضير لهجوم جديد» يشهر كرميلى قلمه ليزرع فى نفوس أطفاله من القراء الكراهية لهؤلاء العرب «اللصوص القذرين».

جاء فى هذا الفصل : «فى الليلة نفسها استعد العرب فى قرية الأحمدية والقرى الأخرى المجاورة لكيبوتس بيت غيبغ من أجل التحضير لشن هجوم إضافى على الكيبوتس . ومع أن الهزيمة التى منوا بها فى الليلة السابقة بلبلتهم فى البداية لكن مشهد الاعتقالات

وحظر السلاح الذى نفذه البريطانيون فى الكيبوتس رفع معنوياتهم من جديد . فليس باستطاعة الكيبوتس الآن أن يدافع عن نفسه بعد أن قل عدد مقاتليه ، جمع الحاج ابراهيم والشيخ عبد الله الكونتاوى ، قائدا العصابات العربية ، مساعديهما فى مجلس حربى عقد فى مقهى القرية . وحضر المجلس الشيخ مختار قرية سوميل . وخرج مبعوثون إلى القرى المجاورة لنقل البشرى إليها بأن الكيبوتس أضحى عمليا لقمة سائغة بسبب تجريده من السلاح واعتقال معظم مقاتليه . ولهذا فإن من واجب كل فتى عربى متعقل أن يتسلح ببندقيته وينضم إلى المهاجمين الشجعان . فى كل لحظة تقريبا وصل إلى مقهى قرية الأحمدية نخبة من شبان القرى العربية القريبة والبعيدة وأعربوا عن رغبتهم فى الانضمام للهجوم . وتأكيداً على رغبتهم القوية فى القتال دار هؤلاء الشبان بعد ذلك فى أزقة القرية وهم يهتفون بحياة الانتصار القريب وينشدون أناشيد الكراهية والانتقام . وعجت القرية برجال ذوى شوارب كثة يلبسون « العباءات » ويعتمرون « الكوفية والعقال » . أحزمة الرصاص مائلة على صدورهم . و« الشبريات » اللامعة مغروسة فى أحزمتهم . بنادق مما هب ودب ، قديمة وحديثة ، فى ايديهم . لقد تجمع حول المقهى عشرات المقاتلين مثل هؤلاء وذلك لسماع قرارات القادة المجتمعين فى الداخل . وسرت اشاعة بأن المجتمعين اتخذوا قراراً يقضى بمنح المقاتل البارع فى المعركة واحدة من نساء اليهود الجميلات . لقد احمرت الأعين. وانتصبت الشوارب .وحتى مساء ذلك اليوم تجمع فى قرية الأحمدية حوالى ٤٠٠ مقاتل عربى مسلح .واستمر وصول عشرات المقاتلين الإضافيين إلى المكان.

وفى المستوطنات العبرية القريبة والبعيدة ساد الحذر الشديد . كل مستوطنة عبرية صغيرة ومعزولة كانت معرضة أيضا لهجوم العرب عليها مثل بيت غيبغ -ولهذا لم يكن بالامكان نقل قوات كبيرة ومعدات عسكرية كثيرة من المستوطنات الأخرى إلى بيت غيبغ . رغم كل ذلك أرسلت قبل المساء نجدة إلى الكيبوتس من الخضيرة . بلغ عدد أفراد النجدة ٣٢ شخصا .كانوا مسلحين ، أساسا ، بالمسدسات وبالقنابل من صنع محلى .كان من الصعب الحصول على بنادق . ولم يكن بامكان هذه النجدة أن تعبر الطريق المؤدية إلى الكيبوتس الا فقط بعد حلول الظلام خوفا من ان يحس بها البريطانيون فى وضع

النهار فيجرودونها من سلاحها.

كـــان من الواضح أنه ليس بمستطاع المسدسات والقنابل أن تغير إلى حد كبير من وضع الكيبوتس اليائس . أضف إلى ذلك أن ذخيرة المسدسات كانت ضئيلة وعدد القنابل قليل جدا . وأصدرت مؤسسات المستوطنات أمرا لقائد النجدة أن يدافع عن الكيبوتس فقط بهذه الذخيرة ريثما يتم تنظيم نجدة إضافية في ساعات المساء اللاحقة تكون مسلحة بالبنادق المجلوبة من أماكن بعيدة . لكن نجدة كهذه كان يمكن أن تصل فقط في ساعات المساء المتأخرة.

لم يكن الحاج ابراهيم والشيخ عبد الله الكونتاوي ، قائدا العصابات العربية ، مغفلين وعلما أنه كلما بكرا في مهاجمة الكيبوتس زادت ممكنات احتلاله بسهولة . انتظرا غروب الشمس وغادرا مجلسهما في المقهى من أجل تعبئة رجالهما للمعركة الكبرى».

ويتضح هدف المؤلف من وراء هذا الشرح المفصل لاستعداد العرب من أجل شن الحرب على اليهود لاحقا : «في تلك اللحظة (والعرب يعبئون أنفسهم للمعركة الكبرى) فرقعت فرامل شاحنة في الساحة الصغرى قبالة المقهى . وشرع عشرون فردا كانوا على ظهرها في اطلاق النار من بنادقهم ومسدساتهم على الجماهير المتجمهرة للحرب أمام المقهى . قذفت خمس قنابل من الشاحنة إلى داخل المقهى وانفجرت هناك محدثة دويا هائلا (ص١٣٨- ١٣٩).

إذن: وحشية اليهودي هنا هي شرعية؟ ثم قال ان هذه «العملية البطولية» هي وحشية ؟ أين منها وحشية العصابات العربية ؟ -هذه هو ملخص الأسئلة التي تراود ذهن الطفل اليهودي لدى مطالعة هذه النصوص ولسان حال يقوله «العرب يستاهلون أكثر من هذا».

***

في الفاتح من أيلول ١٩٨١ ترجمت جريدة «الاتحاد» في حيفا مقالا للبروفيسور يسرائيل شاحك تحت العنوان «ماض لا يمكن أن ننساه في تاريخ الحركة الصهيونية .كيف أهدرت عصابات الهاغناه والاتسل والبلماخ دم العرب الفلسطينيين الابرياء من أجل رفع معنويات اليهود؟» وصف فيه عمليات الارهاب التي نفذتها هذا العصابات وأطلقت عليها لقب «عمليات انتقامية» واعتبرت منفذيها أبطالا صناديد وذلك بالاعتماد على المقالين الذين نشرهما الدكتور اوري ميلشتاين في صحيفتي «هآرتس» و«دفار» . وأرى لزاما هنا أن اقبس بعض ما جاء في

هذا المقال الهام:

«سوف ننتقل مباشرة إلى العملية الأخيرة التى يصفها الدكتور ميلشتاين فى مقاله هذا، حدثت فى كانون الأول ١٩٤٧ . فى تلك الأيام ، يذكر الكاتب ، صدرت أوامر للاتسل بضرب التجمعات الكبيرة للجماهير العربية».

وأصدر هذه الأوامر قائد الاتسل فى تلك السنة مناحيم بيغن . وبحسب هذه الأوامر فقد تم إرسال إحدى سيارات الاتسل فى حيفا ، بقيادة شخص يدعى يريف ، بحثا عن هدف مناسب فى حيفا التحتانية» . وبعد جولتهم قدموا تقريرا لقائد الاتسل فى حيفا شموئيل مايتين ، افادوا فيه أن التجمع العربى الوحيد هو مصافى النفط ،وافق مايتين ، عادت السيارة إلى مصافى النفط وألقى ركابها ثلاثة صناديق ملأى بالمواد المتفجرة وقطع الحديد على العرب . نتيجة لذلك قتل ستة وجرح العديدون».

إن البقية تثير الاهتمام . لقد عمل فى المصافى آنذاك ، حسب مقال الدكتور ميلشتاين ٤٧٠ عاملا يهوديا و١٧٠٠ عامل عربى . إذن فقد نشأت علاقة عمل وتفاهم متبادل بين اليهود والعرب . وحالا بعد قذف القنبلة الفتاكة قدر العاملون العرب ، بشكل خاطئ طبعا ، بأن العاملين اليهود ساعدوا إلى حد ما على تنفيذ هذه العملية فشنوا هجوما عليهم استعملوا خلاله أدوات عملهم. ومنع البريطانيون العمال اليهود من دخول مخزن السلاح . وقتل خلال ذلك ٤١ عاملا يهوديا حتى جاءت قوات الأمن البريطانية ، التى لم تبذل جهداً للقبض على الجناة وإنما احضرت باصات وأرسلت كل طرف ، على حدة ، إلى بيته.

وكيف ردت الهاغناه؟؟ قررت فى الفداة مهاجمة ما أسماه الدكتور ميلشتاين «قرية المشاغبين» ، بلد الشيخ قرب حيفا لأنه وصلت معلومات إليها تفيد أن المحرضين والقتلة يسكنون هناك».

لقد وصف هذه «العملية» ضد قرية بلد الشيخ حاييم أفينوعم (الذى يشغل منصب ضابط فى شرطة إسرائيل) وكان فى حينه قائد فى البلماخ -كما يذكر الدكتور - ميلشتاين . قاد الوحدة المدعو دان ليز (يعيش اليوم فى كيبوتس ناؤوت مردخاى وهو عضو فى حزب «هتحيا» الفاشى ، الذى دعا للتصويت له فى انتخابات الكنيست الأخيرة). لقد استدعى على الفور للمثول أمام موشى كرميل فى حيفا «وبعد أن عاد من هناك أصدر أوامره- يقول أفينوعم- بمهاجمة بلد الشيخ بقصد قتل ١٠٠ شخص وعدم

إصابة النساء والأطفال».

ووضعت تحت إمره أفينوعم وحدتان ثانويتان من أجل تنفيذ هذه العملية قاد إحداهما اسحاق حوفى، الذى اشغل فيما بعد منصب جنرال فى الجيش الاسرائيلى، وقاد الأخرى الدكتور بنحاس وسمان، الذى شغل فيما بعد منصب مدير عام وزارة الأمن. ويذكر افينوعم بافتخار أن رجال الوحدتين كانوا من سكان المستوطنات وأنه بعد أن شرح لهم الأوامر والوضع لم يرفض أى منهم الذهاب لأداء هذه المهمة «وإن عانى بعضهم من مشاكل ضميرية».

ونفذت العملية- المهمة» حسب ما خطط لها». دخلوا القرية و«تنقلوا من بيت إلى بيت وقتلوا الرجال». لم تكن أية مقاومة وفقط لدى محاولة اقتحام البيت الأخير لقي أحد الأفراد مصرعه، ورغم أن الجنود البريطانيين اطلقوا عيارات نارية من داخل سياراتهم المدرعة لكنهم «لم يشوشوا العملية». كانت المفاجأة تامة. وفقط من داخل بيت واحد اطلقت النار صوبنا. وابان تبادل اطلاق النار اصبنا أيضا النساء والأطفال. لقد كان هذا هو الانحراف الوحيد. بعد أن قتلنا أكثر من مائة شخص عدنا إلى ياغور». ويستطرد السيد افينوعم «تم تحقيق الهدف بشكل عام. وتصرف الرجال على ما يرام».

يركز افنير كرميلى فى قصة أخرى «البحارة فى عملية الرمح» على وصف سمات أبطال الأمس من خلال الدعوة المبطنة لأن يكونوا قدوة الحاضر والمستقبل. يكتب عن «البحارة»: هؤلاء الفتية الصغار، رغم أن أيا منهم لم يبلغ سن السابعة عشرة بعد، كانوا خبراء حرب مثل جنود قدامى شاركوا فى عدد من الحروب. لماذا؟؟ لأنهم حاربوا بكل ما أوتوا من قوة من أجل المثل السامى الذى وهبوا كل حياتهم ومواهبهم وقواهم ونشاطهم من أجله- إنه مثل تحرير شعب إسرائيل وأرض إسرائيل من المحتلين الغرباء وإقامة إسرائيل المستقلة النامية المزدهرة.

ولهذا فهم لم يحاربوا بفعل الطاعة الحديدية العمياء مثل جنود فى جيش اعتيادى إنما حاربوا كمتطوعين بود ورغبة كبيرة، عندما كان قوادهم يدربونهم على استعمال السلاح ويعلمونهم كيفية التصرف ابان الحرب وكيفية التخندق فى الأرض والتسلل خلسة بين صفوف العدو وكيفية الانقضاض على مواقع العدو واحتلالها كان المحاربون الشبان هؤلاء يعيرون كل انتباههم لجميع أقوال المرشدين ويحفظونها جيدا عن ظهر قلب ويحفرونها فى

ذاكرتهم وبعد ذلك فى ساعة القتال الحقيقى كانوا يعودون على هذه الأمور بنجاح منقطع النظير . شجاعتهم لا تعرف الحدود وإخلاصهم للوطن ولبعضهم البعض يثير اعمق مشاعر الدهشة . إن الثقة التى يحوزونها والتى تدفع كل واحد فيهم لأداء واجبه حتى النهاية وبدون الخوف أمام الخطر وبدون ترك زميله تحت أى ظرف ، هذه الثقة الشجاعة المتكاملة منحتهم القوة والبطولة ، والروعة عند الحرب حولتهم إلى وحدة ماحقة رهيبة لا يمكن الوقوف حيالها » (ص.١٤٠).

هؤلاء « البحارة » سن قائدهم قانونا لهم ينص على أنه « لا يجوز التخلى عن السعى إلى تحقيق الهدف حتى يتم إحراز الهدف وليكن ما يكون .حتى لو فشل البحارة ثلاث أو أربع أو خمس أو ست مرات فى طريقتهم القاسية إلى قرية العدو ام الفحم فسيخرجون مراراً وتكراراً من أجل الوصول إليها ومهاجمتها وبذلك يتسنى لهم إحراز الهدف . ذلك هو « قانون الحديد » بالنسبة للبحارة »(١٤١-١٤٢).

ويثير ذكر «قرية العدو ام الفحم» رنة خاصة فى ذهن قارئ هذه القصص لكونها لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

فى قصة ثالثة « البحارة فى عملية الفأس » يرد ذكر أم الفحم كثيرا مثل« القرية العربية سيئة الصيت أم الفحم» (ص.١٠) .كما يرد وصف لأهاليها على هذا النحو « أليس هؤلاء العرب هم أناس حمقى تربوا كل حياتهم على تقديس القوة والمال؟(ص١٩).

كما تتردد كثيرا جملة « المقاتل العربى (من أم الفحم- المؤلف) ذو المظهر الوحشى والقلب القاسى ».

والسؤال هنا هو: ما الضمانة فى أن لا تختلف نظرة الطفل اليهودى إلى أم الفحم الأمس ، بفعل هذه النصوص المسمومة ،عن نظرته إلى أم الفحم اليوم أو إلى أية قرية عربية أخرى؟.

***

فى محاولتها لنفى حقيقة وجود شعب عربى فلسطينى ولتنفيذ سياساتها الاستيطانية الكولونيالية ، التى كانت مبنية على الفرضية المفارقة للواقع حول« شعب بلا أرض وأرض بلا شعب » ،لجأت الحركة الصهيونية إلى اتباع المبدأ الاستعمارى « فرق تسد » فى تعاملها مع أبناء هذا الشعب وإلى الحديث عن ملل وطوائف خلال طمس الروابط القومية التى توالف فيما بينها . فهى تتحدث عن العرب والمسيحيين تارة وعن العرب المسلمين والدروز طورا ..وأبرزت

فى العديد من أدبياتها ما أسمته «حلف الدم» القائم بين اليهود وأبناء الطائفة الدرزية وردته إلى عوامل دينية مختلفة وملفقة.

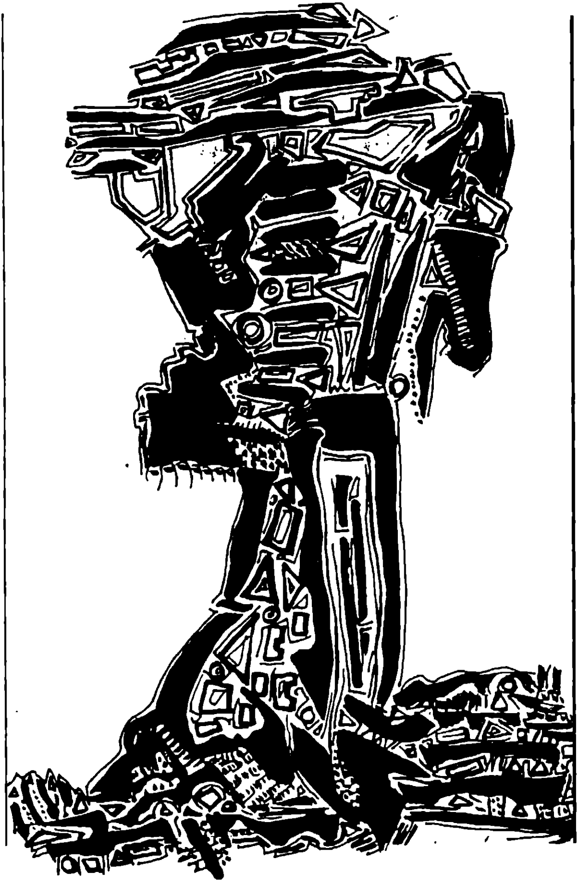
وقد خصص افنير كرميلى جزءا كاملا من سلسلة حكاياته آنفة الذكر حول «فريق البحارة» لهذا الموضوع .فى هذا الجزء «البحارة فى عملية ساحقة» يطل علينا البطل «الدرزى» الذى يرى فيه العربى (حسب النموذج الكرميلى) أنه غير مخلص له، مثل بقية الدروز الذين يميلون إلى اليهود (ص٢٣) .ولهذا قام العرب بقتل أخيه وبخطف ولده رهينة من أجل الضغط عليه للقيام بمهمة التجسس على فريق البحارة.

أما اليهودى ، فيرى فى الدرزى « أنه ليس عربيا ، يخون شعبه ويعطينا المعلومات لقاء حفنة من الأموال ، إنما هو إنسان درزى من قرية دالية «الكرمل» .. وهو يكره العرب كرهاً مقيتا لأنهم قتلوا أخاه بسبب رفضه دفع الضرائب التى يفرضها زعماء العصابات العربية على كل المنطقة (جبال الكرمل) (ص١١).

ولا يكتفى كرميلى بهذا القدر من تفريغ شخصية بطله «الدرزى» من أى مضمون قومى أو إنسانى فهو يفرد فصلا خاصا (ص٦٧-٦٨) تحت العنوان «الدرزى رزق منصور» لتعريف الطفل اليهودى على الدروز فيكتب:

«رزق منصور (وهو اسم «البطل الدرزى» فى هذه الحكاية) هو درزى والدروز- كما هو معروف- هم قبيلة من المقاتلين الشجعان ، تتوزع قراهم من جبل الدروز فى سورية وحتى جبل الكرمل فى أرض إسرائيل . وعدد افراد هذه القبيلة قليل . فهو لم يزد البتة عن ربع المليون نسمة . لكن الدروز الفخورين عرفوا دائما كيف يردون الضربة لضاربها وكيف يحبطون كل من تسول له نفسه مهاجمتهم.

«وكان فى أرض اسرائيل فى تلك الأيام العصيبة حوالى عشرة آلاف درزى سكنت أكثريتهم فى الجليل .وفى جبل الكرمل سكن الدروز فقط فى قريتين هما عسفايا ودالية الكرمل . وكانوا معزولين وبعيدين عن إخوانهم فى الجليل وجبل الدروز . ولهذا زاد العرب المسلمون ، جيرانهم ، الضغط عليهم أكثر من أية بقعة أخرى فى البلاد . وطالبوهم بالمشاركة معهم فى حربهم ضد اليهود وبإرسال ابنائهم مع كامل عدتهم الحربية للخدمة فى صفوف عصابات المحاربين العرب أو بدل ذلك(ولأن الدروز رفضوا باصرار التعاون مع العرب فى حربهم ضد اليهود الفخورين والصناديد) أن



يدفعوا ضرائب باهظة لزعماء العصابات العربية».

«واضطرت غالبية الدروز القلائل، الذين عاشوا فى جبل الكرمل، إلى الخضوع لمطلب زعماء المحاربين العرب وان تدفع لهم الضرائب حسب رغبتهم .وفقط الفخوررون والأكثر شجاعة بين أوساط الدروز فى الكرمل رفضوا دفع الضرائب المذكورة للعرب . وبين هؤلاء الفخورين والشجعان كان أفراد عائلة منصور من دالية الكرمل .وفى أحد الأيام قدم حوالى مائتى رجل من أفراد العصابات العربية إلى هذه القرية وحاصروا المنطقة التى كان يسكنها أفراد عائلة منصور وقبضوا على شقيق رزق منصور البكر. وقتلوه رمياً بالرصاص عقابا له على رفضه دفع الضرائب لزعيمهم حمدان فارس الفوقا . وبعد ذلك هددوا بقية أفراد عائلة منصور بأن مصيرهم سيكون مثل مصير المقتول فيما لو واصلوا مخالفة الأوامر . وحينما أيقن أبناء عائلة منصور ، وبضمنهم رزق ، أنه ليس فى مقدورهم الوقوف فى وجه جماهير المحاربين العرب على ضوء كونهم معزولين وبعيدين عن بقية الدروز والاستمرار فى تحمل هذه المرارة دفعوا للعرب الضرائب المفروضة عليهم . لكن شهوة الانتقام من الأفراد الذين قتلوا ابن عائلتهم بقيت مضطرمة فى نفوسهم . واتقدت شهوة الانتقام هذه بشكل خاص فى قلب رزق منصور الشجاع».

ولكى يؤكد المؤلف لقارئه الصغير عمق الهوة القائمة بين «العربى» و«الدرزى» فانه يجر بطله «الدرزى» ، فى سياق مقتضب للأحداث ، إلى التضحية بابنه الرهينة فى أيدى العرب من أجل اهدار دمهم وحفظ دم اليهود . ويرد كل هذه العملية إلى« شرف الدرزى» الذى يلح عليه -كما تصور الحكاية -أن يبقى مخلصا لليهود بأى ثمن وأن يدير ظهره للعرب!!.

***

إن نوايا التهويد الصهيونية لا تراعى شعوراً ولا تصون حرمة ، بما فى ذلك حرمات المساجد . ويقيم الواقع اليومى المعاش للجماهير العربية الفلسطينية فى بلادنا وفى المناطق المحتلة الدليل على ذلك . فمن الاعتداءات المتكررة على المسجد الأقصى إلى قرار تحويل مسجد حسن بك فى يافا إلى منطقة سياحية مروراً بنبش مقبرة الاستقلال وهدم جزء من المسجد الصغير فى حيفا وقيام أوباش الاحتلال باقتحام الحرم الابراهيمى فى الخليل وفتح ثغرة فى أحد

جدرانه وتحطيم بعض رخامه.

ولاغـــرو إذن أن لا تثـــور ثائرة أبناء الشعب الاسرائيلى ضد هذه الممارسات الوحشية طالما أن أطفالهم يتربون على فكرة أن المسجد هو« وكر للذين يضمرون العداء لليهود» . ولا نرى أبعد من هدف غرس المبرر لهذه الممارسات فى ذهن الأطفال الاسرائيليين فى تأكيد كرميلى المستمر (فى أكثر من حكاية) على أن المسجد العربى فى قرية جت العربية (الواقعة على جبل الكرمل، كما يوحى له خياله) هو مركز قيادة العصابات العربية «المتعطشة للدم اليهودى) .وفيه يجرى التخطيط لكل العمليات «الوحشية» ضد اليهود: «على بعد ثلاثين كيلو مترا من معسكر البحارة وفى غرفة صغيرة بين أرجاء مسجد قرية جت العربية جلس زعيما العصابات المعروفان حمدان فارس الفوقا والحمصى محمود. وعلى ضوء قنديل زيت صغير خططا مؤامرتهما (ص١٩) .وفى أكثر من فصل تكررت الجملة التالية المسجد الذى استعملته العصابات مقراً لها».

**

ننتقل إلى استعراض جزء من سلسلة أخرى للمؤلف نفسه حول فريق «الرياضيين الصغار» التى ترصد لأبطال معاصريين وبالتحديد فى الفترة التى اعقبت عدوان حزيران ١٩٦٧.

والحق يقـــال إن أول من لفت الأنظار إلى هذا الكتاب «الرياضيون الصغار عائدون» كان الكاتب والصحفى شلوموفرنكل فى المقالة الجريئة التى نشرها فى مجلة «هعولام هزيه» تحت العنوان «إذا أردت أن تربى فاشيا صغيرا فى البيت اذهب إلى المكتبة واقتن أحد الكتب المخصصة للأطفال.والتى تتحدث عن ابطالنا الصغار- القتلة العرب والخائن اليسارى».

فيما يلى قصة هذا الكتاب (وليسمح لنا القارئ بالمزيد من الاقتباسات الطويلة لكونها ضرورية).

عاشت لعبة كرة القدم فى إسرائيل أياما عصيبة فقد ألمت مصائب عديدة بلاعبى المنتخب الوطنى . اثنان منهم أصيبا بحادث طرق ولقى ثلاثة منهم مصرعهم فى حريق غامض شب فى مساكن أفراد المنتخب بمعهد «وينفت» .كما اختفى حارس مرمى المنتخب.

«وهكذا بقى فى المنتخب لاعبان فقط هما لاعب الهجوم المركزى الون ليفى وحارس المرمى رافى . وانتمى كلاهما مؤخرا إلى النادى الرياضى الجديد والمزدهر الذى أقامه رياضيو المستوطنات الجديدة فى مناطق

الوطن المحررة- ويحمل هذا النادى اسم هتحيا ».

لم يمض وقت طويل حتى اختفى رافى أيضا بطريقة غامضة بينما نجا ألون بأعجوبة من حادث تسمم قاس فى المعدة .وكانت هذه الحوادث جميعها مصدر قلق كبير فى وزارة التربية والرياضة التى شغلها الوزير دافيد رونين .وكانت المهمة المطروحة أمامه مع رئيس قسم كرة القدم ، يهونتان افيفى ، هى إعداد المنتخب لمباريات كأس العالم فى أسبانيا من المنتخب الوطنى . وعندها اختطف ، الون عندما كان فى طريقه لاجراء فحص فى مستشفى رمبام بحيفا.

من هو الون ليفى هذا؟؟.

« منذ حرب الأيام الستة ،ومنذ تحرير الجزء الأكبر من أرض إسرائيل من نير الغرباء على أيدى جيش إسرائيل فى حرب بطولية لم يسبق لها مثيل وعاد الوطن تقريبا إلى الحدود التى كانت للشعب الاسرائيلى فى عصره الذهبى أيام الأنبياء -منذ هذا اليوم العظيم كان الون ليفى يدغدغه حلم هو أن يمنح مجال كرة القدم فى أرض اسرائيل كلها تلك الهالة العظيمة التى منحها فى حينه لدولة إسرائيل القديمة والصغيرة فى مباريات بطولة العالم لكرة القدم فى طوكيو . لقد تطلع شعب أرض اسرائيل دائما ، وهو استمرار شعب الانبياء العظيم ، الشعب الاسرائيلى ، إلى أن يكون طليعة الانسانية فى كل المناطق وفى كل المجالات وهذه هى رسالة شعب اسرائيل التى قطعها على نفسه منذ آلاف السنين- أن يكون منارا للأغيار فى كل أعماله وفى كل المجالات »(ص٢١-٢٣).

ولهذا الغرض أقام الون ليفى مع حارس المرمى رافى ناديا رياضيا جديداً:

« قرر ألون ورافى ان يقيما ناديهما أولا وقبل كل شئ فى المستوطنات الجديدة التى قامت فى مناطق الوطن المحررة منذ حرب الأيام الستة . وأرادا أن يقوم ويتجدد فى مناطق الوطن هذه ، التى هى قلب وأساس أرض إسرائيل ، أرض الانبياء العظام ، شعب إسرائيل كشعب يحتذى به . ترك الون ورافى فريقهما القديم وانتقلا للسكنى فى مستوطنة شخيم عيليت (نابلس العليا) على جبل جرزيم حيث أقاما أول فرع لناديهما .وكان اعضاؤه الأوائل من شبان المستوطنات وبعد زمن قصير انضم إليهم عدد من الشبان السومريين الذين يقطنون فى نابلس وعدد من الشبان العرب المحليين الذين قرروا وربط مصيرهم

بمصير شعب إسرائيل »(ص٢٤-٢٥).

وأسرت نوادى « هتحيا » قلوب الشبان . وتحسن لعبهم . ولم يمض وقت طويل حتى تغلب منتخب « هتحيا » على منتخب البرازيل الذى زار البلاد بالنتيجة ٤ / صفر.

ويقرر الون، الذى اشتبه في أن هناك يدا موجهة وراء سلسلة المصائب الغامضة التى ألمت بالمنتخب ، ان يحقق فى الأمر بالتعاون مع صديقته رنانه . ويقرر ابقاء نبأ سفره إلى حيفا طى الكتمان.

فى الطريق إلى حيفا يوقف ألون سيارته لحمل جنديين كانا يقفان على قاعة الطريق وبعد وقت قصير يوجه أحدهما سلاحه إلى الون معلنا أنه وزميله ليسا جنديين وأن هذه عملية اختطاف . ويقوم الخاطفان بتخديره .وفى الأسر يكتشف الون انه موجود بصحبة صديقه رافى ونائب مدرب المنتخب وأن آسريهم هم أشخاص يمثلون منظمة مخربين عربية يتعاون معها بعض الخونة الاسرائيليين . وأن الذى يتعاون مع الخاطفين ليس سوى مدرب المنتخب الوطنى افراهام هجليلى.

كيف صار مدرب المنتخب الوطنى خائنا؟ يشرح رافى ذلك لألون : فزع السوفييت والعرب من احتمال أن يلعب فى مباريات كأس العالم « عرب ويهود بأخوة كاملة فى إطار منتخب أرض إسرائيل الوطنى لكرة القدم وللحؤول دون ذلك فقد اقيمت منظمة مخربين عربية خاصة « وجرى امدادها بوسائل غير محدودة وبأشخاص موهوبين من بينهم واحد من خيرة المنومين المغناطيسيين فى العالم العربى .كما جرى ربط هذه المنظمة التخريبية مع عدد من الخونة اليهود فى البلاد وهم خونة من أسوأ صنف ممن يعملون فى خدمة العدو- وهؤلاء هم شبان ليس فى قلوبهم أى احساس للوطن وللشعب وهم يتطلعون لتسليم أرض إسرائيل كلها إلى السلطة العربية المطلقة ، التى ستمنع عودة بقية شعب إسرائيل من المهجر إلى وطنه وتصفى كل الاسرائيليين الذين ولدوا فى البلاد أو هاجروا إليها(ص٧٧).

وقام المنوم المغناطيسى العربى بتنويم مدرب المنتخب الوطنى ، الذى بدأ يعمل فى صفوف الخونة دون علمه وأدى إلى القضاء على المنتخب الوطنى . وقد اكتشف رافى هذا السر عندما اختطف ونجح فى تنويم المنوم المغناطيسى وفى أن يبتز منه اسرار المجموعة الخائنة . ولكن سرعان ما تنكشف خطط المخطوفين ويجدون أنفسهم محاصرين فى الطابق الثالث

.وعندها قام الخائن ،وهو أحد الجنديين اللذين أخذهما الون فى سيارته ، بمطالبة الرياضيين بالاستسلام وقال لهم «إننى لا أعترف بهذا الشعب وبهذا الوطن اللذين تتكلمون عنهما . إن شعب إسرائيل وأرض اسرائيل هما اختلاق امبريالى ينبغى القضاء عليهما مع كل الامبريالية فى العالم . وينبغى إعادة هذه الأرض للعرب التى سلبوها منهم -إننى أقاتل من أجل هذا الأمر العادل»(ص٩٩).

ويبدأ الون فى مقارعته .ومما يقوله «إن الجميع يعرفون جيدا ،ونحن نعود ونصرح بلا هوادة ، ان هذه البلاد هى أيضا وطن العرب الذين ولدوا فيها بصورة لا تقل عن كونها وطننا نحن أبناء البلاد الاسرائيليين ، لكنها وطننا بصورة لا تقل عن كونها وطنهم».« لكن العرب لا يريدون العيش معنا بأخوة فى وطننا المشترك ». ويقف من ورائهم ملايين الناس وهم أكثر غنى من شعوب العالم كافة بسبب نفطهم الوفير ..وهم لا يوافقون بأى حال على وجودنا فى بلادنا ويتطلعون بكل السبل والوسائل لابادتنا تماماً مثلما ابادوا قبل أجيال الاشوريين والارمن .. إلا أن مؤامرة العرب ، الذين يتطلعون لابادتنا ، سيكون مصيرها الفشل . لماذا ؟-لأن نوعيتنا ومستوانا الانسانى هما اللذان يقرران وليس الكثرة العددية وغناهم المادى . وأن لنا هدفا ساميا وهو أن نكون فى بلادنا شعبا يحتذى به ومنارا للاغيار مثل آبائنا الانبياء من قبلنا»(ص١٠٦-١٠٨).

وصار «الخائن » يتلوى وقد تملكته مشاعر الاحباط لقد اقتنع بأن كل ما قاله ألون عن العرب والاسرائيليين هو حقيقة أكيدة . الاسرائيليون هم الذين تطلعوا دوماً حقا ، إلى السلام وهم لا يتغيرون حتى لو تحول أعداؤهم إلى حيوانات مفترسة وإلى قتلة يبعثون على الاشمئزاز . وأن الاسرائيليين على استعداد للاستمرار فى كونهم مثلا يحتذى به اعداؤهم فى تصرفاتهم الشجاعة والأصلية التى تلزمهم باعطاء اعدائهم نموذجا فى كيفية التعامل مع الضعاف والمهزومين » (ص١٢٤) .وفى هذه اللحظة يكتشف الجرم الرهيب الذى ارتكبه ضد شعبه ويستل «شبرية» ويغرزها فى قلبه!.

* * *

لعل أكثر ما يثير الحنق فى المجادلة التى تدور بين ألون والخائن ذلك الجزء منها الذى يتعلق بتاريخ النكبة الفلسطينية واللجوء إلى التزييف فى عرض الوقائع . ولنستقرئ مقاطع من هذا الحوار:

«تكلم الون وأجاب الخائن عن الحقيقة الأكيدة : كانت حرب التحرير (كارثة عام ١٩٤٨ فى القاموس الصهيونى -المؤلف) الحرب الأكثر صعوبة لشعب إسرائيل فى السنوات الأخيرة . لقد بلغ عدد المستوطنين الاسرائيليين فى البلاد آنذاك حوالى ستمائة وخمسين ألف نسمة فقط مقابل مليون عربى محلى وحوالى أربعين مليون عربى فى الاقطار التى من حولنا .وكان الهدف الذى سعى إليه المليون عربى الذين استقروا فى البلاد بسيطا ورهيبا على حد سواء وهو -ابادة السكان العبريين بحمامات دماء رهيبة وبواسطة الذبح والتعذيب الوحشى ووراثة بيوتهم واملاكهم وكل البلاد ومحو أى ذكر لنا تحت السماء وعلى وجه البسيطة .كانوا على ثقة من انهم سينجحون بدون أدنى شك فى تنفيذ ذلك حال خروج البريطانيين من البلاد فى ١٥ ايار ١٩٤٨ لأنه حال خروج البريطانيين استعدت لغزو البلاد جيوش خمس دول عربية مجاورة يبلغ عدد سكانها سوية حوالى ٤٠ مليون نسمة- جيوش من مصر وشرق الأردن والعراق وسورية ولبنان- وسوية معهم يتغلبون بسهولة على الاستيطان العبرى الصغير ، الذى بلغ عدد سكانه أقل من نصف مليون نسمة ، وينفذون فيه حقدهم المروع ويبيدونه وينبهون ويسلبون كل ما كان يملكه . ولكن قبل خروج البريطانيين وغزو الجيوش العربية دارت فى البلاد معارك طاحنة ودموية بين قوى الاستيطان العبرى القليلة التى خرجت من العمل السرى -قوات الهاغناه والبلماخ والاتسل والليحى -وبين عصابات عرب أرض اسرائيل الكبيرة التى اعتدت على المستوطنات اليهودية بمساعدة البريطانيين وقوات عربية وقوية تسربت إلى البلاد بضوء أخضر من البريطانيين من أجل المشاركة فى السلب والنهب والمذابح المعدة ضد المستوطنات العبرية والتى لم تستطع الانتظار حتى موعد مجئ الجيوش العربية النظامية. وسأله الخائن:«هل شرد الاسرائيليون فى حرب التحرير وفى حرب الأيام الستة مئات آلاف العرب عن البلاد؟.

أجابه الون : لقد بدأوا بشن هجوم على مستوطناتنا فى أرجاء البلاد كافة ونصبوا الكمائن للقوافل التى كانت تزودها بالذخيرة فى الطرقات.

.. وقتلوا بوحشية شيوخا ونساء وأطفالا عزل ومثلوا بجثث القتلى .. لقد ارتكبوا اعمالا آثمة يصعب

وصفها . لكن شبابنا ، محاربينا القلائل ، ردوا الصاع صاعين وشيئا فشيئا عدلوا كف ميزان الحرب لصالحنا . واقتحمت قوافلنا المستوطنات المحاصرة وانتقلنا فى المدن المختلطة إلى الهجوم المضاد وضربنا مقرات عصابات القتلة ومواقعهم . وقد انهار المقاتلون العرب بفعل قوة انقضاضنا وبدأوا بالتراجع . وتراجع فى اعقابهم من المدن والقرى العربية الأهالى العرب كذلك . لأنهم ،وهم الذين ارادوا ان يشربوا من دم امهاتنا وان يحطموا الجدران على رؤوس أطفالنا وابادتنا جميعا حتى الرجل الأخير ،كانوا متأكدين من أننا سنفعل بهم مثلما أرادوا أن يفعلوا بنا.

وبعد أن دار دولاب الحرب وبدأنا فى التغلب عليهم لم يصدقوا نداءاتنا بأن الأهالى العرب فى القرى والمدن المحررة على أيدى قواتنا بامكانهم العيش فيها بهدوء وطمأنينة وأخوة تامة معنا . لكن هنا وهناك ، فى حالة واحدة أو حالتين ، أصاب مقاتلونا فى حمأة المعركة عرباً غير مقاتلين لكننا بأكثريتنا- كأبناء شعب الأنبياء فى أرض الانبياء - اردنا بجدية أن نكمل تراثنا الكبير كشعب حنون ورؤوف يتطلع إلى أخوة كل الشعوب وكنا مستعدين أن ننسى ونصفح ونربيهم لكى يكونوا مثلنا.

لكن العرب المحليين لم يريدوا عقد راية السلام معنا . وأمنوا بأنه بعد مرور فترة قصيرة.ومع غزو الجيوش العربية النظامية للبلاد يكون بامكانهم العودة إلى بيوتهم مع الجيوش العربية المنتصرة والاستيلاء على بيوتنا وتنفيذ مأربهم فى إبادتنا.

ولهذا اختاروا مغادرة البلاد بارادتهم على الرغم من نداءاتنا اليهم بالبقاء هنا والحياة بسلام معنا- لقد تركوا حيفا ويافا وطبريا وصفد وغيرها وانتقلوا إلى الأقطار العربية المجاورة وكلهم ثقة من إنهم سيعودون بعد فترة منتصرين ويأخذون ثأرهم.

ولكن غزو الجيوش العربية إلى بلادنا انتهى بهزيمتها الساحقة وبقى أهالى البلاد العرب الذين تركوا بيوتهم فى الدول العربية المجاورة لاجئين خائبين عاجزين عن العودة إلى هنا لابادتنا جميعاً.

وفورا غيروا جلودهم وتحولوا من منتقمين متعطشين للدم إلى مولولين على مصيرهم البائس ، مصير اللاجئين عديمى المأوى الذين طردهم الاسرائيليون بوحشية من مدنهم وقراهم فى البلاد فى الوقت الذى كانوا فيه مستعدين للعيش معهم ،مع الاسرائيليين ، بسلام .

وعادوا على هذه القرية كل يوم حتى أصبحت فى أذهان الرأى العام حقيقة أكيدة . وهكذا نشأت اسطورة اللاجئين العرب المساكين ».. «وعادت القصة نفسها فى حرب الأيام الستة. لقد تجند العالم العربى برمته من أجل اسرائيل . ووقف الاتحاد السوفييتى ، الدولة العظمى والجليلة التى حتى الولايات المتحدة ترتعد منها ، إلى جانب العرب بشكل علنى وزودوهم بأحدث السلاح من أجل تسهيل مهمة إبادتنا عليهم . لكن مرة أخرى اثبتت الشبيبة الاسرائيلية والشعب الاسرائيلى كله انهم ليسوا فقط أبناء شعب الأنبياء وإنما أيضا ابناء المكابيين وورثة الليحى والاتسل والبلماخ وفى حرب بطولية ستذكرها اجيال الحقوا هزائم ساحقة بجيوش مصر والأردن وسورية وحرروا أرض اسرائيل الغربية والجولان وسيناء . وهذه المناطق هى وطننا ليس أقل من كونها وطنا لسكانها العرب.

وكان سلوكنا مع عرب المناطق التى حررناها سلوكا مثاليا لكن أكثريتهم كانت متأكدة من أننا سنفعل بهم ما ارادوا فعله بنا ولهذا سارعوا إلى الهرب فيما وراء الحدود . وكالعادة وبعد عدة أيام بدأوا يصرخون عبر الاذاعة والتلفزيون والصحافة انهم شردوا من قبلنا بالقوة . ومرة أخرى نجحوا فى اقناع الرأى العام العالمى بأن هذه حقيقة أكيدة(ص١١٣-١١٨).

عندما تصل قصة من هذا النوع إلى أطفال فى العاشرة من عمرهم فإن هدفها يكون واضحا للعيان .وهم يتعلمون أن جميع العرب هم قتلة يدبرون لابادة اسرائيل وقتل الأطفال وتحطيم رؤوس الأمهات . وهم يتعلمون ان العربى الصالح هو أحد إثنين : إما العربى الميت أو العربى الذى قرر الانصهار فى الشعب اليهودى من خلال التخلى عن هويته القومية.

والأنكى من كل هذا أن المبرر الذى يصوغه افنير كرميلى لانصهار العرب فى الشعب اليهودى هو كونهم من سلالة بنى إسرائيل (؟؟) فهو حين يتحدث عن الشبان العرب الذين قرروا ربط مصيرهم بمصير شعب إسرائيل يكتب:

«بدأ عدد من الشبان الناطقين باللغة العربية يؤمنون انهم من سلالة بنى اسرائيل القدامى .وهم بقوا فى البلاد ولم يذهبوا إلى المهجر بعد أن خربها الرومانيون .وعندما احتل العرب البلاد اضطرت غالبية ابناء البلاد الاسرائيليين إلى قبول دين المحتلين وعاداتهم رغما عنهما- والآن -هكذا آمن هؤلاء الشبان العرب- ازفت ساعة الرجوع

إلى حضن شعبهم الحقيقى ، شعب اسرائيل ،والمشاركة فى عملية بعثه الكبيرة والعظيمة فى بلاده كشركاء متساوين »(ص٢٥).

* * *

« أفنير كرميلى » هو نموذج واحد فقط على كيفية ترجمة العنصرية فى أدب الأطفال العبرى.

ومثله ، أيضا ، يغئال موسينزون (أول كاتب للأطفال باللغة العبرية) ، صاحب سلسلة القصص الأشهر بين كتب الأطفال العبرية- سلسلة «حسبما » . وكذلك عيدو سيتر (اسم مستعار لحزاى لوفبان) ، وهو كاتب مسلسلات «عوزيعوز » و«جماعة المربع الأزرق » و« توكيديس » .ومنه نقتبس هذا الوصف النموذجى لشخصية العربى (من قصة «عوز يعوز ضد تماسيح فرعون »):

« هل سمعتم مرة عن سليم جحيداً ؟ إذا لم تسمعوا اصغوا إلى جيدا : إنه وحشى مثل ثعبان صينى . غير هياب مثل نمر هندى . مكار مثل ثعلب سورى . مجرم من بطن أمه .منذ نعومة أظفاره كان أشبه بلص أكثر من كونه ولدا طبيعيا .. فى السابعة من عمره ضرب معلمته بالكرسى على رأسها ، وقال لها إن حاصل جمع اثنين زائد اثنين هو خمسة ، وان تكف عن تعكير صفو أفكاره تلك البلهاء .. وفى العاشرة من عمره كان زعيم عصابة خاصة وأحب أن يقرر من ينوى أن يقتل أو أن يسرق ».

وقد عبر سيتر عن المفهوم الذى يوجهه فى الكتابة للطفل بقوله:

« أنا لا أؤيد الفكرة القائلة إن الكتاب ينبغى أن يكون تربويا . إذا قرأ الإنسان كتبا لطيفا وواجهته ، أزمة عائلية فمن شأنه أن يرتكب جريمة قتل . إننا نعيش فترة تتميز بالتعقيدات مع العرب فيما يمكن أن نسميه بكل بساطة «حقول ملأى بالدم » . وليس من العدل ،والحالة هذه ، أن نحكى للأطفال قصصا جميلة عن الأزهار والفراشات وزيت الزيتون الصافى . إن ذلك سيؤدى إلى أزمة : الطفل سيقرأ قصصا جميلة عن تغريد العصافير . وفجأة -هنا حرب وهناك مخاوف .وعندها سيعانى أزمة ثقة . فهل يجوز لنا ، إذن ، أن نخدع أولادنا.

فى المقام نفسه أعلن عيدو سيتر بصراحة متناهية : « إننى أكره العرب ».

ومنساقا وراء هذه الكراهية فإنه يصدر جميع قصصه بهذه الكلمات الموجهة إلى قرائه الصغار:

« هذا ما سيكون أيها الأصدقاء . الحياة لا تسير فى التلم . أحيانا يخيل لنا بأن كل شئ على ما يرام ، وأن ليس ثمة ما يبعث على القلق ،



ولا تحوم أية مفاجأة فى الأفق المحيط بنا . وفجأة يقفز ضدنا «مجهول» يحمل مواداً متفجرة من جميع الأصناف .فى عقله مكيدة آثمة وفى قلبه كراهية حاقدة ، هذا دليل على أن الحرب ضد العدو مستمرة، لا نملك حيالها شيئا . إنما ينبغى علينا أن نجابهه بكل قوة ، من أجل القضاء عليه مرة أخرى ولايهم بماذا : بمسدس أوسكين أو بزوجين من القفازات المستعملة فى الملاكمة . الجميع مشترك فى اللعبة . وصدقونى إن هذه اللعبة ليست من قبيل الهزء والسخرية بل هى لعبة من أجل الحياة أو الموت ».

مثل هذا الأدب العنصرى ، المتوحش ، اعتبره الباحث فى أدب الأطفال أوريئيل أوفك: سما قاتلا . وأضاف : «لقد حان الوقت لكى يستفيق الرأى العام على خطورة هذه «الصناعة» .ففى جميع الأقطار تندرج أشباه هذه الكتب فى عداد «القوائم السوداء» للمجلات التربوية والأدبية .وهذا الأمر ينبغى أن يتم عندنا أيضا . وربما حانت الساعة التى ينبغى فيها تشريع قانون يحظر إنتاج وتسويق هذا «الغذاء الروحى» الخطير والفاسق .

---

* الأماليد: الغنادير .. الجميلون ومفردها «أملود».

شعر

منمنمة يُؤَبِّدون لحظةَ السيراميك ونُؤَبِّدُ الزلزلة

محمد عفيفي مطر

١

سرابٌ دَنا فاسْتجاشَتْ له الروحُ وانْفَتَقَتْ تحت جلدىَ خارطةُ الرمل
(كنتُ أرقِّعُها كلما بَليَتْ أو تأكلُها
الظمأُ المتوحشُ أو ثقَّبتْها ينابيعُ
حلمٍ تطيش به خطواتى هنا أو هناك)
فمن - بالجراح البليغة - أعطاك هذى الدِّلاءَ
ومن - باتِّقاد شظاياك بالعطش الوحش -
أعطاكَ هذى الرِّشاءَ

لكي تَتَسَقَّى ، وأعطاك فسحةَ عمرٍ
وأغْرى بك المومياءَ
لتطويك بين لفائف كتَّانها المتوقِّد حتى تفوحَ
عظامُك بالنَّدِّ والمرِّ محترقاً بالحُنوطِ
يبللُ وجْدَكَ مجدُ السرابْ !

دنا فَتَدَلَّتْ دلاؤك ، صاحتْ بك المومياءُ: احْتَفِنْ حَفْنَةً..
(قلتَ : لا أنت منهزم فتفر ولاأنت ترجو فتُقْدِمُ)
صاحتْ بك : اشربْ ..
فما كدْتَ حتى وجدتَ السرابَ
قباباً يَرفرف من تحتها حجرٌ من بياضٍ فسيحْ..

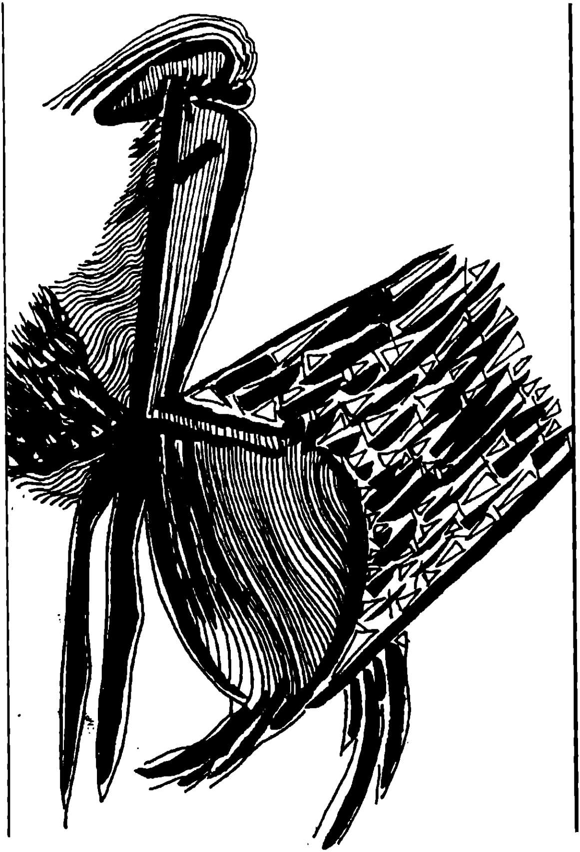
٢

لهم رَمْلُهم ولنا رَمْلُنا..
فَلِمَنْ طللُ يتأبَّدُ معناهُ فى مطلقٍ من خرائب أشكاله
تحت مجْد السراميك فى زهْو أشكاله :
قد أقمتُ الجدارَ الذى كاد يَنْقَضُّ .. من تحته
كنزُ طفلين ، حتى إذا بلغا الُرشْدَ قاما من اليتم
وانتزَعا الكنزَ..
لكنه انقضَّ ثم هوى طللاً قاتلاً دُفنا تحته
وتَنَاهَبَت الكنزَ أيدى القبائل..
أقبل زحفهمو عاصفاً من رمادٍ على مرمرٍ من سَرابْ
فهم همجٌ وسراحنةٌ، نافعيّون أو مكْرَميُّون رَيَّاتَويُّون
أو شركسٌ جَلَبٌ من مماليك طيبةَ أو دُونَمَةِ الزمنِ الوغدِ،
هم حَمَأٌ يتحدَّرُ من شطِّ قارونَ عِجْلُهمو ذَهَبُ

ذو خوارٍ يجلجل بالرمل والملح فى ملكوت الخراب
لهم رملُهم ولنا رملُنا.
وجحافلُهم مَدَدٌ من " سَوِيرَ سَوِيِّن" فى حابلٍ نابلٍ من بلاشفةٍ تَتَغوَّطُ أقلامُهم
فى لحى الأمميَّة ،
يَسْتَكْنِسُون الدَّوانقَ من ظلمات الخليج ،
يبيعونَ أو يشترون على شرف الشبح النَّوبلىِّ
ويشْوون جثتَه فلذةً فلذةً،
ويقيمون قُشلاقَ ذاكرة الوطن المستباحِ
على طبقٍ كبرتْزَرِىٍّ" يُضَوِّئه الشمعدانُ
السُّباعىُّ فوق " الحنوكاه،"
هم رقصةُ عجبٍ بين بوابَةِ الشرق أو باب " لاطُوغلُوبِّاتهم"
ودفوف " سعاد" ونوْطِ الصليبِ المدَمَّى وطقسِ
الوضوءِ المباعِ على بئرِ زمزمَ،
تنويرويُّون فحمٌ قلوبُهمو وعقولُهمو ظلمةٌ يملأون
الأماسىَّ من صخب الجنرال الحديدىِّ والخشبىِّ لعلَّهمو
يستعيدون أمجادَهم فى اغتيال الكلامِ
وقَتْلِ الهواجس والصمت،
راحوا يهشُّون بالسوط والذِّكريات على غنمٍ
ليس تثْغو ولا ترْتعى،
ولهم رملُهم ولنا رملُنا .

٣

لمَنْ طلَلٌ يتأبَّدُ معناهُ فى مطلقٍ من خرائب أشكالِه تحت مجْدِ السراميك فى زهْوِ أشكالِه :



خضرةُ من شعيرٍ وصفرةُ كرمٍ تدلّتْ عناقيدُه
تستحيلان نَبْعَ زجاجٍ يفورُ دماً في النبيذِ
وتبْرَ شعيرٍ مذاباً برَغْوِ الذهبْ .!
لنت طَلَلُ ساوَرَتْه الأوابدُ من لاحمِ الطيرِ
والإنسِ والجنِّ
ماسَلِمَتْ من يدٍ أو لسانٍ يدُ أو لسانٌ ،
ومملكةُ الرب عرشٌ لفرعونَ أو قيصرٍ،
ونداوةُ خُوصِ الشّعانينِ عَنْخُ الذهبْ.

٤

لهمْ رملُهم ولنا رملُنا ،
رملُهم من فتوق التواريخ سجّادةٌ من
رقاعِ السراميك تَلْفِقُ صدراً بنهدٍ وزهرةَ
آسٍ بطيرٍ وزخرفَةً من حريق الحواسِّ البهيمةِ
أو من بُلَهْنِية البُلَهاء على بُوسْترات الصبايا
البغايا وعُهْرَ الفواجرَ في فوْرةِ البحرَ من
خُضرةٍ لم يُؤنِّسنْ خزائنَها الربُّ
أنْسَنَهَا الدركيُّونَ
أنْسنَها الجنرالُ الحديدُ الخشبْ

٥

لنا رملُنا:
حاصِبُ من خيال الشّغَبْ



يرى مايرى هَبْوَةً .. فَقِفا وابْكيا فرحاً إذْ يُلَمْلِمُ
رُخُّ الزلازلِ صيحتَه وبروقَ جناحيْه
حتى إذا هَمَّ بالطيران تَخَلَّعَت الأرضُ بين مخالبِه
وتَكَشَّفَ من تحت رملهمو رملُنا.
خالداً فى المكان المُؤبَّد..
قُوما ابْكيا وطناً لم نكنْ منه أو فيه ياصاحبيَّ..
فنحن عبيدُ محبته ورؤاهُ ، عبيدُ انْهياراته وعبيدُ
انتظار زلازله،
ولنا من دفوف الدراويش مَرْقَى دم رائقٍ فى
كؤوسٍ رَوِينا بها " قبلَ أن يُخلَقَ الكَرْمُ " ، مَهْوَى شباكٍ ، وصيدُ هو الحَبَبُ
المنتشي بصهيلِ
البراكين فى فزَعِ الكر والآه،
نُطْلِقُ وَجْدَ الخيالِ الفتيِّ نلمْلمُ هذا الحطامَ الركامَ،
فقُوما ابْكيا ياخليليَّ من
فرحٍ بانتظارِ الفرحْ

١٩٩٩/٨/٢

قصة

الملعب الطبيعى

عبده جبير

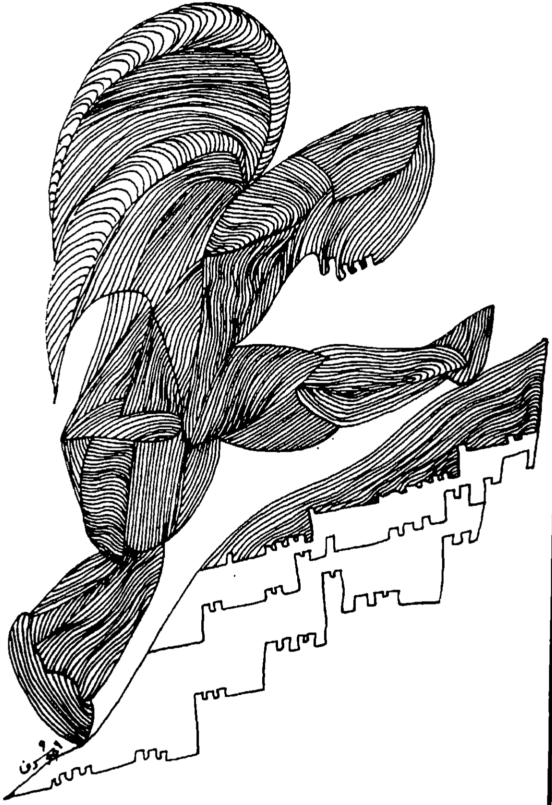
(مهداه إلى أحمد البغدادى ومارسيل خليفة وصديقى إبراهيم عبد العاطى)

فى السادسة والربع تماما كان إبراهيم عبد العاطى قد نزل من التاكسى أمام مقهى الحرية فى ميدان باب اللوق، قادما من دار الهلال، بعد أن قضى هناك سحابة نهاره يبحث وينقب فى الصحف والمجلات الصادرة طوال العام الماضى وحتى الأمس، محاولا معرفة السر وراء تغيير جرى هذا الصباح فى شارع محمد فريد الذى لا يبتعد سوى أقدام قليلة عن المكان الذى نزل فيه من التاكسى، قادما من دار الهلال التى لا تبتعد بدورها كثيرا عن نفس المقهى التى دخلها الآن حيران، لا يعرف أين يجلس، أو ماذا يشرب، أو إلى أى شئ يلتفت.

لكنه التفت دون قصد إلى المرآة العريضة المعلقة فى الركن القصى من المقهى فوجد شخصا حزينا، فى الستين من عمره، خرج منذ شهرين إلى المعاش بعد أن قضى سبعة وأربعين عاما يعمل فى دار الهلال نفسها. فى المكتبة التى قضى فيها سحابة نهاره، ينقب عن السر الذى دفع عمال المحافظة إلى القدوم مبكرا فى صباح اليوم نفسه.

رآهم حين خرج لشراء إفطاره وصحيفتيه، مصحوبين بعربة البلدية ذات السلم العالى، وظن لأول وهلة أنهم يقومون بتغيير لمبات المصابيح المطفأة منذ زمن، لكنه وجدهم يغيرون لافتات الشارع من الأركان.

يرفعون تلك القديمة التى اعتاد أن يلمح عليها، طوال عمره المديد الذى قضاه فى نفس هذا الشارع، اسم محمد فريد، ويضعون مكانها لافتات-



جديدة تحمل اسم المذيعة التلفزيونية الشهيرة صفاء أبو السعود.

أخذته الدهشة بالطبع لهذا التغيير المفاجئ، فطلع إلى شقته، وضع الإفطار على طاولة الطعام فى الصالة وفتح أولا صحيفة الأهرام بأسرع ما يستطيع باحثا عن خبر هذا التغيير. لم يجد. تناول الأخبار وقلب صفحاتها بدقة. لا شئ.

قام إلى التلفزيون فوجدهم يبثون برنامج صباح الخير يا مصر وصفاء حجازى تذيع الفقرة الإخبارية لكنها لم تشر للموضوع.

ذهب إلى الفراش وتمدد فاتحا الراديو فوجد صوت العرب يبث فقرة غنائية استمع خلالها لأغنية عمرو دياب الأخيرة، أعقبتها أغنية لحكيم، ثم ما إن بدأت لطيفة أغنيتها حتى قطعتها المذيعة، التى لم يكن واضحا من هى، وقرأت الموجز دون أن تشير أيضا إلى شئ مما يشغل باله.

أطفأ الراديو وسحب الغطاء على جسده المتعب وغفى للحظات أيقظه الجوع منها، فقام إلى طاولة الطعام. حمل الخبز والجبن إلى المطبخ. وضع الماء على النار وصنع كوبا من الشاى.

عاد إلى الصالة وجلس إلى مائدة الطعام وأكل قليلا من الجبن بالخبز.

عاد إلى تقليب الصحيفتين مرة أخرى لم يجد شيئا.

فكر أنه كان عليه أن يذهب إلى دار الهلال ليسأل عما جرى بخصوص صرف مستحقاته عن نهاية الخدمة. حسنا. هناك ربما عرفت شيئا عن الموضوع. لا. لاشئ.

سأل ثلاثة صحفيين فى المصور. ومحررة فى الكواكب. ورئيسة تحرير حواء. لا. لا شئ. بل إن الجميع نظروا إليه باستغراب. لأكف عن السؤال. ربما ظنوا أننى قد جننت.

صعد إلى المكتبة وقضى سحابة نهاره يبحث وينقب. لا شئ. نزل وركب التاكسى إلى حيث يجلس الآن فى ركن المقهى. يدخن الشيشة ويرشف الشاى. ويتطلع بين لحظة وأخرى إلى وجهه الذى بدا له وجه رجل أكبر مما كان يظن. ابتسم. فالناس سيظنون أن شيئا ما قد حدث لك. ونظر .كان يبتسم بالفعل. أخذ يدخن بإخلاص أشد، لكنه دون قصد، وجد إبراهيم عبد العاطى آخر يجلس إلى الجهة الأخرى من نفس الطاولة التى كان جالسا إليها كان هو الآخر يدخن الشيشة ويرشف الشاى الأحمر. فى البداية لم

يجرؤ على تبادل الكلام معه ، لكنه حين وجده يبتسم . قال يبدو أن الرجل بشوش هذا الصباح .كيف الأحوال . عال .كيفك أنت ؟ . ماشى . عملت إيه اليوم ؟. لا .لا. شئ مهم.

تناولت .. أعرف . جبنا وخبزاه . آه . هذه عادتك . آه . على الرغم من أن عندك ضغط . يا سيدى . سيضر بصحتك . الله كريم . وأنت الآن وحيد لا أحد يخدمك . ثم قرأت الصحف . كلها . لا .الأهرام والأخبار فقط. ها . لا. لاشئ . وشربت شاى . آه . وسمعت نشرتى أخبار . واحدة فى التلفزيون . فى صباح الخير يا مصر. آه والثانية فى الراديو. فى أى محطة . والله ما أنا فاكر . لا وسمعت أغنيتين ونصف . ونصف ؟ آه لأن مذيعة الراديو قطعت الثالثة لتذيع النشرة . إنهم يفعلون هذا كثيرا هذه الأيام . وذهبت إلى دار الهلال وسألت . آه . لا شئ . سألت عن أى شئ؟ عن نفس الموضوع الذى حدثتك عنه من قبل . وآه . إيه الأخبار . لا . لم يقوموا بعمل الإجراءات بعد. آه . هذه الأمور تحتاج . أقصد تستغرق وقتا . آه .عندهم الكثير منه. لكن أنا وأنت ؟ على أى حال . ما رأيك فى أن نتمشى فى وسط البلد نبصبص على النسوان؟. لا . أنا أريد أن أجلس هنا. صحيح نسيت أسألك ؟ عن أى شئ ؟ . أليست صفاء أبو السعود هذه مذيعة تلفزيونية ؟ آه وراقصة أيضا وغيره . ماذا تعنى بغيره؟. فنانة شاملة يعنى . آه . وغنية جدا جدا . آه . طيب أتركك أنا الآن للشيشة . مع السلامة . مع السلامة.

دفع الحساب لشخصين وخرج إلى الطريق.

لكنه بعد خطوات وجد نفسه متعبا جدا.

أكثر مما يجب.

أكثر مما يمكنه معه التمشية فى وسط البلد للبصبصة على النسوان . فقفل عائدا إلى شارع محمد فريد الذى أصبح منذ الصباح شارع صفاء أبو السعود . إلى البيت . إلى السرير . حيث يصبح الفراش هو المكان الطبيعى فى مثل هذه الأحوال من التعب.

شعر

الغرفةُ ذات الشُّباكِ المغلقِ

سمير درويش

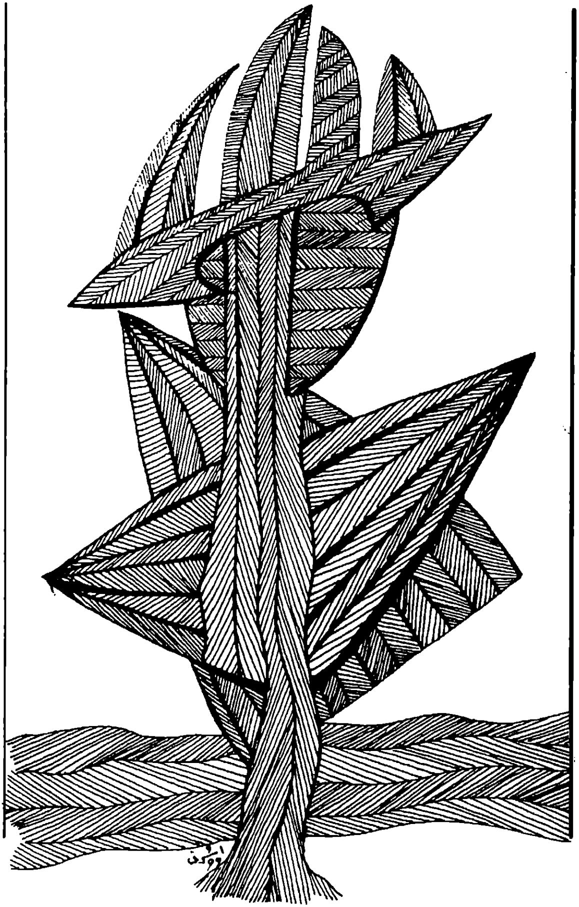
الغرفة ذات الشباكِ المغلقِ
ساحةُ صراعٍ
لذلك امتلأ الجوُّ
برائحة الخصام
وارتفعَ الشريطُ الطوليُّ الأوسطُ
من المرتبة ، وعليه
استسلمَ جسَدُ سُهَيْلَ
للنعاسْ

* × *

كلما هبطَ النصفَ الأيمنُ من السريرِ
رفعتُ التلفازَ لأعلى
أنا الذى أدمنتُ البحثَ عن
البثِّ الأوربىِّ، لأعرفَ
متى ينتهى الألمُ الذى استوطنَ عظام رقبتى.

× × ×

عندما يبكى سُهَيْلُ..
تعبث يداى فى قواريره
المرصوصة على شباكِ السريرِ
وعندما يضحكُ..
أتقافزُ حولهُ كبهلوانٍ بين
حاجياته المتناثرة.
وعندما يَستحمُّ ، تَتبللُ أحذيتى
بالرذاذ المشبعِ برائحةِ الصابونِ
الذى يتطاير



حولَ الطبقِ البلاستيكى.

× ×

بعد منتصف الليل
طاردتُ ذبابةً بمبيدَ فعّالٍ
(الذباب يؤرقُ حتى الذينَ
ليستْ بهم حاجةُ للنوم)
وعندما اخترقَ آذانُ الفجرِ
جدارَ رأسي
كنتُ أجاهدُ لأضعَ جسمىَ
كلَّهُ ، تحتَ الغطاء
وعندما يأتى الصَباحُ ياأيتها الغافيةُ
ألصقِ فوقَ وجهى ملامحَ
جديرةً
باصطيادِ العصافير .

× ×

يبكى سهيلُ ليأكُلَ
يبكي ليشربَ
لينامَ .
ليلعبَ
ياهذا العمرَ الذى يجرى
يجعلنا شركاءَ فى شركاتٍ لانرومها
شركاءَ مغبونينَ
لانأكلُ
لانشربُ..
لاننامُ
ولانلعبُ
لأننا لانقدُر على البكاءْ.

× ×

الدماءُ التى تنزفُ فى
موسمها الشهرىِّ
لاأجدُ لَدىَّ رغبةً
لإيقافها .

× ×

أضمُّ سهيلَ بين ساعديَّ
أقبّلُ شفتيهِ
وجنتيه
وكفيه المنمنمتين ،
فيضحكُ ضحكةً رائقةً ، يهتزُّ لها
جسدُهُ الصغيرُ
ويعلك خنصرى بين فكيهِ.
سهيل..
الذى قاطع نورسيْهَا
أيضاً.

× ×

الأغطيةُ ملقَاةٌ على السريرِ
ماتزالُ،
ملابسُهَا معلقةٌ على المشجبِ
البلاستيكى ، خلفَ الباب
جوربُهَا ذو الرائحة النفاذَة
ملقىً على سجادة الطرقة
بقايا الطعام على السريرَ
عيناها مربوطتان فى شاشة التلفاز
تتابعان مسلسلاً هابطاً
وأنا أندفعُ خارجاً
كلَّ صباحٍ ، فى التاسعةِ
إلا عشر دقائق.

× ×

مثلى..
ينظرُ سهيلُ للكاميرا بوعىٍ
يفتحُ عينيهِ عن آخرهما
ويرفعُ حاجبيه .
ومثلها يبكى..
دراً لعواطفِ الآخرين.

× ×

تتحدَّثُ بطلاقة مندوبى المبيعاتِ
دون انتظارِ إجابات.



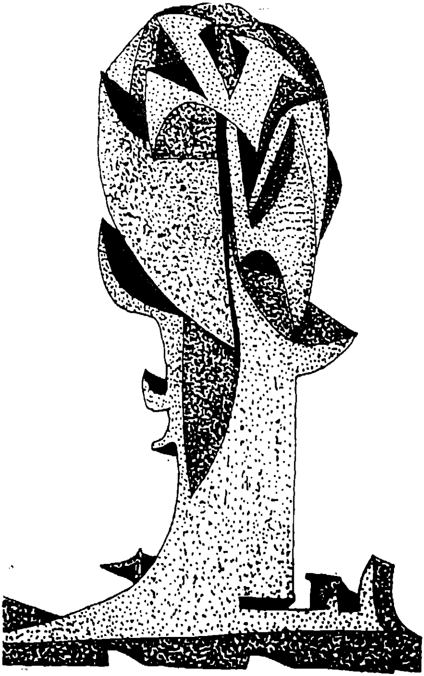
تتنقّلُ برشاقة
وبذات النبرةِ المستويةِ
بينَ الموَضوعاتِ
وعندما تحدِّثُ صَديقاتها فى الهاتفِ
تلمعُ عينيها ببريق
يناسبُ الدّم الذى يحْتبِسُ
فجأةً ، فى وجنتيها .

× ×

دعى سهيلَ يبكى
دعيه
لن يستطيع وحدَهُ
أن يَصلَ التاريخَ الصّاخِبَ
بالجغرافيا المصلوبةْ.

أمي أضيئي الشمس / أحمد خان أبو بكر / ترجمة : أحمد مصطفى

الديوان الصغير



لعله من قبيل التزيد الحديث عن فكرتى الحرب والمم كبؤرتى اهتمام فى الأدب الروسى (السوفيتى) المعاصر .وكلنا يذكر رائعتى تولستوى وجوركى « الحرب والسلام» و«الأم ». وفي الوقت الذى انضوت فيه العديد من القوميات والتكوينات العرقية تحت مظلة الاتحاد السوفيتى السابق .حتى نهاية العقد الماضى ،كانت دول آسيا الوسطى الإسلامية داخلة فى عملية طويلة من التشكيل الثقافى ، يستند إلى رافد إسلامى (عربى وفارسى وتركى) ويستلهم تراثا روسيا عريقا وفى الوقت نفسه يحاول الانتظام فى ثقافة سوفيتية مشتركة.

ولعل الأكثر تأثرا بهذه المحاولة التكوينية الثقافية هم أدباء الستينيات والسبعينيات فى الاتحاد السوفيتى السابق . والكاتب الداغستانى أحمد خان أبو بكر يمثل هذه المرحلة .وهذه القصة التى نشرت فى أواسط الثمانينات تعد نموذجا على هذا التمثل الثقافى . بالاضافة إلى أنها مزجت بين فكرتى الأم والحرب فى عمل لا يفترد إلى دقة البناء.

وإذا كانت القصة تبدو مقسمة إلى« حكايات » من الماضى تحكيها أم لأطفالها ، فإن الحرب لن تنتهى من العالم وإن أخذت أشكالا جديدة وكذلك فالأم موجودة ما دامت هناك حياة .وهكذا تصلح هذه الحكايات الداغستانية للأطفال والكبار على السواء فى كل وقت ، وتلك سمة الأدب الجيد.

وإلى جانب القيمة الأدبية والفنية ، لا تخلو الحكايات من « التعليمية » التى اتسم بها الأدب السوفيتى فى ظل الحكم الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى (السابق) . وسيجد القارئ أن الخلاصات « التعليمية » فى حكايات الأم للقاص أحمد أبو بكر ليست بعيدة عما سمعه الكبار منا من حكايات فى صغرهم تحث على السلوك الفاضل والأخلاق الحميدة وتنهى عن عكس ذلك.

أمي : أضيئ الشمس

..كيف حالك يا أمي العزيزة؟ كيف تسير الأمور في قريتنا الجبلية البعيدة يا أمي؟ هل تجدين دفئا كافيا في المدفأة القديمة الوحيدة ؟ هل ما زال موقدنا الحديدي القديم يدخن ، ما زال دخان الروث المجفف يجعل عينيك رائعتين؟ هل كان الخشب الذى أتى به صديق والدى القديم كافيا حتى آخر الشتاء ، فلا تجدين الثلج على أوعية الماء في الصباح ؟ هل ما زال جيرانك وبناتهم الصغيرات ذوات الخدود الوردية طيبين ودودين ؟ ألا يساعدوك ؟ إني أعرف أن الأمور صعبة عليك آه أعرف هذا وأحسه في قلبي.

أعرف كيف تكتمين أنفاسك وأنت تصغين لصوت الريح ولوقع الأقدام في الخارج . لصوت كل باب يفتح ، على أمل أن ترى ابنتك أو ابنك.

لكن أطفالك مبعثرون ، طاروا من العش الدافئ حيث كانوا سعداء معا . وتتمتمين مع كل همسة وصوت باب باسم ابن وابنه على شفاهك ، لكن ما من مجيب .فما الهمس إلا حفيف احتكاك ملابس الجارة بالجدران أثناء مرورها وصوت الباب بسبب الريح فأولادك بعيدون عن عائلاتهم واهتماماتهم ، نعم ،فالحياة منسوجة من خيوط واهية سلسة يا أمي العزيزة.

في الحال سيذوب الثلج على المنحدرات البيضاء ، سينساب الماء ويندفع إلى أسفل ، وتظهر نبتات الشبيط اللينة التي تجمعينها للطبخ من حول العيون ومن على مشارف القرية . وتنفذ خطوط شمس الربيع الدافئة إلى الكوخ . وتحملين الأغطية والملابس والسجاجيد إلى الشرفة » لتهويتها وتخليصها من رائحة الدخان والجلد الخام الشتوية ، على أمل أن بعض أحفادك أو أولادك سيأتي في زيارة.

وفي يوم النيروز سوف تخبزين الكعكات التقليدية بالجوز والعسل تجهزينها إلى أن يدق الأطفال بابك واحداً تلو الآخر قائلين:

-جاء الربيع وجئنا نخبرك.

- وبعد ذلك-بالطبع يا أمي العزيزة- تعطينهم كعكاتك الحلوة وتدسين حفنة من الجوز في الحقيبة الجميلة التي يحملها كل منهم .حينئذ يقول لك طفل ذكي:

-أخبار طيبة في الطريق.

ويجري نازلا على العتبات الحجرية ، وسوف تأملين أن تتحقق الأمنية الطيبة للبشير الربيعي الصغير وتنتظرين.

أعرف جيدا أنه ما من أحد على الطريق يمكنه أن ينتظر مثل الأم، انتظارا بأمل مهما طال الوقت.

أمي الفقيرة ، كم أنت غنية في تجارب الحياة ، حلوها ومرها . لم تحك لنا أبداً عن سعادة عرفتيها ،مهما كانت مرارة مصير الشخص فهي في النهاية كفيلة أن تعطيه ، بالتأكيد ، ذلك الإحساس الرائع.

كانت لك سعادة عظيمة ،كانت لك عزيزتي وإلا ما كان مصيرك مرا هكذا . لقد اعتدت أن تغني أغنية بجوار مهادنا أذكرها لأنك غنيتها لأخي وأخواتي وكنت أنا الأكبر ، وربما لهذا السبب كنت الأسوأ حظاً .

فبعد موت والدي كان الكل ينظرون إلى بأمل وتوقع ،فأنا الآن أستطيع أن أجلس على يمين الموقد -رجل العائلة -وعلى فقر تجاربي في الحياة ارتكبت أخطاء تكفي عمراً بأكمله.

والآن فقط وأنا عي مشارف الخمسين أصبحت معاني أغنيتك واضحة لي ، قيم النجاح والاخفاقات القدرية التي فهمتها أخيراً اعذريني إذا أخطأت في الأغنية كما أخطأت في الحياة ولكنني أتذكر روحها جيداً:

« الحياة مثل صرتين
على كتفك كخرجين
ملئ أحدهما بزهور البهجة الجميلة
والآخر بضباب الندم المعتم
على كتفك فارفعهما
وامش بين الناس
وليرك الكل تعيش وتترعرع
وبيسر تحمل الصرتين اللتين تحملهما
ولو سألك أيهم بعض الهدايا
وقال: الصرتان مملوءتان للجميع
شارك الناس الطيبين المتعة والندم
كشكركة الخبز بين عابري السبيل».

أمي العزيزة لو كنت بجوارك أكنت أجرؤ أن أحكي كثيرا مما يجثم على صدري ،مما يهزني بعنف لولا هذا الورق الأبيض؟ .

لقد ربيتنا على الحرص ، لا لنكون مسرفين حتى في التعبير عن الأحاسيس ، أن نكون حريصين في إعجابنا ، أن نحب توفير الكلمات ، فغالبا ما يمكن فهم الأمر دون ثرثرة،

حقا لقد ربيتنا معتدلين فى كل شئ، ربما نحن الذين لم نفهم تعاليمك جيدا.

ولكن شيئا واحداً أصبح واضحا على مر السنين ، ساعدتنا تعاليمك على تحصين أنفسنا من مساوئ ونقائص زماننا.

كلما فكرت فيك تذكرت طفولتى ، لن يبدو العالم أروع مما كان وقتئذ ، بالرغم من بعد الحياة وقتها عن الصفاء. ولكن للطفولة -كما تعرفين- عيون عجيبة خاصة واضحة صافية.

الطفولة حدوته خيالية ، ولابد للحدوته الخيالية من نهاية سعيدة ، دائما هناك علاء الدين ومصباحه.

حالا سأبلغ الخمسين يا أمى، لكن أحيانا أحس بالحنين إلى الجلوس بجوارك وأخذ قطعة قماش «أحك» بها مصباحنا النحاسى القديم تصورى جنى طيب يظهر فجأة ويقول:

– يبا تأمر يا سيدى ؟ أنا أسمع وأطيع.

ماذا أسأله ؟ يبدو أننا نحتاج لكل شئ يا أماه : الخبز والملابس لكنها كلها متشابهة ، هناك شئ واحد سأطلبه : العودة إلى الطفولة.

هل هذا صعب جدا ؟ سآتى إليك وتسترجعين بابتسامة وتنهيدة ، تتحدثين عن تلك السنين فلديك الموهبة أن تعيدى إليها الحياة ، آتى إليك وأقول:

– أهلا يا أمى.

– وتتشبثين بى ورأسك على صدرى وأرى وقتها كم كبرت وكم أصبحت أنت هزيلة نعم ، حينما كنا أطفالا ونستقيظ فى منتصف الليل ونطلب منك:

– أماه ، فلتضيئ الشمس ، اجعلى النهار يأتى.

–ها أنا ذا على مشارف القرية التى تعلو مستوى سطح البحر بألف وستمائة متر بالاضافة إلى ثمانية وعشرين نتيجة لانخفاض بحر قزوين كما يقولون . أتيت إلى بيت طفولتى ،حيث عيون الماء مألوفة، وإن كانت تبدو أقل ماء ، إلى الممرات المجهولة الآن، كل المنحدرات ، الأشجار والجداول . المكان الذى خطوت فيه عتبة الكوخ داخلا العالم.

أعرف أنه بعد أن تأخذينى إلى الحجرة الدافئة المريحة ، ستخرجين إلى الزواق وتقفين هناك قائلة للجيران والأقارب وربما عابر سبيل

بالصدفة.

– ابنى الأكبر جاء اليوم ليمضى معى بعض الوقت، تعالوا شاهدوه، سنكون مسرورين جدا. لقد صنعت بعض الكعك بالتوابل.

فليأت الجيران والأقارب والأصدقاء .هناك الكثير لنستعيد ذكرياته، بالرغم من أن أفضل الأشياء أننى أحب أن أنصت إليك يا أماه، عودى بى إلى طفولتى يا أمى.

ها هو الليل لكن الضيوف لم تتفرق. أقران ولدك ما زالوا ينتظرون الذكريات ها هو الليل وأريد أن أصرخ:

– أماه، أضيئى الشمس

وتضيئينها وأعود طفلا ثانية...

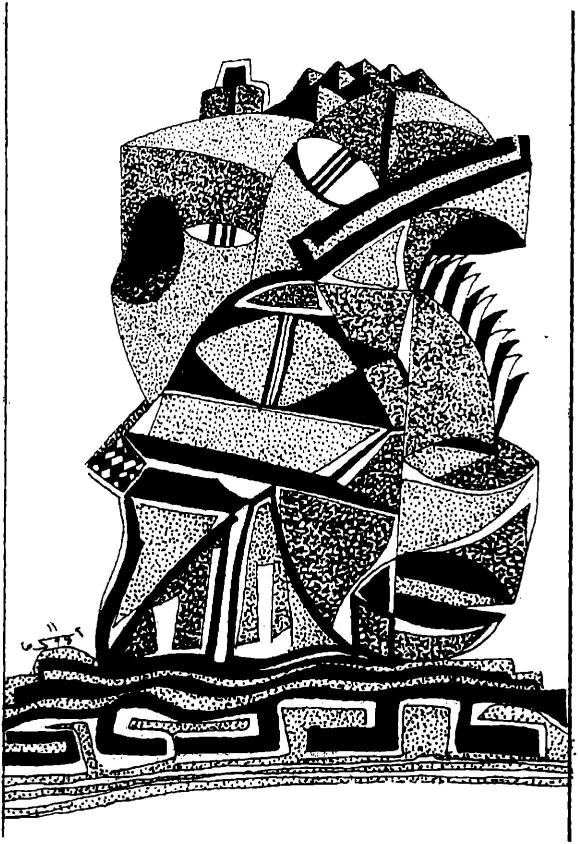
المسافر الطيب

أطفالى الأعزاء، ماذا أحكى لكم عن طفولتكم؟ كانت نعومة سنوات الحياة كجدول جبلى يشذب حجارته. تلك السنوات التى كما لو كنا نراها من خلال شبورة الصباح المبكر، إننى أتعجب أحيانا كيف حدث هذا إلى ولكم. ولكننى ياأطفالى تعلمت من حياتى درسا واحدا: يجب على الإنسان أن يفعل الخير، الخير فقط، وللتذكروا، لو فعلتم الطيب لا تتحدثوا به، لكن لو جاءكم الخير فلا تنسوا أبدا أن تحدثوا الناس به. ولا تتعجلوا يا أطفالى أن تحصلوا فى الحال على مقابل ما قدمتم من خير .حتى لو لم تدركوا قيمة أن يعود عليكم جزاء ما فعلتم، فإن أولادكم وأطفالهم سيحسون به، هذا شئ أكيد.

كانت سنوات صعبة، سنوات طفولتكم تلك. كانت سنوات حرب، وكانت صعبة على الكل، وكما كانت أصعب بالنسبة لى مع المرحوم أبيكم وأربعة أطفال صغار. ووجد الناس الطيبون الذين كانوا يعرفون والدكم وظيفة لى فى ملجأ أطفال، كمرشدة عمل .كنت أعلم الأطفال تنظيف و« نقش» الصوف، وغزله خيوطاً وصبغها وحياكة الجوارب الصوفية التى كنا نرسلها إلى الجبهة شهريا.

كم أوت تلك الملاجئ من أطفال ،كم ساندتهم حتى وقفوا على أقدامهم! ما زلت أقابل بعضهم وما زالوا ينادوننى، أماه، بالرغم من أن أكثرهم أصبحوا الآن أجدادا وجدات.

لقد كانوا حكماء، هؤلاء الناس الذين فكروا فى تلك الملاجئ فى القرى الكبيرة على طول البلاد، فقد كانوا يفكرون فى مستقبل أفضل



.وكم من خطابات تسلمناها من الجبهة تشكرنا على تلك الهدايا .كانت كل بنت تضع في طرف الجورب خطابا تقول فيه من هي وتسأل عما إذا كان أحد قد شاهد أباها على الجبهة . وتصوروا إحدى البنات من « ديبجاليك » كان اسمها «كيزبايك » جاءها خطاب بالفعل من أبيها ،كان أحد الرجال قد أعطاه الجورب والخطاب . ولكم أن تتخيلوا البهجة التي كانت في ذلك ، لقد رفعنا العلم ،وعقدنا اجتماعا على شرف الحادث العظيم وأراد مديرنا الأعرج «شيخشا» أن يتحدث لكنه اختنق بالبكاء في منتصف الكلام.

بعد إعطائكم الفطور في الصباح كنت أذهب إلى العمل وأنتم إلى المدرسة عدا الصغيرة «بيكي» وكنت أظل قلقة طوال الوقت أفكر فيما أقدمه لكم للعشاء .كنت أخلط شيئا من البطاطس والشبيط ويقلقني كيف سأملأ معداتكم الجائعة في المساء.

وحدثت ذات مرة مصيبة حقيقية عندما أرسلت «محمد» الصغير ببطاقات الخبز وعاد يبكي وينشج(ويفرك) عينيه بكلتا يديه ويرتعش بالرغم من أنه كان يوما حارا ، لقد كان يثير الشفقة بملابسه المرتقة وأقدامه الحافية وظل محمد يقول:

– أمي ، أماه..

كان هذا كل ما يستطيع أن ينشج به.

– ماذا حدث؟.

– أمي ، عزيزتي ، سامحيني

–ماذا حدث، هل أصابك أذى؟.

– لقد فقدت.

– هل فقدت؟.

لم أفهم لتوى .. وعندما فهمت لمت نفسي لانتمائي الطفل على بطاقات خبزنا ،كا ما كان لنا لثلاثة أيام ضممته بين ذراعي وبكيت معه.

– لا تغضبي مني يا أماه ، لم أكن أقصد أن أفعل ذلك ،كنت آمل أن يكون هناك تعويض ، سامحيني يا أماه.

– تناولت قبعة أبيكم الفرو الطويلة من على الحائط وأخذتها إلى جار لنا فأعطاني مكيالا من دقيق الذرة مقابلها ،وخبزت أربع فطائر ، واحدة لكل منكم ، لكنكم رأيتم أنني لم أصنع لنفسي شيئا فأعطاني كل واحد منكم نصف ما معه ، فأكلت إحدى القطع واحتفظت بالباقي لليوم التالي ، وذهبنا إلى الفراش . لم يأت النوم .كان القمر ساطعا من

النافذة مكونا رقعة بيضاء كاللبن . وفجأة حجب شئ كثيف الضوء ،وكان هناك نقر خفيف على النافذة . قفزت فرأيت وجها رهيب المنظر ،كان كث اللحية لكنها لم تكن اللحية هى المرعبة ، بل العينان ..

تستقران فى تجويفين عميقين ، بائستين متهورتين.

كنت مشلولة من الرعب ، انفرج الشباك محدثا صوتا ، حينئذ أيقظتك أنت الأكبر ، ورأيت أنت أيضا اليد العظيمة الطويلة لرجل عجوز تتمطى فى الفراغ.

– افتحى الباب يا أماه دعى ضيفنا يدخل.

أشعلت المصباح وفتحت الباب ودخل رجل فى معطف شاحب اللون يتكئ على عصا:

– لا مؤاخذة ، سأذهب فورا ولتسامحينى لازعاجك ، ولكن لا تدعينى أموت من التضور جوعا ، سأذهب ، فقط أعطنى من فضلك شيئا له رائحة الخبز.

– إيه ، ولكن عزيزى ، أيها العجوز الطيب ، نحن أنفسنا..

فقاطعتنى أنت:

– أماه ، أمى أعطه نصفين من الانصاف الثلاثة التى تركتها للفطور ، من فضلك يا أمى.

– لا تدعينى أموت ، ستجازين على عطفك.

– أمى أعطه نصيبنا.

كان صوتك ينزف ، كنت تريد مساعدة العجوز بشدة لدرجة أننى استسلمت ، وأجلسته على ملاءة بجانب المدفأة وأعطيته نصفين من فطير الذرة وطبق حساء عدس. توقعت من الرجل المتضور أن يبادر بالتهام الطعام ، لكن لا ، تشممه أولا ، وأخذ نفسا عميقا .كان من الواضح أنه يضبط نفسه حتى لا يسمح لها بالهجوم على الأكل فى جشع ، وارتطمت الملعقة الخشبية بالطبق . وبدون تعجل أو تلهف أكل الطعام ، مسح فمه وشاربه بمنديل ، وهز لحيته واستلقى على الأريكة كما لو كان يشعر بالإغماء . وضعت ملاءة تحت رأسه وراح فى نوم هادئ ولكن أنا وأنت يا بنى لم نستطع النوم لوقت طويل .مكثنا ننظر إلى ذلك الغريب الذى يبدو الآن كساحر حكيم . نعم ، **كانت أياما صعبة حتى أن الساحر ما كان ليجد ما يأكله** . وقلت أنت:

– أعتقد أنه عجوز طيب جدا.

– من يستطيع الحكم؟ .

-ماذا لو كان ساحراً حقا.

وقفزت وأخذت مصباحنا النحاسى القديم من على الرف . ونمت به حتى الصباح . وغفوت أنا قرب الفجر وعندما استيقظت كان زائرنا قد رحل .وعلى الملاءة كانت قصاصة ورق مطوية وجريت أنت وفتحتها:

- ماذا هناك يا بنى؟.

أعتقدت أنه كتب شيئا عن نفسه أو ربما كلمة شكر . قلت والدهشة فى صوتك وعلى وجهك:

-أبيات من الشعر.

-عم تتحدث؟.

- إنها شعر سليم ،عن الخبز.

- عجوز غريب تصور: تتقدم الحياة بالناس ثم يكتبون الشعر.

- أتعرفين يا أماه . إنها أبيات جيدة . سآخذها إلى الصحيفة المحلية.

- لن يغنيك الشعر من الجوع . ماذا يمكن أن أفعل ؟ ستذهب إلى المدرسة جائعاً . وملابسك كلها ممزقة . تنهدت وتناولت بنطلون ولدى الأصغر «محمد» المرتق.

- هل يستحق الغسيل أم ألقى به؟.

- وماذا سيلبس؟.

- ربما أستطيع أن أصنع له شيئا من بنطلونات أبيك.

بدأت إخراج ما فى الجيوب : بعض الأحجار الملونة ، نبلة خشبية ، عظام رسغ ، قطعة نقود قديمة كبيرة وأشياء أخرى عديدة . وبدأت أحل رقعة بجانب الجيب . وتصوروا ، خلفها وجدت بطاقات الخبز التى ظن محمد أنه فقدها . وكانت الفرحة ساعتها لا توصف ! أمسكت بالولد النائم . عانقته وقبلت خدوده التى ملحتها الدموع . وأخذ الولد «يبربش» ويفرك عينيه الناعستين في ارتباك وحيرة.

- وجدناها ، وجدناها.

وامتلأت الحجرة بصيحاتنا البهيجة وبدأنا نرقص .. وبالطبع كان محمد الصغير أكثرنا سعادة .

- أمى ، أماه هل تحبيننى.

- بالطبع نعم ، بالطبع يا حبيبى . اذهب إلى المحل وأحضر الخبز.

وأخذ محمد البطاقات وجرى بالشورت غير مهتم بأن يلبس ، وتبعته أنت.

وانتظرت فى البيت مع البنات ذلك الرغيف الدافئ البنى» المفقع» الوجه .كانوا يصنعون خبزا جميلا

فى تلك الأيام . أما أيامنا هذه فليس لدينا مثل ذلك الخبز أو ربما لم نعد نلاحظ ذلك.

أتذكر عندما كانوا يخبزون فى طرف القرية كنا نشم الرائحة فى الطرف الآخر ،:كان خبزا رائعا ولم يكن الأطفال فقط ينظرون إلى الأرغفة بعيون نهمة ، بل نحن الكبار كذلك ، وبينما كنت أنتظر الأولاد ليأتوا بالخبز ، جهزت ابنتى الكبرى «فاطمة»* للمدرسة.

فجأة سمعنا وقع حوافر وجريت إلى الخارج.

كان رجلا بكامل ملابسه ، ذاعينين زرقاوين ، وأنف صقر ، يركب فرسا ، سيفه مشهر من حزامه ، وتحته منبت مسدس.

– هل عائلة أكا أبو بكر تسكن هنا ؟.

– نعم نحن هنا .

فقال الراكب:

– تعالى إلى هنا لو سمحت

وبسرعة ترجل ومن جناح السرج أخذ حقيبة مزدوجة ومن نصفيها أخرج زقا .

– هذه جبنة لبن الغنم

– لمن هذه ؟.

– لامؤاخذة ، ربما تكون قد أخطأت

– لا مؤاخذة ، ربما زوجة أكا أبو بكر ؟.

– نعم ، وهؤلاء أولاده ، الاثنان الآخران ذهبا لإحضار الخبز.

كنت مضطربة لدرجة أننى تحدثت بدون وعى ، ثم أخذ حقيبة وأعطانى إياها:

–وفى هذه بعض دقيق الذرة والسجق المجفف.

– وهذا ، هل هذا لنا ؟.

–نعم، لكم .أتمنى لكم صحة طيبة.

وطوى الحقيبة المزدوجة وامتطى حصانه بخفة وكأن الحصان كالياى ينتظر صاحبه.

– أزال الله عنك متاعبك أيها الرسول الطيب ، لكن قل لى أرجوك من أين أتى كل هذا ؟.

– إنه دين ، أرسله أبى لكم . لقد أنقذ زوجك والدى من مشنقة رجال دينيكين وتلك الأشياء لا تنسى.

– ولكن ألا يعرف أن زوجى قد مات ؟.

– نعم يعرف، ويعرف أن الأمور صعبة بالنسبة لك.

– أشكرك .

– بل أنا أشكرك.

وقفز رسول الخير خارج الحوش

كالريح على حصانه الأبيض ، ووقفنا نحدق فى تلك الثروة غير المنتظرة فى سعادة غامرة ، وبعد ذلك أتيت أنت وأخوك ،كنت تحمل رغيفا مستديرا كجزء من الشمس جعلنى أذكر أغنية:

« الشمس طلعت على التلال ، ذهبية كالرغيف المدور ».

وكان « محمد » الصغير يحمل قطعة التعويض.

– لم آكلها فى الطريق يا أمى ، أتيت بها إلى البيت لتكونى سعيدة وأنت ترييننى آكلها .

– أشكرك يا بنى ، والآن كلها وأنا سعيدة . لكن تعالوا إلى البيت ، تعالوا انظروا.

هكذا كنتم يا أطفالى ،كيف أشرح كل هذا ؟! ربما تكون خرافات لكن ماذا لو أن كل هذا حدث لأننى لم أنكر الخبز على الغريب فى الليل؟.

نعم يا أطفالى، فالخير جذوره وفروعه تصل إلى الشمس ولا تقع على الأرض أبدا.

هل تذكرون أيضا كيف نشرت تلك الأبيات التى بدون توقيع فى الجريدة ليقرأها كل الناس ؟ لقد كانت كلمات جيدة . وطلبوا منك أن تذهب إلى مكتب الجريدة حيث دفعوا لك مقابل تلك الأبيات التى تركها الغريب على وسادته .

واشترينا بها قماش « بفته » وصنعنا سروايل جديدة لمحمد .

ومرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين يا أطفالى ، ولكن لا يمكن أن أنسى ذلك الغريب ، والأشياء الطيبة التى بدأت تتوافد على بيتنا بعد زيارته . لم أره بعد ذلك أبدا . حقا ، أعتقد رأيت صورته مرة فى إحدى الجرائد الكبيرة فقط بدون لحية ، كأحد المرشحين للسوفييت.

لست متأكدة إن كان هو بالضبط ، لكن العينين كانتا شبيهتين تماما: عينين طيبتين ودودتين.

شهرزاد من شيشيلى

لدى خشب يكفى الشتاء يا أطفالى ،وحتى ما يفيض ، أرسلت لى شهرزاد حمولة جرار . من شهرزاد ؟ الكل يعرفها هذه الأيام . إنها شخصية مهمة ، رئيسة المزرعة الحكومية فى السهل. الغابات كثيرة هناك ، رغم أنهم فى الواقع يحولون كثيرا منها إلى مزارع نباتية– إنه لمن المؤسف أن نفقد الأشجار مع كل هذا -شهرزاد من شيشيلى . الكل يعرفها الآن ، لكن قبل ذلك.

كبنت صغيرة كانت جميلة كعروسة اللعب ، أقصد عرائس اللعب التي كانت قبل الحرب ، كانت أجمل كثيرا من تلك التي ترونها الآن.

أذكر حينما جئت لأعيش معك يا بني الشتاء الماضي ، نظرت في محلات اللعب وتعجبت،كانت هناك عرائس كثيرة ، لكن كان لها **تلك الوجوه المنطفئة العابسة ، يمكنك أن تقول القبيحة** .كنت أود أن أتوقف في المزرعة الحكومية أثناء عودتي بعروسه لحفيدة شهرزاد . نعم أتذكر كما لوكان بالأمس ،كيف جاءوا بشهرزاد إلى ملجأ الأطفال وهي تصرخ . ولم يكن قد مضى وقت طويل منذ أن تسلمت أمها ما يفيد موت زوجها علي الجبهة حتى ماتت من الأسى كما يقولون- سمعت أنهما كانا مخلصين لبعضهما جدا- كانت أمها خرساء ، لكنها أحبت ، وفجأة بدأت تتكلم- أشياء غريبة تحدث في هذه الحياة . ولكن الحرب كومضة خاطفة داهمت هذا الزوج المحب وتركت ابنتها الصغيرة يتيمة .كانت صامتة ، كنوع من الانغلاق ، لا تختلط بأحد، لا تحادث أحدا حتى يكاد المرء يظن أنها هي التي داهمها البكم.

كانت تجلس طوال الوقت على سريرها لا ترفع عينيها ، صامتة . وتنام منكمشة متكورة كالقطة الصغيرة . وكان على أن أغطيها بملاءة . كنت أجلسها بجواري أثناء العمل ، أود أن أخرجها من أفكارها الحزينة .كنت آمل أن تهتم بالعمل وتشارك فيه . لكن لا ، كانت تنكمش كما لو كانت خائفة ، كانت دائما متلفتة كما لو كان الأطفال الذين يحيطونها بالعطف يريدون إيذاءها.

وذات يوم اختفت . نعم ، لم تكن في أي مكان قريب ، بحثنا في كل مكان ، كل المباني، وسألنا في القرية التي جاءت منها شهرزاد ، لحسن الحظ لم تكن بعيدة . استفسرت من جيرانها وأقربائها ، نظرت في الكوخ المهجور ، لا شئ ولم يعرف أحد أي شئ عنها ، مرت بخاطري أفكار مرعبة . وبعد أن فقدت كل أمل توجهت إلى البيت ، الطريق يمر بين المقابر وكان القمر ساطعا .وفجأة سمعت صوت بكاء . نظرت وإذا بشهرزاد جاثمة بجوار قبر حديث ،كانت الطفلة تنشج بمرارة:

- أمي العزيزة ، أماه تعالى إلى . لماذا ذهبت ؟ لن أسئ إليك ثانية

أبدا ، فقط عودى عودى..

- هل كنت تعرفين أمى ؟.

- نعم كنت أعرفها جيدا

وكذبت على أمل أن أطمئنها.

- أليس كذلك حقا ، إنها كانت أحسن أم فى العالم؟.

- نعم يا حبيبتى ، أحسن أم.

- أنا كنت مسيئة إليها ،وهى ذهبت وتركتنى ؟.

وكانت «تفرك» عينيها براحتيها الصغيرتين.

- كلا يا صغيرتى ، لم تكونى أنت المسيئة إليها.

- من إذن ؟.

- الحرب، تلك الحرب الملعونة ثلاثاً.

- لكن الحرب لم تكن هنا.

كلا يا عزيزتى ، ولكنها تصل إلى أماكن بعيدة لتؤذى الناس.

- وأمى ألن تعود ثانيـــة أبدا ، أبدا ؟.

- لا تصرخى يا عزيزتى ، سيعود والدك إلى المنزل قريبا.

كنت أحاول تهدئتها ، كم كانت صغيرة على أن تتحمل كل هذا الأسى والحزن.

- كلا بابا لن يعود كذلك ، تسلمت أمى خطاب يقــول إنه مــات على الجبهة.

- ولكنهم أحيانا يخطئون ، وأنا متأكدة من أنه سيعود.

كنت أريد إقناعها بذلك.

- وأنت تعرفين أن الجبهة برد. هل تريدين لبابا الدفء وأن يعود إلى البيت بسرعة ؟.

- بالطبع نعم ، إنه أبى.

- تعالى معى الآن يا صغيرتى ، تعالى يا صغيرتى فقريبا سيحل البرد والظلام سأعلمك حياكة الجوارب وسيمكنك إرسالها إلى والدك.

- وقفازات لتدفئ يديه.

- هذا صحيح ، وقفازات أيضا.

وعدلت شالها وألبستها المعطف وأخذت يدها وعدنا إلى البيت . هكذا أصبحت أنا وشهرزاد صديقتين بعد ذلك كانت تسعد كثيرا حين مجيئى.

- لقد مكثت أنتظرك ، وأنتظرك ، يا خالتى الطيبة العزيزة.

هكذا كانت تنادينى ،حتى الآن عندما أذهب إلى المزرعة الحكومية تصيح:

- خالتى الطيبة جاءت.

وكان أن أصبحت شهرزاد شخصية حساسة جدا ، وتعلمت بسرعة .حاكت بعض الجوارب

السميكة الملونة والقفازات ،كانت دافئة جدا ، وأرسلتها في طرد إلى الجبهة ، وبدأت تتوقع خطابا.

– لا خطاب من بابا اليوم أيضا.

– سيأتي يا عزيزتي ، سيأتي!.

وحاكت شهرزاد عددا كبيرا من الجوارب والقفازات للجبهة ، أملا في خطاب من أبيها . ولكن لم يأت شئ فقدت معنوياتها وفقدت شهيتها ووزنها وكنت تراها تذوب تدريجيا . وكانت لديك يا ولدي فكرة . هل تذكر ؟.

– نعم أذكر ، كتبت لها خطابا من أبيها.

هكذا تسلمت خطابها ذات يوم . لم تكن تعرف القراءة بعد. كانت ما زالت في الفصل الأول وهكذا قرأته لها إحدى البنات الكبار . ودارت شهرزاد بالخطاب ليراه الكل.

– أبي كتب لي، انظروا!.

– مبروك يا شهرزاد.

وكانت تنحني انحناءة عجوز وتقول:

– شكرا.

أذكر إنني استعنت بك مرتين يا ولدي . وبعدها لم نكن في حاجة إلى الكتابة بالمرة ، المعجزة حدثت .كنا نجلس تحت السقيفة في حديقة الملجأ . البنات يغزلن الصوف وأنا أصبغ الخيط . وإذا بجندي مجهد يحمل حقيبة يدخل . وقف في منتصف الحديقة وتلفت حوله وعيون مائتي طفلة تنظر إليه متوقعة.

– بابا !.

كانت صرخة مدوية تردد صداها من الحوائط .وفي الوقت المناسب أمسكت شهرزاد حيث كان قد أغمي عليها.

– بابا!.

– صاح الأطفال الآخرون كما لو كانوا يتذكرون شيئا عزيزا نصف منسي .كان قلبي يخفق ، على وشك الانفجار . وانسكبت دموعي وتخدرت خدودي . تقدمت إلى الجندي ، حاملة الطفلة في يدي ، وانفجرت في البكاء .فألقى الحقيبة وأخذ الطفلة في ذراعيه.

لقد كان أباها حقا.

الشيطان أعمى

نعم يا أطفالي كانت الحياة صعبة في تلك الأيام بالنسبة للناس في« كوباتش» لم يبذروا أو يحصدوا في مواسم الحصاد أبدا . لم يقوموا بتربية الماشية مثل الناس في القرى المجاورة .كان عملهم التقليدي

لقرون هو استخراج الذهب . لكن في ذلك الوقت العصيب تحولوا إلى الأرض وبدأوا يزرعون البطاطس في حقولهم المسيجة . كانت بطاطس جيدة تلك التي كنا نزرعها، كانت بيضاء لذيذة .كانت كل عائلة قد أعطيت قطعة من الأرض بالقرب من القرية . وكانت تلك القطع على جانب الجبل تشبه الرقع في ملابس الأطفال ، وكقاعدة كنت أنت يا ولدي الذي يذهب ليرعى حقل البطاطس الذي يخصنا ليلا .كان كوخك أفضل الأكواخ .تذكر ؟ إلى أن جاء يوم مزقه دب وحشي.

لست أدري يا أطفالي.إن كنتم تذكرون ما أود الحديث عنه.

لم تكن في البيت يا ولدي ، كنت قد أرسلتك مع الأطفال الآخرين إلى مزلقان «ما مد -كالا» حيث اعتادت قطارات الجيش أن تمر .كان يمكنك أن تبادل الثمار المجففة والجوز بأكياس صغيرة من السكر . فقد أتيت بأحد عشر منها وبقيت لمدة طويلة . حسنا ، قررت أن أفضل شئ -حيث أنك غير موجود- أن أبعث «محمد» ليرعى حقل البطاطس وليأخذ ابن الجيران بصحبته ، هو طلب أن يذهب لم يكن قد ذهب إلى هناك أبدا . وجمعوا بعض الخشب ليصنعوا نارا ويشوون البطاطس . يقولون :«إن الشر ولد أعمى ،» فهمت حينئذ . ماذا تعني تلك الحكمة.

في الصباح ذهبت إلى الحقل لاستخراج بعض البطاطس ، كانت لا تزال صغيرة لكنني كنت أريد عمل بعض الشوربة . وعندما رآني «محمد» بدا مضطربا كما لو كان لم يتوقع رؤيتي ، وبدأ يتشبث بي . لكن نظرته كان فيها إحساس بالذنب.

- أماه ، أمي الغزيزة إنني أحبك كثيرا ، كثيرا ،

كان يتفادى مقابلة عيني.

- إنني مسرورة لذلك يا عزيزي ، ولكنك تبدو خجلان على نحو ما.

فأصابته الدهشة.

- هل ترين ذلك؟.

-بوضوح جدا.

- أمي ، لن توبخيني؟.

- هل أتيت شيئا مرة أخرى؟.

سألته ونظرت إلى ابن الجيران الذي كان يقف بجانبه ، عيناه في الأرض رافعا بنطلونه بيديه .

- قولي إنك لن تعنفيني.

- على ماذا ؟ .

- قل ، لماذا لا تخبرها أنت؟.

ووكز ابن الجيران بكوعه.

- سأقول إذن. أمس سرقنا نصف شكارة بطاطس.

ونظر الصبى إلى الأرض.

- سرقتم ! كيف؟.

- أماه، لم يكن هناك أحد.

- حسناً ، وماذا أيضاً؟.

- لم يرانا أحد.

- وهل تحسبون أن هذا يجعل ما فعلتم صحيحاً ، أتدرون؟ أمدركون أنتم لما فعلتم؟.

- أماه ،هو الذى أراد ذلك.

- لا ليس كذلك أنت نفسك قلت : (هيا نأخذ قليلا) لا أحد يراقب هذا الحقل.

قال الصبى ذلك فى صوت يشبه صوت الحصان ، ربما من البطاطس نصف النيئة.

- لا لم أفعل.

- وتورد وجه «محمد».

-لحسن حظك أن أباك ليس هنا ،كان سيعطيك ما تستحق . سرقة!.

نعم لم يكن أبوك ليسكت على أى شكل من أشكال عدم الأمانة وبالنسبة للسرقة كان يقول عادة:

(فلتكن أيديكم بعيدة عن أشياء الآخرين .. حاولوا أن تحصلوا على حظكم ، إذا لم تستطيعوا فاقنعوا بما معكم . كلوا مما حصلتم عليه بعملكم . أسوأ شئ أن تنظر إلى ما ليس لك).

وقال الصبى الآخر:

- لا تضربيه ، لم تكن غلطته ،أنا فعلتها.

- ألا تخجل من نفسك.

-أنا خجلان جدا يا خالة مانابا.

-هل هناك ما هو أبشع من السرقة ؟ يا عزيزى ماذا سيقول الناس . سيقولون إن الأطفال بلا أب أصبحوا فاسدين .. ياللعار !.

حملت الشكارة وقلت:

-والآن ، تعالوا أرونى من أين أتيتم بها . أى رقعة بطاطس خربتموها ؟ ما زالت البطاطس صغيرة ،كان يمكن أن تنمو أكثر.

تقدمانى فى الطريق وتبعتهما . طوال الوقت كنت أفكر ، إنه لكى يأتيا بكل هذه البطاس الصغيرة لابد وأن يكونا قد حفوا أرضا كثيرة ياللعار ! لو أن أصحابها رأونا فلن ننجو من الفضيحة . ولو كانوا سيئى الخلق فستنتشر القصة فى المنطقة كلها .ماذا يمكن أن أفعل ! كيف أعذر نفسى ؟ وشعرت بضعف ركبتى ، تسلق الأطفال المنحدر وتبعتهم إلى حقل مسيج ووقفا

صامتين مطاطئ الرؤوس.
- هذا هو الحقل.
نعم، فالحقل مقلوب ، لا يبدو أن نبتة واحدة قد تركت سليمة ،كما لو أن قطيعا من الخنازير البرية كان يرعى طول الليل . واضح أن اللصوص الصغار كانوا في عجلة فكبار وصغار البطاطس متناثرة هناوهناك.
ولكن أين أصحاب الحقل ؟ تلفت.. آه يا عزيزى ،من من الاصحاب يمكن أن يكون هناك. ببساطة انهرت وجلست إلى الأرض .. لكننى شعرت بالراحة قليلا ، على الأقل لن يصيبنى العار.
نظرت إلى« محمد » الواقف هناك فى بنطلونه القصير وقميصه الباهت المتسخ بائسا جدا ، يدعو للشفقة . وجلست هناك . لست أدرى هل أصرخ باللعنة ؟ أم بالضحك ؟ وفى النهاية ضحكت من خلال الدموع وحملق الطفلان فى مرتبكين ، لابد أنهما ظنا أنى قد فقدت صوابى.
- أيها التعيسان الصغيران التافهان ، هذا حقلنا نحن!.
-أماه سامحينى من فضلك لن أفعلها ثانية أبدا ، أبدا.
-انتحب « محمد » وأخذ ابن الجيران ينشج.
- وسامحنى أنا أيضا ،حسبت حقلكم بجوار حقلنا.
- حسنا أسامحكما ،والآن فلنجمع ما تركتم من بطاطس ، لا يمكن أن نتركها تفسد . أعتقد أنكما كنتما فى عجلة ليلة أمس.
-كنا خائفين .
-بالطبع ! ، يا عزيزى لقد أفسدتم الحقل كله.
- لا ليس كله ، انظرى هناك صف سليم تماما ، وآخر ، وآخر .ومن الأفضل جمع البطاطس فى النهار.
فقال «محمد »:
- نعم أفضل جدا فنحن نرى أفضل ، وأنت تعرف لماذا.
- لماذا ؟.
- نحن لا نسرقها ، نحن نجمع بطاطسنا.
وهكذا جمعنا كل البطاطس ، كانت تملأ شيكارتين تقريبا ،وكنت أعد بالعشرة ، نعم يا أطفالى ليس عبثا قولهم:
الشيطان ولد أعمى.

المهر الأبيض

كان الاسم الشائع لوادى«

سوليفيكنت» العميق الذى تقع عليه قرية كوباتشى هو وادى الطواحين ،كان هناك نهر يجرى فى الوادى- طبعا تعرفون ذلك . هذه الأيام لا أحد يتسلق إلى هناك ليس فقط لأنه لم تعد هناك طواحين فقرية الفخار المشهورة سوليفيكنت قد ذهبت أيضا وكذلك قرية «أموزجى» التى كانت تطل على سوليفيكنت من تبه عالية وكانت الأخيرة قرية صناع المعادن الذين ما زالوا يحتفظون بسر «صليب دمشق» الذى فقده العرب منذ زمن بعيد الآن انتقل الناس الذين كانوا يسكنون تلك القرى إلى السهول بالقرب من طريق الحياة الجديدة.

يقولون إن الناس قديما فى القريتين كانت بينهم اتفاقية غير مكتوبة على ورقة بل محفورة على حجرين مسطحين بالرغم من أن أحدا لا يعرف مكان الحجرين الآن وطبقا لتلك الاتفاقية المكتوبة بالخط العربى فان صناع الفخار فى سوليفيكنت وعدوا بإمداد مواطنى أموزجى بكل ما يحتاجون من أوان بالمجان وفى المقابل يطلق لهم أهل اموزجى بندقية أو شعلة نار لتحذرهم إذا أصابهم وابل السيل ،وكان سكان اموزجى من موقعهم فوق صخرة شامخة يطلون بشكل جيد على وادى شيرين الذى يعلو وادى سوليفيكنت كثيرا وكانوا يستطيعون رؤية الخطر فى الوقت المناسب ويحذرون جماعات سوليفيكنت ليجمعوا أطفالهم ويتسلقوا المنحدر ومرة أخرى يحمل النهر القرية معه بعناد ومرة أخرى يعود الناس بعناد يعيدون بناءها لا أحد يعرف أى عناد سيتغلب ولكن أنا كنت مؤمنة أن عناد الناس سينتصر لأنه فى الثلاثين سنة الأخيرة أصبح النهر ضحلا جدا حتى أن سيوله لم تعد تصلهم.

لكن ليس هذا ما أريد الحديث عنه.

فى هذا الوقت كانت هناك سبع طواحين فى الوادى وكانت جماعات كوباتشى تحمل حبوبها إلى هناك لتطحنها على ظهور الخيل أو الحمير أو على ظهورهم . لا أكذر الآن على أى نحو كيف حصلنا على شيكارة من شعير الماهار . سكان الجبال لا يزرعون شعير الماهار وحبوب الماهار أكبر مرتين من حبوب القمح ولها مذاق الجوز فيمكنك أن تقلبها على لوح الشواء وتقدمها للأطفال

بدلا من الخبز.

حسن وذات يوم قسمنا تلك الشيكارة أنا وأنت يابنى ورفعنا النصفين على ظهورنا ونزلنا إلى الوادى لطحنها . نعم بالطبع لا تملك إلا أن تتذكر ذلك كنت نحيفا وقتذاك جلداً على عظم بينما الآن لا أحب أن أقولها لا تبقى هكذا- ماذا تدعى؟.

-جمباز يا أمى أقوم ببعض التمارين من وقت إلى آخر.

- تخرج للتنزه فى سيارة بدلا من المشى.

- لقد أقلعت عن طريقة المشى لكن استمرى فى الحديث يا أمى نحب أن نسمعك.

- نعم يا أطفالى الوقت يجرى وكلنا يسرع إلى مكان ما أملين فى شئ ما يريدون شيئا ما لكن ماذا ؟ لا أحد يعرف لكنك لا تأكل هذه الفطائر بالشبيط تلك بالبصل.. نعم ماذا كنت أقول؟.

- حسنا طحنا شيكارة الشعير وبدأنا طريق للعودة من السهل ما اسهل النزول إلى الوادى لكن التسلق ثانية موضوع آخر كنا قد صرنا بعيدا وإذا بك تصيح:

- انظرى يا أماه شبه كتلة من الضباب.

وحدقت من خلال فروع السنط حيث كنت تشير . لم يكن ضبابا بالمرة كان مهرا أبيض واقفا بجوار العين .. صهل فجأة وطوح رأسه ووثب قليلا على قوائمه الخلفية ثم صهل ثانية كما لو كان ينادى شخصا ما، يبحث عن شخص ما .

ذهبنا إليه لم نقترب جدا حتى لا نخيفه كان مهرا جميلا ذا ذيل طويل رقيق وخفيف ومعرفة مهذبة حول رأسه فجأة نظر إلينا نظرة حصيفة بعينين حزينتين كما لو كان يسأل «هل انتم أناس طيبون أم أشرار».

حينئذ قلت أنت ما أدهشنى كثيرا:

- لا تخف نحن أناس طيبون .

فسألتك

- إلى من تتحدث؟.

- إليه، المهر يا أمى ، يطلب منى أن أذهب إليه.

- اذهب إذن ، إذا كان هذا ما يطلبه. . هو بالتأكيد تخلف عن القطيع.

توقعت أن يهرب المهر ويحاول الاختفاء لكن لم يحدث شئ من هذا ، وإذا بك تربت على رقبته . ويريح رأسه على كتفك وأخذت قطعة من

الخبز من جيبك ، بللتها من العين وبدأت في إطعام المهر .كانت عيناه تشعان رغبة في الاستطلاع ، ليس خوفا ، ومكثنا هناك حتى بدأ الغسق يحل وببساطة لم أتمكن من إغرائك بالذهاب.

- اتركه يا عزيزى فصاحبه سيأتى إليه.

- لو كان له صاحب ما مكث هنا طويلا . لا يمكننا أن نترك المهر وحده ، الذئاب أكلت بقرة أمس ، ألم تسمعى،

- لكن أتظن أنه يأتى معنا ؟.

وقف المهر الأبيض ينظر إلينا بحزن كالمحروم .نعم ، لم يكن الأطفال من البشر هم فقط من تركتهم الحرب مهجورين يائسين.

كنت تريد أن تلقى بحبل على رقبته لكن المهر لم يسمح بذلك وجفل ووثب مقعقعاً بحوافره وحاولت أن تكلمه ، تغريه ، لكنه لم يدعك تقترب منه ثانية بدأت الدنيا تظلم في الوادى ، كان علينا أن نسرع إلى البيت وهكذا حملنا كيسينا وبدأنا نتسلق المنحدر ثم صحت فرحانا .

- أماه انظرى إنه يتبعنا.

نعم كان المهر الأبيض يتبعنا يسير وراءنا لكن إذا توقفنا كان يتوقف أيضا بعيدا بمسافة تكفى كما لو كان الأمر: أنتم فى طريقكم وأنا فى طريقى ، لا تظنوا أننى معكم .وهكذا ذهبنا إلى القرية ثم إلى بوابتنا وتركناها مفتوحة ، ووقف المهر بالبوابة فترة ولما لم يجد ما يثير الشك دخل الحوش ، ثم أغلقت البوابة ، ووقف المهر فى منتصف الحوش يتلفت وبدا كما لو كان يقرر:

ليس هنا بمكان سئ ويبدو أن لديكم بعض التبن.

وهز رأسه وهو ينظر إلى عيدان القش الصغيرة تحت الغطاء ثم حملق فيك وفسرت أنت ذلك لو أن هناك بعض الشوفان الساخن.

- أماه هيا نصنع له بعض العصيدة؟.

- هل سيأكلها.

- انه يريدها أستطيع أن أرى ذلك فى عينيه.

- ماذا تفعل إنه ليس كلبا.

- انه يريدها : أستطيع أن أرى ذلك فى عينيه.

-بما سندعوه.

- ديرخ . سندعوه ديرخ*.

-ونسيت أنت وكل الأطفال

أطفالنا وأطفال الجيران نسيتم كل شئ عن لعبكم وأعمالكم الخفيفة والتففتم حول المهر .. كنتم تأتون له بشئ كل يوم .. حزمة حشائش .. قطعة خبز.. ورأيت أحدهم يقدم له قطعة لحم فإذا بك تصرخ فيه.

كنت قاسيا حتى أن الصبى صرخ بمرارة.

وذات صباح ، بينما كنت أحضر الماء من البئر أخبرتنى النساء أن قطيعا بأكمله من الخيل قد عدم رميا بالرصاص ليس بعيدا عن هنا . البعض يقول إنه بسبب مرض معين لكن البعض الآخر يقولون إن الأعداء فقط هم من فعلوا هذا وعندما عدت إلى البيت أخبرتك فقلت:

– لا أعرف لكن لن أدعهم يقتلون ديزخ سيكون عليهم أن يقتلونى أولا.

ووضعت حبلا على الحصان وذهبت معه إلى الغابة يتبعك سرب من الأطفال وفى المساء عاد الأطفال لكن المهر وأنت لم تكونا معهم ومرت ثلاثة أيام ولم نعثر لك على أثر كنت قد احتدمت غضبا وجلست نشج حينئذ جاءنى ابنى الصغير وضغط نفسه إلى وهمس:

– أماه ، لا تصيحى ، أعرف أين هو!.

– تعرف ! ولماذا لم تخبرنى؟.

– لقد أقسمت ألا أقول حتى لو «سففت» التراب.

– هل هو بخير؟.

– لا تقلقى يا أمى انه يدرب نفسه على أن يكون شجاعا.

– فلترحمنا السماء أية شجاعة هذه وماذا كان يأكل طوال تلك الأيام الثلاثة؟.

–حملنا إليه شيئا ما.

– وتخفون شيئا كهذا عن أمكم.

وجدتك فى مزرعة قديمة خربة نائما بجوار المهر . لم أوقظك ، لكن فى اليوم التالى أحضرت لك غداء ساخنا . واختبأت لمدة شهرين بين الأطلال . ولفرط سعادتنا لم يستفسر أحد عن المهر أو يهتم به أدنى اهتمام.

وبدا البرد يحل وعدتم سويا إلى البيت وكنا قد أتينا بكمية كبيرة من القش للشتاء . وبقى ديرخ معنا . وفى مدة سنة كان جاهزا لان يقبل السرج . ووضعنا طقم سرج والدكم عليه وأصبح حصانا قويا جذابا . ركبة كل الأطفال ، كان واحدا من المتع الصغيرة فى سنوات الحرب المظلمة تلك . وكان يؤدى لنا خدمات طيبة.

كان يأخذ الحبوب إلى الطاحونة لطحنها ، ويحمل الخشب من الغابة .كنت آخذه فى الصباح إلى قطيع ماشية القرية ليرعى معهم، وفى المساء كان يعود بمفرده وذات يوم لم يعد ديرخ.

سمعنا أنه فى ذلك الوقت كان هناك معسكر غجر خلف جبل «قايدش» فأسرعنا إلى هناك ولم نجد الغجر ولا الحصان . أصابتنا الكآبة شهرين ثم فقدنا الأمل وبدأنا ننساه بالتدريج.

بعد ذلك وفى ليلة شتاء قارسه سمعنا صهيلا متعبا عند البوابة كان محبوبنا ديرخ ولم أسمع مثل صيحات فرحكم حينئذ أبدا يا أطفالى.

– ديرخ أنه ديرخنا.

– ضبابنا الأبيض عاد.

–تعال يا عزيزى.

وكانت معرفته بيضاء من الصقيع واندفعتم كلكم تتعلقون به وتقلبونه وكان من الصعب القول أيكم أشد فرحا انتم أم الحصان وهز ديرخ نفسه فى محاولة ليلقى الحمل عن ظهره وصهل مرة أخرى كما لو كان هناك شئ يريد أن يخبرنا به وأخذنا الخرج فوجدناه مليئا بالكتب : «مراجع، كتب تمارين ونموذج كرة أرضية وبمجرد أن فعلنا ذلك صهل ديرخ ثانية وخرج من الحوش خبط حافرية ونظر خلفه يدعونا لأن نتبعه ربما الرجل الذى جاء معه متجمد فى مكان ما.

– فلتبقوا هنا يا أطفالى هناك رجل فى حالة سيئة.

أيقظت الجيران وتبعنا ديرخ وبسرعة فى الغابة خلف وادى بودوزر نوى، وجدنا رجلا نائما تلك النومة الثلجية المميتة أخذناه إلى البيت وأدفأناه ، صنعنا له شايا ساخنا وأنقذناه .كان مدرس لغة روسية . تتذكرون أطفالى سيرجى اليكيفيتش خوفا ليوف حسنا حتى ديرخ أنقذ حياة إنسان.

كيف جاء ديرخ معه ؟ ظل ذلك غامضا . لقد رأى ديرخ لأول مرة فى المدينة حينما أعطوه وظيفة مدرس فى قريتنا.

وكان على المهر – الأبيض أن يأتى به.

الظفر المسحور

بالطبع تعرفون أنه فى قريتنا ، قرية الحرفيين العظام ، لا يعتبر مولد الابن هو اليوم الذى يأتى فيه

إلى العالم، ولكنه اليوم الذى يجلس فيه بجوار أبيه على طاولة العمل ويمسك ظفر النقش ويضع أول خط من تصميمه ويحدث ذلك فى سن السابعة.

بلغ« محمد » السابعة ، لكن ما من أب يأخذه إلى طاولة العمل . لذا طلبت من مزجار الأعرج- قريب من بعيد تدعونه جدى- أن يأخذه ويعلمه كصبى .كان زملاؤه فى المدرسة فى الفصل الأول قد بدأوا يتعلمون ، البعض مع الأقارب والبعض مع المعارف.

وقال محمد وأنا أجهزه للذهاب إلى المعلم:

- سوف أولد اليوم

- سوف نرى أيها الفتى كيف ستولد.داعبته وأخذته إلى الجد مزجار . الأسطى مزجار يتكلم قليلا ويبدو قاسيا لكنه فى الواقع طيب جدا.

ورشته فى البيت فى ركن من «الشرفة» الزجاجية وأدواته : قواطع ، وشواكيش وكماشات مفلطحة ، وفرن كبير ، وسندان ومثقاب بيتى . اتسعت عينا محمد على المشهد ، ورفع الجد مزجار نظارته إلى جبهته ليرى محمد ثم دفع بكرسى حمام صغير ووضع عليه وسادة ليعليه وأجلس الصبى وقال:

- لا تلمس أى شئ.

- ألا يجب ذلك؟ .

- ليس بعد، لاحظ كيف أعمل.

- هل سيكون هذا وقت طويل؟ .

- أول شئ أخبرك به: اسأل أسئلة قليلة، حاول التفكير فى كل شئ وحدك. الكلام للثرثارين فقط فهو يأخذ مكان العمل.

- لكن كيف أعمل إذا كان على ألا ألمس شيئا.

قام مزجار وأعمل الكير وازدادت النار فى الفرن وأخذ زوجا من الملاحظ الطويلة وألقى به فى النار.

- ماذا سنفعل؟ .

- قصر لسانك وإلا سيعطلنى عن العمل.

قفز محمد

- كلا ، كلا ، أماه خذينى لا أريد أن أولد.

وجرى وتعلق بى، نظر إلى مزجار.

- أما زلت هنا ، هيا اذهبى ، نحن الرجال نسوى الأشياء بأنفسنا.

- وصاح محمد:

- لا أريد البقاء هنا، خذينى معك يا أماه.

- كلا فلن تصبح رجلا بأى شكل.

- ساكون . أنا رجل.

- الرجل لا يتشبث بذيل أمه ، يجب أن تتعلم كيف تقف على قدميك ، اجلس يا ولد اجلس إننى كنت أمزح.

- مزاح طيب ذلك الذى يجعل الولد يفزع هكذا .كنت على وشك أن أخذ الولد إلى البيت ثانية ، لكن عندما دفع مزجار الملاقيط خارج الفرن هدأ محمد وجلس إلى جواره ثانية.

يحتوى كل كوخ على تذكار العائلة من المشغولات القديمة قد تكون مرجلا ساسانيا ، بندقية أو فخاراً لكن ما يدعى «شيخلاخيوتن»** كقيمة خاصة يقال إنها تصنع فى مكان ما فى الشرق وأن أهل كوباتشى الذين سافروا إلى هناك قايضوا على تعلم طريقة صنعها -حسنا بين هذه الأشياء النادرة يمكنك أن ترى غالبا على الحائط صينية من المعدن الأصفر أو الأحمر منقوشا عليها تصميمات كوباتشى بدرجات متفاوتة من المهارة، على شكل ميداليات مخرمة، أطواق زهور . وهذه تسمى شاجيرا خيوتن ، تلك التى تعلم عليها الأولاد النقش على المعدن يرسم المعلم على صينية نحاس خطوطا سهلة فى البداية ثم معقدة بعد ذلك ويقول للصبى .

-ها هنا يافتى ،وحظ موفق.

من السهل عليه ،أن يقول حظ موفق بينما هو يحفر تصميمه على الفضة الناعمة وأصابع الطفل تجاهد مع النحاس -ذلك المعدن الجامد الذى يقاوم الأيدى البالغة ، ناهيك عن أيديهم.

وسن مزجار ظفر النقش ، وذلك يتطلب مهارة ، فليس كل حرفى يستطيع القيام بها بدقة ، ثم أخذ صينية النحاس.وخط أول خط كما لو كان يجرب حدة الظفر ، وأوضح لمحمد كيف يمسك بالظفر والصينية:

- والآن يا فتى استمر وحظا موفقا.

- وبعد ذلك سأولد؟.

سأل محمد لكنه لم ينتظر إجابةالعجوز المتجهم فقد عاد للملاقط ثانية . وأخذ الصينية والتقط الظفر وأخرج طرف لسانه للمساعدة وبدأ أول خط له . لكن لضعف القوة أو المهارة ،فإن الظفر القاطع انزلق من على المعدن وانغرس بألم فى يده . بالضبط فى

اللحم بين الإبهام والسبابة .وبصعوبة حبس الدموع ونظر إلى أول قطرة دم حمراء كالياقوت ينزفها فى العمل ولمح مزجار الصبى المضطرب من طرف عينه ثم تحدث برقة.

– أعرف أنها مؤلمة كلنا بدأنا هكذا ، هكذا دخلنا الحياة .. الحمقى فقط من يبحثون عن عمل سهل.

– لكن يا جدى هذا ليس عدلا ، الأعمال السهلة للحمقى والصعبة للعقلاء! .

–نعم يا بنى هناك أشياء كثيرة ليست عدلا فى هذا العالم.

– هل لى أن أشاهدك قليلا أولا؟.

– شاهد ، فلترى ما أفعل، رغم أنك لو تعلمت شيئا من المشاهدة لكان الكلب جزارا درجة أولى!.

–ما هو الجزار يا جدى؟.

– الجزار الذى يذبح الغنم ويسلخها يوم السوق بينما الكلب يشاهده.

وفهم الصبى القصد والتقط ظفر النقش.

– من الأفضل أن أجرب ثانية.

فشل آخر ، وآخر ، وآخر. ومص محمد مكان جرح الظفر ونظر إلى عمل مزجار .كان يعمل على طبق صغير ، يحفر تصميما معقدا جميلا ،والظفر يتحرك فى يده بسهولة ونعومة– والأهم– بدون مجهود كبير ، بينما هو يحفر شكلا عميقا ،والبرادة الفضية لا تتطاير فى كل الاتجاهات بل تسقط برقة على مريلته الزرقاء .والطبق يسطع ويشع كما لو كانت ألف نجمة زاهية مضاءة عليه ، وظن محمد أنه لن يستطيع أبدا أن يعمل هكذا ولا فى مليون سنة . وفجأة خمن السبب.

– أعرف الآن لم هى سهلة وأنت تعملها.

– لم إذا؟.

– لأن معك ظفراً مسحوراً.

– هذه ليست مسحورة ، هل تعرف من يستخدم ظفر نقش سحرى؟.

– من؟.

– الحرفى العظيم.

– ألست أنت عظيما يا جدى؟.

– لم يكتمل نموى بعد.

– ياللعجب ، أنت كبيرا جدا ولم يكتمل نموك.

تعرفون أنهم يقلون فى قريتنا إن الحرفى الممتاز يملك ظفرا سحريا ولابد أن محمد قد سمع ذلك ولم يصدق شرح الرجل العجوز ، ثم

وضع مزجار ظفر النقش جانبا وذهب إلى مكان ما.

كان محمد خائفا من أن يلمس أى شئ فقد حذره الجد بشدة من أن يفعل ذلك ، ولكن كيف يقاوم لمس ظفر نقش الجد؟ والتقطه محمد وفحصه بشغف ، ما زالت دافئة من يد العجوز ، لا يبدو مميزا ،فقط قاطع عادى .. يد خشبية ، ساق صلب وطرف من النيكل النحاسى ، وقارنه بظفره ،كان قاطعه أجمل، أصفر ولامع .وكان محمد على وشك أن يعيد ظفر مزجار إلى مكانه حين خيل إليه انه سمع صوتا رقيقا.

– أنا لست ظفر نقش عادياً ، أنا مسحور . الجد لم يخبرك.

– من يتحدث؟.

وتلفت محمد مندهشا ، ثم استقرت عيناه على ظفر نقش العجوز.

– هل تتحدث إلى أيها الظفر ؟ هل أنت مسحور حقا؟.

– إذا كنت أتحدث إليك فلابد أننى كذلك!.

وفكر محمد: هذا بالضبط ما أريد ،وبسرعة دس القاطع المسحور فى حقيبة المدرسة منفعلا بالاكتشاف ووضع ظفره على طاولة الجد . وفكر أن ينسل خفية ، ولكنه اصطدم بمزجار على الباب.

– إلى أين أنت مندفع هكذا؟.

– لقد نسيت على أن أذهب إلى المدرسة.

– إذا كان كذلك ماشى ، تعالى غدا.

– سآتى يا جدى بالطبع سآتى.

وهكذا جرى الوغد الصغير وكان يفكر طوال الطريق إلى المدرسة كيف سيرى الجميع قاطعه المسحور ، بالذات تلك البنت المنمشة التى تجلس بعده سيندهش الجميع قائلين «ياه» وستشهق البنت من الدهشة .وانتظر على أحر من الجمر درس العملى . أخيرا دق الجرس وجلس محمد إلى درجه ونظر نظرة كبرياء إلى جارته فلا وقت عنده ليهتم بالبنات . وبدا المدرس يوزع الأطباق المعدنية فى حجم صفحة كتاب التمارين ،مثبتة على لوحة لها يد . وسأل المدرس:

– هل بدأت الذهاب إلى الحرفى؟.

– نعم يا أستاذ .

– مع من أنت؟.

فأجاب محمد بنبرة فخر.

–الأسطى مزجار .

– إنك محظوظ فهو معلم عظيم

.ها هو طبقك النظيف .الشكل واضح عليه.

– شكرا يا أستاذ.

– والآن يا أطفالي لا تتعجلوا فبر فصبر حرفي كوباتشي معروف .من يجرح يده يأتي إلى فقد أحضرت يودا هنا على الطاولة : ربما تفضل بعض البنات تدريب أيديهن على حرفة آبائهن بدلا من شغل الابرة فمرحبا بهن .. ورسم المدرس بعض المنحنيات على السبورة وبدأ يدور على الأدراج يشاهد عمل الأطفال.

نعم، نعم، حسنا يا فتى، تسير حسنا . لا تسرع.

هكذا قال لولد بجانب محمد ،وجاء إلى محمد ونظر إلى ظفر النقش ثم وضعه مكانه دونما كلمة.

وتحير محمد كيف لا يظن شخص يعرف الكثير مثل المدرس أن هذا ليس ظفرا عاديا لكنه مسحور ؟ والتقط الظفر بانفعال متوقعاً أن يدهش الجميع ويضغط عليه ليصنع أول خط ، لكن المعدن كان جامدا أكثر من طبق الجد واستعصى الظفر أكثر من الآخر ذي الطرف النحاسي ،وتحت ضغط يده انزلق ،واستقبل جرحا آخر، كاد يصرخ بأعلى صوته لكنه حاول كتمان ذلك. كان خجلا من أن يظهر ضعفه أمام تلك البنت المنمشة التي كانت تتحين الفرصة لتسخر منه. وتناول حجرا ليسن القاطع ، بصق عليه ،و.. جاءه صوت.

– ماذا تفعل؟.

– أسنها بالطبع؟.

وغرس كوعه في جنب من بجواره.

– علام تضربني ؟ إذا كنت لا تستطيع لا تحاول.

– ليس هذا من شأنك.

– آه . آه لقد حطمت السن الحاد.

كان القاطع يتحدث إليه ولكن محمد ظنها البنت تتفكه عليه فحك القاطع بشدة على الحجر وتمتم:

– لست مسحورا بالمرة ، إنك قاطع أحمق.

وفهمت البنت أن التمتمة لها فاشتكت:

– أستاذ .. إنه يتوعد.

وزاد إحساس محمد بالجرح فخطف حقيبة المدرسة وجرى خارج الحجرة بسرعة حتى أن المدرس لم يكد يلتفت . وعلى هذا أخذ درجة سيئة . ووصل البيت في أسوأ حال .وفي الصباح ذهب إلى مزجار وكان العجوز يجلس كالعادة إلى طاولة العمل.

- صباح الخير يا جدى.
- آه ، ، أنت لكن ما الأمر ؟ .
- لقد أهنت نفسى .
-كيف ؟ أين.
- هربت من الدرس.
- نعم ، ليس هذا بالشئ المهم . ربما تهرب من الدرس ، لكن لا يمكنك أن تهرب من نفسك . تحكى القصة أن الدب خاصم الغابة ، لكن الغابة لم تعرف . حسنا يا فتى ، إنك مكتئب حقا ، تعال أرنى يدك اليسرى ،هم ، متورمة بعض الشئ . أطبقها ، أطبقها يا فتى هذا يحدث للكل.
- كلا ، كلا ، لم لا يحدث لك؟ .

أخذ العجوز الصبى قريبا منه وأجلسه على ركبته.

- جدى ليس هناك قاطع مسحور ، أليس كذلك؟ .
- لا يوجد ، خذ هذه.

وأخذ العجوز ظفر النقش او الطرف النحاسى التى بدلها محمد فى اليوم السابق .

-اجلس بجانبى هنا وشاهد.

وبدأ الجد مزجار يوضح ما يمكن أن يفعله هذا الظفُر.

وكان محمد مسرورا فقاطعه الذى قطع يده أكثر من قطع المعدن يعمل الآن خطوطاً فضية دقيقة شكلت زهرة ،كما لو كانت لا تعمل فى فضة بل شمع.

- لكن هذا ظفرى يا جدى.
- نعم ظفرك.
- أخشى أن تكون قد أفسدت ظفرك .. أنا أسف.

وأخرجه محمد من حقيبة المدرسة.

- لم تفسده بل حطمته سيستغرق إصلاحه وقتا ، والوقت ثمين جدا يا فتى . ثمين جدا.
- ظننت أنه مسحور .
- السحر لا يوجد فى الظفر يا فتى لكن فى عقل ويد من يستخدمه ،حتى تجعل الظفر مسحورا يجب أن تحفر أشكالا على كثير من أطباق المعدن ،كثيرا جدا ، وأهم شئ الجهد والصبر ، الصبر والجهد.

وشعر محمد بالذنب ، لقد ضيع وقت معلمه الثمين بحماقته . وألتقط طبقه وبدأ يعمل . وفجأة وجد الظفر يطاوعه ، وصنع أول خط حقا إن طوله لا يبلغ سنتيمتر لكنه ناعم . ودق قلبه من الفرح فهذا إذن السر:

أن تمسك القاطع بزاوية صحيحة بدلا من أن تضغطه بقوة . ثم توالت تويجات الشكل . أقواساً صغيرة

شمالا ويمينا وأصبحت زهرة وقبل أن يصيح محمد فرحا : «لقد تمت».

نظر إليها الجد من فوق نظارته وأخذ منه الطبق.

– نعم لقد بدأت تتعلمها.

– إذن ، هل ولدت الآن يا جدى؟.

– نعم يا فتى لقد ولدت . يمكنك أن تقول لأمك أن تصنع الكعك المضفر ، لأننى سآتى مع الأسطوات الآخرين لنحى عيد ميلادك.

– هل أخبرها بذلك؟.

– نعم أخبرها.

– هل ستكون مسرورة؟.

– فرحة الأم عندما يولد لها ابن.

وضغط محمد يد العجوز وأسرع إلى البيت ليخبرنى .. بأنه قد ولد الآن.

أفروديت العاجية

لم يكن أحد ينحت أشياء جميلة من العاج مثل أبيكم . ولم يكن له مثيل فى صناعة« الكاليبس» تلك الفصوص المعدنية للخواتم والحلقان ، زينة أساور الرجال والنساء ، مقابض الخناجر وأجزاء اللجام وسرج الحصان . وبعد موت والدكم أخذ الأقارب والجيران يقولون: أقرضينى لمدة يوم ، أسبوع .. «وهكذا اختفت كل «الكاليبس» لأن أحدا لم يعد شيئا والقليل الباقى فقدناه عندما انهار كوخنا القديم المبنى باللبن . وأدواته ! لم يبق شئ الآن لأريكم إياه وأقول : أبوكم صنع هذا.

لكن هناك شيئان حرصت عليهما طويلا .كان أبوكم يفكر فيهما كثيرا ولم أشاهده أبدا يريهما لأحد .كان يحتفظ بهما فى شكمجية مقفلة ويحتفظ بالمفتاح معه ، وقد أتت الأيام السوداء ، كسرت القفل كاللص . شعرت لذلك بالأسف كالعلقم الجامد فى حلقى ماذا لو عاد أبوكم؟.

يقولون: إن الرجال يعودون أحيانا بعد أن تحصل زوجاتهم على أوراق تثبت أنهم قتلوا كان أبوكم ينوى عرض هذه الأشياء فى معرض الفنون فى لينينجراد ،كان له قريب يعمل هناك ، كانت الحرب أوقفته .وهكذا ذهب وأخذ المفتاح معه .كانتا قطعتين محكمتى الصنع ، صنعهما فى ذروة قوة شبابه .كانت إحداهما باقة من أزهار التيوليب من العاج على قاعدة من التراكوز ،كان التركواز كالمرج الأخضر تنمو عليه أزهار التيوليب الثلاث ولدقتها الفنية كانت تبدو طبيعية تماما .

والتيوليب كما تعرفون زهرة جوزيه تؤكل وهي تنمو بغزارة على المنحدرات الشرقية لجبل قايدش . ونحن لا نتهادى بالزهور ، فقط نقدمها لضيوفنا .وفي عيد الزهور عندما يتم اختيار أجمل بنت كملكة جمال . تركب على حصان أبيض وسط دائرة من المعجبين تتبعها جوقة من أفضل الفرسان ، ويلقى الجميع بالزهور من المرج الألبي تحت أقدام حصانها.

والعمل الثاني من شكمجية أبيكم كان امرأة عاجية عارية تماما مطرزة بالذهب .كانت أفروديت إلهة الحب والجمال من زبد البحر .كان أبوكم قد أرانيها أثناء شهر العسل .وعندما رأيت جسدها العاري أخفيت وجهي جانبا وصحت:

– أوه ، أوه ، إنك عديم الحياء.

– لم يا زوجتي ، لم الجلبة ؟ فقط انظري ، إنني لا أكاد أصدق أن يدي صنعتها.

– لا أود النظر، خذها بعيداً.

لكن عندما كسرت القفل ألقيت عليها نظرة جيدة، أفروديت ، نصف مستلقية وظهرها إلى وسادة ،منفرجة الأرجل تسحب خيطا من الذهب . أية عبقرية أي صبر وجهد بذلهما حتى صنع يدها بتلك الدقة ؟ كنت أحس بشرايينها حتى إنني تخيلت الدم يسري فيها نابضا.

لقد بعت كل شئ بالفعل إلا هذين التمثالين. لكن كيف أعرضهما للبيع بينما المؤمنون- لقرون طويلة- محرم عليهم تمثيل الكائنات الحية أو حتى الاحتفاظ بتلك التماثيل في بيوتهم؟ كنت أخشى ألا يقدر أحد قيمتهما ، أو يدفع فيه شيئا لم يكن أحد يفكر في الفن في تلك الأيام ، بل في الخبز. لكن ماذا أفعل ؟ إذا كان لم يبق غيرهما في البيت ؟ حتى قبعة زوجي قايضت عليها بمكيال من الدقيق . غادرت البيت بالشكمجية ، لم أحدد بعد إلى من أذهب. وفي الشارع كدت أصدم بالعم إبراهيم الذي يعتبر أعظم أسطى في حرفيي القرية . وفكرت في أن هذه ضربة حظ.

– كيف الحال معك يا منابا ؟ كيف حال الأطفال؟.

– الأمور صعبة يا جدي إبراهيم ، صعبة جدا.

– تعالي معي إلى البيت ، أمس أحضر لي صديق بعض الدقيق ، سأعطيك بعضا منه للأطفال .

– أشكرك يا جارنا الطيب ،كم

أنت كريم ، إنني لأشعر بالخزى كلما فكرت فيما تفعله من أجلنا.

- تعالى الآن على الفور.

-حقا إنني لأشعر بالخزى.

- إني أفهم ، أنت خائفة أن تتذمر زوجتي ، لا تهتمي ستتذمر ثم تسكت.

- كنت أريد أن أعرض عليك شيئا . إذا كان لديك وقت.

- ذهبنا إلى بيته ولم تكن زوجته هناك، وترددت قليلا قبل أن أفتح الشمكجية.

كنت أخشى أن يقول من يريد أشياء مثل هذه ؟.

-حسنا أريني ما أتيت به.

فتحت الشكمجية قليلا وأنا مترددة:

- لم يبق شئ بالبيت سوى هذين.

نظر إبراهيم إلى التماثيل وتغير وجهه.

- آسفة -أرى أنه كان عليّ ألا أعرضهما عليك.

- اهدأى ، اهدأى ،ولا كلمة من فضلك.

قال هذا وانحنى عليهما كما لو كان يخشى أن يطيرا ، وبحرص رفعهما من الشكمجية ووضعهما على الطاولة قريبا من الضوء وبدأ يفحصهما عن قرب من جميع الزوايا ،ومسح النظارة، لكنه رأى أنها لا تناسبه .وجد غيرها ولم تناسبه أيضا ، وأثار هرجا حتى وجد عدسة مكبرة كبيرة .كان من الواضح أنهما أعجباه .حتى أن طائرا خارج النافذة أثار اضطرابه ولم يدعه يركز فقطب جبينه وهش الطائر بعيدا ،وجلس على كرسى ،محنى الظهر ونظر إلى الشكل متفكرا ثانية ، وانحنى ولمس أصابع أفروديت.

-نعم.. ياللأسف مؤسف جدا.

- لم ألا تعجبك ؟.

- ياللأسف.

وكرر القول .. إنه حتى لم يسمعني.

- هذه الحرب الملعونة تقتل هذا الحرفى، هذا الفنان!!.

- لم يعرضهما زوجي على أحد.

- نعم ، والآن أراهما أنا أخيرا ، لماذا لم يأخذهما إلى باريس؟.

- أين ،أين؟ إنني لا أعرف شيئا عن هذه الباريس!.

-فى عام ١٩٣٧ كان هناك معرض عالمى فى باريس ،كان يجب أن يذهب إلى هناك مع أعماله .كان سيحقق تفوقا ، كما لو كان كل أهل

كوباتشى تلقوا جائزة كبيرة. إنهما جـمـيـلان يا منابا أشكرك لأنك عرضتهما على.

– ليس لدى الأطفال ما يأكلونه ، أعطنى مقابلهما بعض الدقيق ، يسندنا حتى نحصل على بطاقاتنا القادمة.

– ماذا ، هل تريدين بيعهما ؟ .

ونظر إلى بأسى.

– ألا تعرفين يا امرأة أنهما من الأشياء التى لا تقدر بثمن كلا . كلا إنهما .. لا تفكرى فى ذلك.

وأخذنى إلى الحجرة الأخرى وأعطانى نصف شيكارة دقيق.

-خذى، واحرصى على هذه الأشياء . إنها تذكار عظيم لرجل عظيم . ولو أننى والحق يقال ، كنت أعتبره ،متبجحا ، ربما غفر لى خطأى.

– لكن ليس لدينا شئ آخر والكوخ يتهدم .كلا .. لن آخذ الدقيق إلا إذا.

– إلا إذا ماذا ؟ .

– من فضلك يا جدى إبراهيم ، احتفظ بهما هنا.

– تأتمنيننى عليهما حرصا ؟ وهو كذلك ، دعيهما هنا حتى تتحسن الأحوال . وحتى ذلك الحين سأساعدك أنت والأطفال قدر استطاعتى.

– إننى ممتنة ، ممتنة جدا ، إلهى ما تعدم عافيتك أبدا.

وكان الرجل عند كلمته ، كان كل شئ لديه يتقاسمه معنا فى تلك الأيام . لكن موته المفاجئ أنهى سر أفروديت بالمرة وكذلك زهرات التيوليب العاجية على التركواز . ومرت عشرات السنين بعد ذلك الوقت . وتغيرت الدنيا وأصبحتم يا أولادى بدوركم أجدادا . لكن أفروديت العاجية عادت ،وكان حفيد إبراهيم هو الذى أحضرها . نعم ليس كلها، فقط تمثال نصفى ، لكن حتى ذلك كان جميلا.

– نعم يا أمى كان الكل معجبا بها.

– وأتيت أنت بها لأنك ساعدته ، أليس كذلك ؟ .

– نعم ساعدته يا أمى.

-كيف ؟ إذن لم يكن ذلك سراً.

– ليس سرا. إنه عالم وعميد معهد ،وحاول بعض الناس الافتراء عليه فكتبت إلى صحيفة وكشفت لعبتهم . هذا كل ما فى الأمر.

– لا ليس كل ما فى الأمر . فحفيدتى تزوجت من نسل إبراهيم ،وبين هدايا الزفاف رأيت باقة من التوليب على التركواز. مثل هذه الأشياء تحدث عادة.

فى الغابة

يعتبر الخريف وقت الوفرة

الكريمة على جبالنا . فالغابات على منحدرات كوباتشى مليئة بالثمار الربانية مليئة بفرحة الماضى وبهجة المستقبل .والآن لا أدرى يا أطفالى إذا كنتم تعرفون القصة التى سأحكيها كان أخى «إنجى باخمود» يحب أن يحكيها وهو حى. كان يكبرنا، وكنا نحن- سبع بنات -نتطلع إليه وكان الكل يحترمه كان طويلا ، قوى البنية ذا شارب جميل ،كان سوء حظه الوحيد عينه ، ظل ضعيف البصر طوال حياته . بالنسبة لى كان باخمود مكان أبى بعد موته .كان رجلا طيبا أدام الله طيب ذكراه.

وفى ذلك الخريف كان مقيماً فى القرية هو وأسرته . بعد ذلك انتقل إلى المدينة ، إلى يونيكاك حيث يعيش ابنه وبناته مع أسرهم الآن .كان ابنه فيكاماما بشوش الوجه وفى نفس طيبة أبيه ، التفاحة لا تسقط بعيدا عن الشجرة كما يقولون.

اعتادت جماعات كوباتشى أن تجمع الثمار الربانية .كنت ترى فى الصباح أسرابهم متجهة إلى الغابة .كانت الكمثرى البرية طيبة خاصة .كانت حامضة لكن ما زالت حلوة ، يمكن أكلها على الفور ، أما إذا كانت جيدة فتخلل للشتاء والماء الذى «تنزه» نشربه كعصير الليمون حسنا ، فى يوم جميل مشمش قررت الذهاب إلى الغابة وجئت معى أنت ومحمد وأولاد أختى أحمد وحاج أحمد وجهزنا أنفسنا بالحقائب ولم نذهب إلى غابة بودوزيرنوى القريبة ولكن إلى أخرى كنا نسميها وادى الذئاب الثالث ،كنا نظن أنه كلما بعدنا كانت هناك ثمار كثيرة ، لذا ذهبنا إلى أبعد غابة ، لكننا نزلنا فى جزء كثير المستنقعات من الغابة حيث يندر وجود أشجار الثمار.

كنا فى منتصف الغابة تقريباً ، نبعد مسافة كبيرة عن الممر عندما رأينا شجرة ، كان من الصعب أن نعرف من مسافة ما إذا كانت الثمار ناضجة أم لا .. لمعرفة ذلك يجب اختبارها بإزالة جزء من القشرة ، لو كان قلبها أبيض جافا قليلا فهى جيدة ، أما إذا كان قشرها بنيا أو غامقا فهى ناضجة جدا يمكن أكلها فورا لكنها لا تصلح للتخليل . لو أن هناك حبة كمثرى واحدة «ناضجة» تفسد الباقى ، وهناك شئ آخر فأشجار الكمثرى البرية لا تعطى ثماراً مماثلة كل سنة بل تتنوع فهناك محصول جيد كل ثلاث سنوات.

مشينا وقتا طويلا وحقائبنا على أكتافنا ، لكن لم نحصل إلا على القليل . وهممت الغابة كخلية نحل لقد جاء الناس مبكرين ولم يضيعوا

وقـتـاً- كـان باسـتـطاعـتنا سـمـاع أصواتهم ، صياحهم وضحكاتهم. لكن لم يمكننا أن نجد ما يشبعنا أكلا. والكمثرى البرية لها نكهة أفضل بكثير من تلك المشهورة من بساتين «كايتاج» ربما لأن رحيقها ينبع من أرضها الأصلية.

سلمنا بحظنا التعيس وكنا نفكر في حمل شكائرنا إلى البيت عندما قابلنا أخي إنجي باخمود وزوجته وابنه فيكاماما ،وكان يشكو أيضا من أنه أضاع النهار دون الحصول على شئ قال باخمود وهو يلتفت ممعنا النظر:

– سيكون هناك، في غابتنا بودوزنوي ، الكثير عن هنا.

– الناس هنا أكثر من الكمثرى – إني مجهد هيه .انتظروا قليلا ،ما هذا الأصفر ، انظروا ؟. هناك -ليست كمثرى ، أليس كذلك ؟ نظري ضعيف ، قد تكون مجرد ورق أصفر.

– نعم ، فيما وراء بعض الأحراش ،حوالى عشرين خطوة عبر الفضاء مغطى بالحشائش العطنة ، تقف شجرة مكتظة بالثمار الصفراء التي لم تمس بعد.

وصاح أحمد.

-إنها كمثرى يا خالي.

وقلت أنت

– نعم يمكنني أن أرى ثماراً صفراء أيضا.

وصفق حاج أحمد بيديه.

-آه ،أنظر كم هي كثيرة.

وأشار فيكاماما.

– لا أظن أن أحدا لم يرها.

وصاح محمد أصف كم.

– هذا حظنا السعيد.

وخطا إنجي خطوة ، بحث عن نظارته في جيوبه ثم لبسها وحدق إلى الأمام منحنياً كما لو كان يصوب على هدف وبعد ما اقتنع .خلع نظارته ثانية ووضعها في جيبه وفرك يديه ونظر إلى ابنه وأولاد أخوته واحدا تلو الآخر ثم توجه إلى الأكبر ، أحمد.

– حسنا يا فتى ، أنت أشجعهم ، اذهب وجرب إن كانت ناضجة أم لا.

– مسح أحمد المجموعة بعينيه ونظر واضعا يده لتظلل عينيه ، ثم بصق في يديه وخطا خطوة محسوبة والتفت إليك الأكبر بعده.

– بما أنني الأكبر ، آمرك أن تذهب وترى -تحرك.

ثم قمت أنت بنفس الخطوات وتلفت وتراجعت خطوة أو اثنتين إلى الخلف كما لو كنت تستعد للجري ، ثم ذهبت إلى الحاج أحمد وربت على كتفه.

– والآن يا حاج أحمد فلتذهب وتلق نظرة وتأت لتخبرنا.

فهمهم:

- لماذا أنا ؟.

ثم نظر إلى فيكاماما.

- أنظر ،إذا أمر الوالد ،فعلى الابن أن يكون جاهزا ليلقى بنفسه فى النار . هيا أسرع ونظر فيكاماما إلى أولاد خالاته وقد وقفوا جنبا إلى جنب بلا علامة تنم عن الاستهتار ونظر إلى أبيه عديم القلب ثم التفت إلى محمد ، « الاصغر ».

- والآن يا محمد إنه دورك ، تقدم لنا بالخبر.

وصاح فيكاماما مشيراً إلى الشجرة التى تدلت أغصانها بالثمار ، وقد أتى بكل هذا من نفسه بلا تخطيط.

نظر باخمود وزوجته إلى الأطفال نظرات احتقار بينما استنتجت أنا أنهم يباروننا .وفجأة جاءنى محمد يعرج.

- أمى لقد دخلت شوكة فى رجلى من فضلك أخرجيها.

ونفد صبر إنجى باخمود وقفز وبصق:

-جمع ظريف أنتم، كلكم أكسل من بعض ، لافائدة منكم انتظروا هنا، سأذهب بنفسى.

وتقدم إلى الدغل الذى تقف فيه شجرة الكمثري بثمارها الصفراء المغرية .وكانت خطواته سريعة الغاضبة تكاد تقول : لم أتلق منكم أية مساعدة .وبالتأكيد لن أطلب منكم فى المستقبل ،وخطا بسرعة ونزل مباشرة فى المستنقع غارقا حتى وسطه . فى البداية ضحكتم أيها الأطفال ونحن النساء أيضا ،وبسرعة خامرنا شعور بالخطر فالمكان خطر ، كان يمكن أن يغرق .كان يجاهد فى الماء كالبدنة المجروحة محاولا الخروج ، لكنه كان يزيد الأمر سوءا لم يستطع التحرك لا للأمام ولا للخلف وبدا عليه الإجهاد.

- ما الذى يوقفكم هكذا كالدمى المسمرة ؟ ساعدونى.

لحسن الخط كان معنا فأس صغير ،وبسرعة قطعنا شجرة وألقينا إليه بطرفها فامسكها بكلتا يديه وأخذ الأطفال يشدون ، شدة وأخرى كان قد أصبح فى أمان.

فجأة تفرق الأطفال ، لكن غضب باخمود كان قد هدأ ،كان الماء يشر منه.

-أين هم؟ .

كانت الإجابة الوحيدة هى وقع الأقدام المتقهقرة.

- الأوغاد الصغار.

وجلس باخمود وخلع حذاءه وأفرغ

منه الماء بينما أنا وزوجته نقف صامتتين ، لم نتغلب بعد على شعورنا بالخطر . قال باخمود وهو يضحك الآن.

- الأوغاد : كان من الممكن أن أغرق ، العفاريت الصغار ، يلعبون حيلة كهذه على رجل عجوز.

- لكنهم لم يعرفوا يا أخى أن المكان بركه عميقة.

- إنهم يعرفون جيدا الأطفال (أحرف) من آبائهم . احتالوا علىّ . ولم لم أتحقق أنا بنفسى ؟ كان يجب أن أحدس أن الشجرة تنوء بالثمار لم يمسها أحد لابد وراءها سبب ما.

تنهدت أنا وزوجته ، لو كان له أن يلوم نفسه فليكتم غضبه . لم يستطع إخفاء تذمره طويلا خاصة من الأطفال.

وجففنا ملابسه فى الشمس الحارة حتى المساء ، ثم عدنا إلى البيت بشكائرنا خاوية.

كان باخمود يتذكر هذا اليوم دائما بابتسامة.

- العفاريت الصغار بلطافة احتالوا على.

مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين ،مات أخى منذ زمن بعيد وأصبح أولاده وأولاد أخوته أجداداً.

فى الخريف الماضى كنت مع أحفادى فى نفس الوادى ، وادى الذئاب الثالث ، لم نكن نجمع الكمثرى بالطبع ، فقط أخذناهم ليشاهدوا مكانا جميلا .كان معى تيمور وداود وقربان وحفيدتى مارينة ، وتخيلوا يا أطفالى ، فى نفس المكان قابلنا حاج أحمد مع ولديه حاجور مار ورمضان ولم يتذكر أحد منا وقتما وقع باخمود فى المستنقع ، لم نفكر فى ذلك لمدة طويلة.

وفجأة رأى حاج أحمد فى الدغل شجرة تنوء بما تحمل من ثمار.

- أليست هذه كمثرى ؟ أو هى أوراق صفراء فقط ؟ والآن من له عينان حادتا النظر ؟.

وأشار داود.

- لأنها تشبه الكمثرى ،وهناك الكثير منها.

إذا كانت ناضجة فإنها تكفى الجميع ، وقال حاج أحمد متلهفا إلى تيمور:

والآن يا بنى اذهب وألق نظرة.

- اذهب وألق نظرة؟.

تردد تيمور ، تلفت ووضع يده على كتف قربان.

- اذهب يا قربان ولتر ماذا هناك.

ظلل قربان عينيه بيده وتطلع ومال على حاج أحمد وأعطى أوامر بطريقة عسكرية:

- تقدم بلا تلكؤ.
- بلا تلكؤ.

ردد حاج أحمد ودفع رمضان دفعة خفيفة.

- اذهب إلى هناك ، خذ قطعة من الكمثرى واختبر نضجها.

وخطا رمضان إلى الخلف عدة خطوات كما لو كان يستعد للجرى ثم التفت إلى مارينة.

- والآن يا مارينة ، أنت أكثرنا شجاعة

- وأنا ؟ أوه ، إننى شجاعة بقدر كاف ،وهو كذلك.

وبصقت فى يديها وتوجهت نحو داود.

- تعال يا داود ألا ترى شيئا أصفر يلمع فى تلك الشجرة؟ فلتذهب وتر ما هو.

- وهو كذلك.

قال داود وبدأ يعرج- أصابته شوكة فى رجله .. ونظر حاج أحمد إليهم هازاً رأسه وتمتم شيئا عن الأوغاد.

وخطا بثبات متقدما ونزل فى البركة أمام الكل. ثم كان مضحكا تذكر أيام الماضى ، لم أتمالك نفسي وانفجرت ضاحكا وتفرق الأولاد ضاحكين . وبصعوبة خرج حاج أحمد بلا مساعدة واستلقى على الحشائش مقهقها من الضحك لأنه هو أيضا قد تذكر.

- على كل- احتال على هؤلاء الشياطين الصغار ، نفس الطريقة ، نفس المكان كيف أنسى ؟.نعم الأولاد (أحرف) من الآباء!.

الأنف الكبير والبطيخة

والآن يا أطفالى أود أن أخبركم عن أكثر أولاد اخوتى استقلالية ، لا شك أنكم خمنتم من أقصد. مراد ، مع أنه كان فى الخامسة وقتئذ ، لم يكن قد جلس بعد إلى طاولة العمل بجوار أبيه ، لسببين، أولهما هو أنه كان صغيرا ، وثانيهما أن أباه كان بعيدا على الجبهة . لذا كان الأطفال الكبار يغيظونه -: إلى أين تسير ؟ إنك لم تولد بعد. وكان يسمع غالبا من أحد أولاد أخوتى الآخرين ، ذلك الولد ذو الأنف الكبير حتى أن الأطفال كانوا يدعونه «أبو منقار» وكان ضخما كالثور.

وذات يوم‹نا مراد مرتبكا تماما وسأل بجدية.

- لا أفهم لماذا يقولون إننى لم أولد بعد ؟ إننى هنا ، ذراعى ورجلى ، وأذناى وأنفى وفمى ، أرى وأسمع وأتكلم إننى هنا، إنى حى، فكيف لم أولد بعد؟.

وكانت جدته تقيم معنا فى ذلك الوقت.

- ولا يهمك يا حبيبى ، من الممكن أن تكون حيا ، ولكن أن تولد فهذا أمر لا يقدره الكل.

- لست أفهم يا نينة.

- سوف تفهم يا حبيبى ، فلتكبر قليلا وسوف تفهم.

وجاء يوم من تلك الأيام التى ندعوها فى الجبال أنها تجعلك تود الطيران ،حينما تمسح أول أمطار الربيع الدافئة الأرض بقوة قوس قزح ، وتنمو الحشائش الصغيرة وبادرات البنفسج ، ويتشبع الهواء بروائح الربيع ودفء الشمس.

كنت أنا والجدة عبلة قد ذهبنا إلى زراعة البطاطس وأخذنا مراد معنا، كان الحقل ، قطعة صغيرة من الأرض ،محروثا ومخططا .وكان مراد على الرغم من صغر سنه طفلا جادا مستقلا ،حتى الطيور على أشجارها كنت تقول فى غنائها «جونا- فا- شيشفى» وكان مراد يحمل جاروفين ولم يشك البتة من التعب.

كان شيئا طيبا أن تراه وعمره خمس سنوات يبدى جدية البالغين والحرص الموسوم بروح الاستفسار الطبيعى فى ذلك العمر- لماذا السحب معلقة فى السماء ولا تسقط على الأرض؟.

لماذا تبدو كقمر الجبال ؟ لماذا تبدو السماء زرقاء بلون المياه فى بحيراتنا الجبلية ، لماذا يهز طائر الدورى ذيله طوال الوقت ؟ لماذا يحاول ذلك التيس الصغير النطح فجأة بدون مبرر على الإطلاق ؟.

كانت لدى مراد أسئلة لا تنتهى . وكنت أجيب عنها أنا وجدته فى صبر . لم يتعب أبدا من الأسئلة ولكننا بالتأكيد تعبنا من الإجابة، ولقد أدرك لم تعبنا لكن ماذا يفعل إذا كانت «لماذا » لا تفتأ تبرح لسانه ؟ قالت له جدته:

- لا يجب أن تسأل عن كل شئ يا عزيزى.

- لماذا ؟.

- يجب أن تفكر فى الأشياء بنفسك يجب أن تقف على قدميك كشخص مستقل.

- مستقل تماما- تماماً ؟.

- نعم تماما لكن حاليا ساعدنا فى زراعة البطاطس ، شاهد ما نفعل وافعل مثلنا ، سوف يصبح كل هذا فى إمكانك يوما ما.

وأثارت العملية اهتمام مراد شاهدنا وحاول بصعوبة أن يستمر مخرجاً لسانه للمساعدة ،وحفرت يداه حفرة عميقة لطيفة ، ووضع فيها حبة بطاطس صغيرة ، وبدأت يداه تعملان فى الأرض الرطبة قليلا.

- نينه : ألا يأكل الدود البطاطس؟.

- كلا يا بنى إنه يساعد التربة على التنفس ، ثم فى فترة قصيرة تظهر البادرات.

- لماذا هى بادرات.

-فى البداية بادرات ، ثم عيدان وأوراق، ثم أزهار وبعد ذلك تبدأ

البطاطس فى التكوين تحت الأرض ،ومن حبة واحدة صغيرة تخرج خمس أو ست حبات بعضها كبير جداً.

– هل ستنمو غداً؟.

– كلا يا حبيبى ، لا ينمو شئ فى عجالة هكذا ، علينا أن ننتظر ثلاثة أو أربعة أشهر.

–مدة طويلة هكذا؟.

–نعم يا حبيبى عليك أن تنتظر بصبر ، تنقيها من الحشائش وتعزقها . الصبر ، الصبر ثم تجازيك بعد ذلك .

ومر الوقت ، وذات يوم تفاخر مراد على« أبى منقار » هل يعرف كيف أنه جعل حبة بطاطس صغيرة تتحول إلى أربع أو خمس حبات كبيرات ؟ وسخر منه «أبو منقار » .

–معجزة وجدها طفل!.

– لماذا أنت هكذا دائما؟.

–وماذا تعني بهكذا؟.

– تقول أشياء(مقرفة) ألست مبسوطا من أى شئ؟.

– طفل أحمق .ما الذى يجعلك مبسوطا وبطنك تقرقع؟.

– ولم تقرقع؟.

– لأننى جوعان.

كان مراد طفلا جادا ، لم يكن فقط يبحث عن إجابة لاستفهاماته ،كان يحاول صنع الأشياء بنفسه ، ولم يكن ليصبر حتى يرى كيف تتحول حبة بطاطس صغيرة مزروعة فى الأرض إلى حبات عديدة كبيرة .كان يذهب غالبا والخطوط خضراء ، ثم بدأت الأزهار تظهر ، بعضها أبيض والآخر يميل إلى الاحمرار. وذات يوم حفر التربة بحرص بجوار إحدى النباتات ورأى حبات بيضاء صغيرة تشبه بيض الطيور وبسرعة غطاها بالتربة . وذبلت الأزهار وأصبحت الأوراق والعيدان بنية وذهبنا إلى الحقل مرة ثانية.

– والآن يا حبيبى ، يمكنك أن تنظر فى الحفرة الصغيرة حيث وضعت حبة البطاطس وترى ماذا هناك.

– هل يمكنني يا نينة الآن؟.

– نعم الآن، هنا أحفر.

– سأحفر بيدى لأرى جيداً.

وبدأ يزيح التربة الناعمة بيديه -بحرص لا يفصل حبة واحدة عن العود .وحالا رأى واحدة كبيرة ، ثم أخرى حتى رفع ثمانى حبات بطاطس من نبات واحد.

– إنها بطاطس مسحورة.

صاح مراد وهو يرى جدته اكتشافه العجيب.

– ليست البطاطس المسحورة ، إنها التربة . إن التربة هى أكثر شئ سحرى فى هذا العالم.

إنها تعطى الحياة لكل شئ وكل جسم . والحمد لله أعطتنا هذا العام محصولا طيبا.

نعم فقد جمعنا عشر شكائر من

قطعة أرضنا الصغيرة . وظل مراد لمدة طويلة يتعجب من المعجزة .
وقال لأبى منقار مرة.
– إنك لم تحلم أبدا بمثل هذا.
– بطاطس -ها ها حاول أن تزرع بطيخة.
هكذا سخر منه «أبو منقار» نعم كان الوقت خريفا وكان هناك بطيخ فى السوق ،جاءوا به من الوادى ووقعت كلمات «أبى منقار» على أرض خصبة ،فكل الأطفال مغرمون بالبطيخ ، لكن مراد كان يعبده .كان يعشق القشر ، يأكله بنهم حتى الجلدة الخشنة لدرجة أن البذور كانت تلتصق بخديه .وفى نهاية عشاء كان فيه بطيخ توجه مراد إلى جدته قائلا:
– نينه ، أعطينى روبل ، وسأرده عندما أكبر.
–من أجل ماذا تريده؟ .
– ألا تصدقين أننى سأكبر وأرده لك ؟ لن أنسى.
– حسناً إذا كنت متأكداً من أنك لن تنسى.
ونظرت الجدة بحنان إلى الولد وهى تعطيه روبلا وبعض (الفكة). وخرج مراد إلى حديقة المطبخ وحفر حفرة عميقة وجرى إلى السوق . وعلى الفور رأى بائعا يقف إلى جوار تل من البطيخ ،ورفع النقود.
– من فضلك هل تختار لى أفضل بطيخة؟ .
– أفضل واحدة على الإطلاق ؟ .
أكثرها نضجاً وحلاوة من فضلك.
– وهو كذلك أيها الصبى . سأجد لك بطيخة نبتت على شجرة وليس على الأرض. ها هى تنظر إليك.
والتقط بطيخة مخططة خضراء غامقة وقربها من أذنه وضغطها.
– نعم إنها تشخشخ .خذها بحذر ، إذ نقرتها بظفرك فستنفجر من نضجها.
– أوه ، أشكرك ، شكراً.
وأسرع مراد إلى البيت حاملاً البطيخة بكلتا يديه . ولم يلحظ أن« أبا منقار » كان يراقبه وعندما جاء مراد إلى الحديقة وجد أن عليه أن يزيد من سعة الحفرة لتسع البطيخة . وبعد أن فعل ذلك وضع البطيخة بحرص فى القاع وغطاها بالتربة وابتعد راضيا ، أملا أنه بعد ثلاثة أو أربع شهر سيستطيع أن يستخرج عشر بطيخات ، بعدد أصابعه.
كيف له أن يعرف أن البطيخ لا ينمو فى الجبال ؟ وتعجب كيف أن الكبار لم يفكروا فى زراعته .وهكذا ذهب إلى البيت مسروراً من نفسه . لكن «أبا منقار » وقد كان يراقبه من فوق السور، فرك يديه مستعدا . وبمجرد أن حل الظلام انسل إلى الحديقة وحفر على البطيخة وبحث عن مكان هادئ ،وكانت البطيخة ناضجة جدا لدرجة أنها تشققت بمجرد أن لمستها السكين. وأكل «أبو

منقار » حتى امتلأ وربت على معدته ، ارتاح قليلا وشرع في آكل القشر الطرى .وفي النهاية أتى عليها مشيراً إلى حظه لأن هناك أطفال حمقى في هذا العالم .وقبل أن يترك الحديقة وجد غصناً جافا فغرسه مكان الحفرة وزينه ببقايا البطيخة.

تحيرت الجدة طوال الليل كيف تشرح لمراد غلطته ،كانت تتحرج من أن تخبره بصراحة : أنه لا يمكن زراعة البطيخ كالبطاطس ؟ لم تكن تريده أن يشعر بحمقه أو أن تصدمه . لكن بما أن هناك أشياء كثيرة تشغل بالها قررت ألا تقول شيئا.

في الصباح أخذ مراد(قلة) ماء كبيرة إلى الحديقة ووقف قريبا في دهشة مباغتة . لقد نمت شجرة حيث زرع البطيخة ومعلق على فروعها قطع من القشر المنحوت . وبينما هو واقف هناك مندهش ومرتبك ، سمع صوت « أبي منقار » وضحكه الحيواني:

– سحر ، ها ها كيف تراها ؟ شجرة سحرية ، هاها.

لم يستطع مراد الكلام لبرهة من الكمد ، لكن بعد ذلك قال في تأن كما لو كان يزن كل كلمة:

– أفهم كل شئ عن البطيخ ، لكن هل لك أن تخبرني ماذا زرعت ليكون لك هذا الأنف؟. واحمر « أبو منقار » وشد قبعته إلى أسفل كما لو كان يود الاختفاء، وبعدها ترك مراد وحده وإن كان يتحرش للشجار، كما لو كان يود أن يستمر الأمر هكذا . لكن لم يكن لدى مراد استجابة.

– لا أريد شيئا من شخص يرى الأشياء من خلال نظارة مشروخة.

كان ينطقها كشخص راشد.

هكذا كان ينمو مراد . وهو الآن -كما تعرفون- كبير مهندسي الزراعة في مزرعة حكومية كبيرة ويعمل « أبو منقار » تحت رئاسته- ماذا تظنون ؟ يزرع البطيخ.

الحلقان النحاسية

كلكلم تعرفون الحكمة الكوباتشية « إذا لم يكن هناك ذهب فالنحاس يلمع » نعم فالحرفيون في كوباتشي يمكنهم أن يجعلوا النحاس يلمع كالذهب إذا كان المعدن الثمين غير موجود.

وككل أم في كوباتشي كنت أريد لأطفالي أن يتعلموا حرفة أبيهم .فالحرفة اليدوية لا تلقى على أكتافكم بعبء لكنها تجنبكم متاعب كثيرة .على البوابة في مدخل قريتنا منقوشة تلك الكلمات « الفقير من لا يجد لديه عملا ، لكن الغني من يحمل اسمه لقب اسطى » هذه الحرب الملعونة غيرت كل شئ ، لم يبق إلا قليل من الحرفيين . هؤلاء العاجزون على نحو ما . كان هناك العديد من الأطفال الآخرين »- وإن

كانوا ليسوا أفضل بأى حال- إنهم دائما مشغولون بالشاكوش والقاطع ، مجرد ساعة ، كنت أنصحهم فلتجدوا ساعة واحدة تجلسو « فيها إلى طاولة العمل. عندما كنت لا تسمع الشاكوش فى أى كوخ فى كوباتشى فإن الكوخ يبدو ميتاً . لكن ما أجملها موسيقى إذا سمعت المطرقة ترتطم بالمعدن والشواكيش تدق فى بهجة وزئير الفرن.

أجمل أغنية كما لو كان الرجال قد عادوا من الجبهة وبدأت الحياة الآمنة نائية . كانت قلوب الأمهات مليئة بالأمل ، ويقطع الصوت المعتاد ذهاب إلى العين .وكان الأطفال يكبرون.

فى قرى سيراجين فى تلك السنوات وقبلها أيضا كان الطلب زائدا على ما يدعونه الحلقان المدورة- خرزة ذهب كبيرة على فلقة ذهبية رقيقة- لكن من أين للأطفال أن يحصلوا على ذهب أو فضة ؟ لقد تبرع الناس بكل أدواتهم المنزلية لمساعدة الجيش .حتى النيكل النحاسى أيضا راح ولم يبق سوى بعض النحاس . وهكذا أخذت طبقاً نحاسيا من على الحائط حتى لا يجلسوا هكذا خاملين . لقد فعلت أم باجاتير هذا أيضا ،كانت عائلتهم فقيرة ونحن أيضا كنا فقراء-كان من الصعب أن تجد أفقر منا فى القرية كلها.

وفى مقابل الحلقان المدورة كان يمكن شراء« الشرش » من بنات سيراجين ،والتفاح والفحم من بنات كايتاج.

ووجد الصبية قوالب للحلقان المدورة : يصنعون نصفى كرة من النحاس ، يلحمونها ببعضها ثم يلحمون نصف كرة صغيرة بهما وينتهون من ذلك بعمل خطاف سلك لها .وكان طرق النحاس لترفيعه عملا صعبا مملا ، الدق على الحواف لترفيعها وتهذيبها ، نعم كان عملا صعباً يترك الأصابع سوداء . لكن كم كان الأطفال سعداء عندما نجحوا! بالطبع كان هناك إلى جانب آهات الاعجاب آهات ألم عندما يؤذى أحدهم إصبعه أو يعض يده بالكماشة أو يحرق يده بالمعدن الساخن . لكن مهما كان الثمن هناك عشرون زوجا من الخلقان المدورة ، ليست كاملة تماما تحتاج إلى شئ من الشذب هنا وهناك.

صحيح أنها نحاسية وليست ذهبية ولكن من صنع أطفالنا.

- والآن ماذا تقولين؟.

رائع كما ترون إذا أردتم أن تفعلوها بجدية فيمكنكم ذلك.

- ألسنا حرفيين أم لا؟.

- حرفيون ، حرفيون حقيقيون.

تنمو البنات حتى سن الزواج

فى زمن السلم أو الحـرب ، لكنهن ينمـون أسـرع فى جـبـالنا وكـانت ملابسهن فى مناسبات الأعياد مليئة بالزينـات ، الحلقـان ، الخـواتم ، الأسـاور ، والقـلادات وعـقـود من العملة ، الأحـزمـة ،وحلية الشعر . أحيانا يكون وزن كل ذلك كبيراً.

حسنا ، وهكذا شـرع ابنى وباجاتيـر فى التـوجـه إلى قـرى سـيـراجين سـيـرا على الأقـدام بحلقانهم آملين أن يقايضـوا عليهـا بشئ يأكلونه : شـرش ، دهن ، عـسل أو لحم مـقدد ، لكن علاوة على كل هذا ليـروا كيف يقيم عـملهم . وزودناهم ببـعض الكعكات من أجل الرحلة وقطع قليلة من جبن لبن الماعـز وصحبناهم إلى الممر.

وفى القـمـة ، قـريبـا جـدا من أورارى ، توقـفـوا للراحـة وليـأكلوا وأخرجوا قطع الجبن المفلطحة ومعها الحلقان ، لكن هل كانت هذه حلقانهم ؟ ذهب لمعانها الأصفر ، تبدو كابية خضراء كما لو كانت مدهونة باللون .كم من الجهد بذله فيها الصبية قد ذهب كـدخـان فى الهـواء ؟ ووقف الطعـام فى حلقـوقـهم .وتجنب كل منهم النظر إلى الآخـر خـوفـا من الانفجار فى الصياح.

أنى لهم أن يعرفوا أن النحاس لا يوضع بجوار الجبن ، خاصة إذا كانت الجبنة طرية ومملحة هذا ما جعل النحاس يصبح أخضر اللون .كان هناك شئ واحد طيب ولم يكتشفوه فى حينه هو أنهم لو عرضوا الحلقان هكذا على بنات سـيـراجين لماتوا عليهما من الضحك.

قال باجاتير دون أن يرفع رأسه وهو يمضغ بحزن خبزا لا طعم له:

– إن حظنا لسيئ يا صديقى.

– ما هذا التخبط؟.

– مـاذا سنفـعل الآن ؟ لا يمكن أن نرجع أصـفـر اليـدين ، وإذا عـرضنا هذه الأشياء سنكون حمقى.

– وماذا إذا؟.

كان باجاتير ذكيا وبالطبع كان قد رتب خطة.

– هل أحضرت أدواتك معك؟.

– بالتأكيد .

– تعال هيا بنا.

– إلى أين ؟.

– إلى أورارى.

– ماذا سنفعل هناك؟.

– لست أدرى بعـد ، لكن أظن سنجد شيئا نفعله . هيا.

ونحـو المساء والقطعان عائدة إلى القـريـة وصل الأولاد مـعـهـا وبالطبع كانوا قد حددوا من على بعد بنظرة فـاحـصـة للأسطح ، أى الأبواب سـيطرقـون طالبين مـأوى ليليـاً ،ولسـبب مـا اخـتـاروا كـوخـا عليـه سيماء الفقر.

أخذتهما العجوز الشاحبة التى تعيش فيه إلى الدخل وقدمت لهما اللبن الطازج مباشرة.



– آه يا طفلى العزيزين ، كم أنا مسرورة ، لم أتلق أخبارا من الأصدقاء القدامى منذ فترة طويلة .

-تعالوا ، تعالوا.

أخذ الطفلان راحتهما ،وبعد عشاء قصير أخبراها بكل شئ إلا أنهما لم يخبراها أنهما أفسدا الحلقان فى الطريق.

– إننا حرفيان إذا كان لديك شئ يحتاج إلى طرق أو توضيباً يمكننا عمل ذلك بسهولة .

قال لها باجاتير ذلك فقالت العجوز.

– هذا طيب ، حسن جدا .

وأحضرت بعض الحلى من دولاب ذى أدراج.

– بعض هذه يحتاج توضيب فلتلقوا نظرة.

وفى الصباح الباكر جلسا إلى العمل يوضبان السلاسل والأساور والحلى والأشياء القديمة كافة بينما فى نفس الوقت كانت العجوز تدور على الجيران تخبرهم بأمر الحرفيين الصغيرين :«إنهما أبناء أصدقاء قدامى يقيمان عندى . تعالوا وانظروا كم يملأ النور البيت ولتأتوا معكم بكل ما يحتاج إلى توضيب الحرب على وشك الانتهاء . ويعود الفتيان ،حان الوقت لتزيين البنات».

وبدأ الناس يتوافدون من كل القرية .وكان الولدان سعيدين يتلقيان أجرهما حبوبا أو بيضا أو جبنا وأحيانا عشاء طيباً.

وغاب الولدان عن البيت مدة طويلة وبدأت أنا وأم باجاتير يعترينا القلق وجاء يوم السوق ، وبدأنا نسأل النساء من طريق سيراجين عما إذا كانوا يعرفون شيئا عن ولدينا . صاحت واحدة:

-هذان الاثنان ،الحرفيان فى قريتنا ؟.

– نعم هما الاثنان ، أنهما صانعان ماهران كذلك.

وهكذا ارتحلت أنا وأم باجاتير ووجدناهما فى أوراى رى فى كوخ العجوز ، غارقين فى العمل تماما ، ورأينا البنات فى الحى التى تبدو جديدة وكانوا قد جمعوا الكثير من هذا وذاك حتى أننا أربعتنا لم ندر كيف سنحمله . ثم وجدت لنا العجوز حمارا وضعنا عليه الحمولة وبدأنا طريق العودة إلى البيت

-والحلقان الفاسدة؟ لم يلقوا بها ، نظفوها الأولاد وجعلوها تبرق كالفضة.

لكنهم لم ينسوا أبدا أن حلقان النحاس يجب ألا توضع بجوار جبنة لبن الماعز.

وجاء اليوم

لم يأت يوم مثل هذا فى منطقتنا ذات الاف الجبال والأودية.

كانت السماء تبدو خالية من السحب وتشع لونا أزرق صافيا ..

ومنذ الصباح الباكر .كان الكل صغيرا وكبيرا يتوجه نحو مبنى السوفيت الريفى بعلمه الأحمر يرفرف فى زهو ودقات الطبول المنتظمة.

ذلك يوم يستحق الحياة من أجله ، فالكل كرجل واحد فى متعتهم وفرحة النصر العظيمة.

وهواء الربيع يبدو مشبعا بالإحساس بالنصر . وكان الرجال العجائز الذين رأوا الكثير وحاربوا فى الحرب الأصلية يمسحون دمعة عفوية ويعانقون بعضهم البعض ،كما لو كانوا يلتقون بعد غياب طويل . لكن الكلمات كانت قليلة ولا تقوى على حمل التعبيرات التى أراد الناس أن يحسوها فى ذلك اليوم .وفى منتصف اليوم لم يكن هناك بيت فى القرية لم يرتفع علم على سطحه ،حتى هؤلاء الذين ليسوا لديهم رايات حمراء بحثوا فى خزائنهم عن أغطية الرءوس القطنية أو الحريرية الحمراء ليربطوها ويرفعوها فوق الأسطح . وبدأت الميكروفونات تملأ الهواء بالموسيقى بكل قوتها.

كانت متعة أن ترى الأطفال مشرقى الوجوه كما لوكانت سحابة قد زالت عن وجوههم.

أطفال سنوات الحرب الذين لم يعرفوا الطفولة الآمنة ولا ألعاب الطفولة ، الذين كانوا يفكرون فقط فى مساعدة الجبهة ، الأطفال الذين كان آباؤهم يحاربون أو قتلوا بالفعل ،الأطفال الجوعى الناحلون.

الآن يمكنهم أن يفخروا بآبائهم المنتصرين على عدو قاس ماكر ، لقد كانوا أطفال الأبطال.

من أجل هؤلاء الأطفال قام السوفيت الريفى بإحياء حفل عشاء ذبح من أجله عجلين سمينين وقام الأسطى فرجار العجوز الذى فقد أربعة أبناء فى الحرب بشراء واحد أخر ليكفى الثلاثة لعمل « الحساء ».

لو أنك جمعت كل الاجازات فى يوم واحد لن يكون أبدا مثل ذلك اليوم.

لم يتذمر الناس من شئ حتى ما قيل عن يوم ممطر بالمرة ،حتى العجوز عبلة أحضرت سوارها الثمين لتشترى خروفيا وتصنع « الجتكل » وكانت تقول هذا يوم زفاف ،العروس هى الأرض وعروسها السماء ؟ واليوم يحتفل بهما العالم.

أذكر يا أطفالى كيف جلسنا جميعا فى المرج الأخضر وأحضر لنا الحساء.

كان نوعا من الأعياد كتلك التى يطلب الناس منك فيها أن تأكل غير ناظرين لأكلك .حتى المرضى الذين أعجزتهم الحرب جاءوا إلى الميدان لتناول « حساء » النصر .وكان عيد المشاركة هذا أفضل من أى علاج لهم.

كـان هنـاك سـبـاق الخـيـل .. مصارعة ؟ وألعاب كرة.

كـانت هذه المسابقـات لأطفـال المدارس .. هل تذكـر يا بنى كـيف هزمت باجاتير فى المصارعة؟.

– بالتـأكـيـد يا أمى ؟ كـيف أنسى؟.

– وماذا قال لك؟.

– قـال بطنى مملوء .كنت جوعانا وكانت الشوربة جيدة لدرجة أننى أتخمت نفسى . أنظر فلنفعل هكذا .. سوف أطوح نفسى على أن نتقاسم الخمسين روبل .وكنت أفكر فى مثل ذلك أيضا . فلم أكن قد أكلت أقل من باجـاتيـر .. ولو انسـحـبت من المصارعة لخسرت النقود.

وهكذا تصـارعـتـمـا .. وعندمـا نظرت إليكمـا سـرت فى رعـدة.. كنتما نحيفين تشع عيونكما ضعفا وبطونكم مـدلاة كـمـا لو كنتـمـا مـصـابين بالكساح وبنطلوناكمـا مرتقين ولو عرفت قبلها لأصلحتهما حتى لا يبدوان مهينين . وفعلتم ما اتفقتم عليه .. ووقع باجاتير حتى لمست أكتافه الأرض .. وصفر الحكم . وأعطاك النقود .. فقسمتها كما اتفقتم . وبعد ذلك غنى الكورال بقوة بصوت عال حتى أن جدران المنازل والمنحدرات والجبال بدأت تشارك فى الغناء : «المجد للأبطال .. الموت للعدو».

ولم ينفض الناس حتى وقت متأخر من الليل كانوا مبسوطين متحررين مع بعضهم البعض حتى أنهم ما رغبوا فى الرحيل .كانوا كعصبة كما لم يكونوا من قبل.

وعندما حل الليل كانت القرية تلمع فى ضوء البطاريات .كان الوقت متأخرا عندما عدنا للبيت وحل النوم هادئا مطمئنا كما لم يكن يوماً منذ بداية الحرب لكننى لم أستطع النوم. كنت نشيطة إلى حد كبير . أحس بتيار من الطاقة يجتاح جسمى كله. وفى الصباح ألبست الأطفال قمصانا وبنطلونات نظيفة وضعت لهم أربطة حمراء من منديل أبيهم الأحمر وودعتهم إلى المدرسة – وعندما أصبحت بمفردى ألقيت بنفسى على الوسادة ذاهبة فى النوم . أفكر.

جاء النصر أخيرا لقد نجا الأطفال.

جرّ شَكَل

جرّ شكل

من له أذنان فليسمع : مارسيل

الفرح صعب وعزيز فى هذا الوطن . ومع هذا نسأل طوال الوقت عن كم الشجن الذى يدفق من أغانينا وطقوسنا وإبداعنا والمرادفات اللغوية الكثيرة عندنا لكلمة حزن .

ذات يوم طلب منى رئيسى المباشر الكتابة عن رواية سلمان رشدى بعد صدور الفتوى الإيرانية بحقه .

لم أكن قد اقتنيتها أو قرأتها بعد فكان منطقى الوحيد للاعتذار أنه من المستحيل على أخلاقياً أن أكتب تقريظاً أو إدانة لما ليس بحوزتى ولم أقرأه . وقد لاأكتب حتى لو أغضبنى ماقرأت ،وهو ماحدث عندما قرأت «آيات شيطانية» باللغة التى كتبت بها بعد ذلك لكن الفارق - كما أمل - واضح .

أرجع عن هذا المبدأ اليوم بازاء القضية المثارة والمفتعلة عمداً حول غناء الفنان اللبنانى مارسيل خليفه لما رأى فيه شخص أحد القضاة تحقيراً ومساساً بالمشاعر الدينية بالنظر إلى تاريخ مارسيل الفنى فى الدفاع أو الاقتطاف وللثقة فى أنه لايمكن أن يوجد مايسئ عمداً أو عرضاً فى أدائه الفنى بالاستناد الى أن الانسان الملتزم يندر أن يتحول بين عشية وضحاها إلى عميل مرتزق ومتعصب . وأشدد فقط على الآتى :

أولا: جمهور المستمعين الذين أحبوا أغنيات مارسيل المحظورة بشكل غير رسمى فى الشارع المسيحى إبان الحرب الأهلية اللبنانية والتى (أى الأغنيات) كان يمكن أن تتسبب فى إهدار دمه على يد ميليشيات متطرفة وعملية بحاجة إلى تفسير مصطلح " قرار ظنى ".

هل يعنى المصطلح عدم يقينية القاضى إزاء حيثيات حكمه أو أسباب مايشعر " أنه مستحق للاتهام ؟ أليس بعض " الظن إثم"؟ . ماالذى يحدث هنا؟

ثانياً: القرارات المُهينة والمتعسفة والشاطبة لتاريخ من الوقوف بما يملكه الفنان - بفنه وحده - بجانب العروبة وضد احتلال الوطن أو انتهاكاته المستمرة ومايتعرض له الجنوب اللبنانى تحتاج إلى مواجهة شجاعة من الأنظمة والمؤسسات التى تصدرها تستفتى فيها الجمهور - هذا المجموع الذى ينظرون إليه ككتلة دائماً - فى أمر من يريدون إعدامه فنياً أو فكرياً



واجتماعياً أو حتى تصفيته جسدياً (تناقض كبير ومضحك لحد الاستحالة) لكني لاأرى عنه بديلاً لمن يقومون بالمهمة الشاقة التي هي " حمايتنا ".

إن الفنان أكثر من المفكر في هذا الوطن الأ مي بالأساس قادر - في كل عصر - على الوصول إلى نخاع نخاعنا وإلى ماقد لاندركه أو نحب أن نعرفه عن أنفسنا . لكن من الطبيعي تماماً أن تستحيل المطالبة " بمبايعات" من هذا النوع الى فانتازيا مصادرة مادامت أكثر الأنظمة العربية تصر على تجاهل حقيقة أن الأمي الآن يعرف ماذا ينقصه ويتكلم في السياسة ففي ظل حصار الوصاية الأبدية لن يصدق أى نظام بمؤسساته أن الشعوب قد بلغت سن الرشد.

ثالثا: الفن الجميل يمكن أن ترقص على أنغام أغانيه بوجدانك أو جسدك لكن الصحف العربية المستنكرة لما يحدث لمارسيل لم تفدنا بورود حالات إغماء إلى المستشفيات نتيجة لهز البطن أو أى نوع من الرقص المحموم على أنغام" أنا يوسف ياأبي" التي لو أنصف القاضي المتجني أو ضيق الأفق الذي أصدر حكمه لشمل الشاعر محمود درويش بقرار ظني مماثل فان قال قائل إن تلحين نصوص دينية إسلامية غير جائز شرعاً لما استطعنا سوى ذكر حقيقتين:

الأولى هي أن دين مارسيل وشخصه لايبيحان السخرية المتهم بها ولايمكن محاكمة أى كائن حى بتهمة ازدراء مفترضة الا بالاستناد الى الدافع والدافع في هذه الحالة يدحض التهمة ويكفي المسألة كلها إذن ونفس متفتحة مستنيرة ومحبة لما هو حقيقي وإنساني .

والثانية لأنه ليست هناك جريمة فمن غير المعقول تكذيب كل المستاءين من صدور القرار واتهامهم بالتبلد الديني أو الكفر ومن غير الجائز أن يضطر المرء الى القول بأن عقيدة مارسيل لاترى في الغناء الديني " مصيبة" أو تجديفاً أو ملاعنة من أى نوع . الغناء الكورالي والفردي الكنسي على أنغام آلة الأورج ولدى دخول الكنائس والخروج منها يشمل الكنائس البروتستانتية والإنجليكانية والشدو العذب باللهجات العامية لتقريب شعب الكنيسة من التعاليم قائم حتى في الكنيسة الأرثوذكسية.

ولأن الكائن البشري ليس بعيداً في المسيحية -حسبما أفهم - عن الكائن الالهي يمكن أن تشاهد النساء يقمن بارضاع أطفالهن صناعياً أثناء أداء الصلاة ويمكن للأطفال أن يركضوا أثناء الشعائر ولخادم الكنيسة أن يستخدم صليبه الخشبي ليحك به جزءاً من فخذه . بينما جماعات البيوريتان الدينية المتعصبة التي ظهرت في الولايات المتحدة وبريطانيا هي وحدها التي كانت تحرم الغناء داخل الكنيسة ويلتزم اتباعها بارتداء الملابس السوداء ويصرون على حتمية التقشف في تصميم معمار كنائسهم وديكورها الداخلي.

لن أنسى أن واحدة من أجمل أغنيات البوب في بريطانيا السبعينيات والتي غنتها أشهر مطربة وقتها الفنانة بتيولا كلارك ومن بعدها المطربة سيندي بلاك ثم غيرهما كانت أغنية دينية (ليست من الإنجيل) بعنوان " يسوع المسيح نجم النجوم" وتؤدي شدة الانفعال والطرب فيها الى اهتزاز

المطربة على الشاشة بفستانها السواريه الراقى فيما يكشفه شأن معلمتى التى كانت تصلى والجزء الأكبر من فخذها الأبيض مكشوف فى السجود على الوسادة الإسفنج المغلفة بالجلد الأحمر تحت ركبتيها فى فترة موضة الميكرو جيب..

وهكذا تعلمت أن الله لاينظر إلى صورنا وأجسادنا بل إلى قلوبنا كما يريد المهيمنون على شئون العباد والعبادة فى ديار الاسلام أن نصدق وهم يفعلون كل ماينافى تصديقهم لهذا . وليست حمى التركيز على سكون الشيطان فى جسد المرأة وكونه - أى جسدها - هماً مستمراً يدعو إلى القلق والتفكير فى ردمه هو وصوتها معاً سوى نموذج لعقلية أو لنمط فى التفكير قائم على الإصرار على وظيفة الإنابة ودور يماثل ذلك الذى قام به قاضى مارسيل الذى يتصور أنه يحمى شيئاً غاب عن عيوننا وأسماعنا كونه يتعرض للإهانة عندما أصدر قرار إهانة مارسيل وإهانة الدين الإسلامى نفسه وفق هكذا تفاسير للحماية.

ماذا نفعل بكل القصص المقدسة إن لم نغنها ؟

ماذا نفعل بالبشر المقدسين إن لم نصورهم؟

أيقونات المسيح وصوره فى أناجيل الأطفال المرسومة فى أوروبا تظهره بشعر بنى وعيون بنية بينما في مارأيته فى الفن القبطى والكاتدرائية المرقسية بالعباسية شعره أصفر وعيونه زرقاء . أم النور العذراء تختلف ألوانها بين البلاد وفى بعض البلدان الإفريقية تماثيلها سوداء ولم نسمع أبداً عن احتجاجات كنسية.

من يفتينى فى موضوع عدم تصوير بشرية الصحابة سينمائياً وأنا قد رأيت الوجه الرجولى لعلى بن أبى طالب داخل برواز جميل عند صديقة إيرانية وحوله الشمع والورود فى غرفتها ثم فى قاعة تطل على الحديقة حيث كان البهائيون والشيعة والزرادشت من الزملاء يحتفلون بالنيروز (يسمونه النوروز) ويشعلون نارهم أمام معشر الانجليز ،وإدارة الكلية التى أعطت الإذن بالاحتفال برأس السنة الايرانية متحرزة فقط من احتمال نشوب حريق؟

كيف نستطيع أن نجزم أن الوجه فى البرواز يختلف عن وجه القائل " لو كان الفقر رجلاً لقتلته "؟

ومن يملك تعليقاً لنيلوفر الإيرانية التى أبدت استغرابها من تدلى تمثال صغير لراهب بوذى يرقص من سلسلة فى عنقى فسألتنى ان كنت مسلمة كما فهمت ولما سألتها عن صورة المعمم البارزة على قرص ذهبى فى سلسلة بعنقها صاحت بدهشة لاأنساها:" محمد"!..

غادة نبيل

نطاعة بالقوة وبالفعل!

يمتلئ الشارع المصرى (الآن) بظواهر سلبية ، ومظاهر سيئة ، لا أجد ما أسميها به إلا (النطاعة)! .. والنطاعة ، إذا بحثت عن معنى لها فلعله أن يكون مرادفا -مثلا (للبجاحة) ! .. أما إذا أردنا أن نعثر على تعريف ما جامع مانع شامل للنطاعة والبجاحة معا- ولو بطريقة اجتهادية- لقلنا إن (النطاعة) هى أخذك ما لاحق لك فيه و (ببجاحة) كمان ،وبطريقة هى أقرب إلى العنف والتهديد والانذار والتوعد والابتزاز ! .. وبالتالى فالنطاعة هى شكل من أشكال الاغتصاب إذا أردت الحقيقة ، ولكنه اغتصاب (بالقوة) يوشك أن يكون- فى أى لحظة -اغتصابا (بالفعل) .. ولكنه يبقى (اغتصابا) على أى حال ، سواء استقر عند حد (القوة) أو تجاوزها إلى حد (الفعل)! وحتى لا تتوه معنا ، عزيزى القارئ ، فى هذه التحاليل الفلسفية المثقفة السوفسطائية (العاجزة عن أى فعل) .. دعنا نهبط معك من سماء التجريد إلى أرض التجسيد ، أو من دنيا المثال والخيال ، إلى واقع الحال، الملئ بالاستعباط والاستهبال ، فى كل الأحوال!.

فمثلا .. هذه الشخصية الطفيلية العجيبة، التى لا تعثر عليها إلا فى شوارع القاهرة (فقط) فى غالب الظن، ولا وجود لها- بالتأكيد -فى أى مكان من العالم المتقدم أو المتخلف سواء .. وهو هذا النطع الشحط الذى تنشق عنه الأرض فجأة كلما أوشكت أن تركن سيارتك فى شارع من شوارع ربنا(بتاعة الحكومة) حيث يشير إليك باشارات لا معنى لها ولا ضرورة بالنسبة لك ولا تعنيك فى شئ عند وقوفك أو مغادرتك .. وكأنه يحاول أن يقنعك (بالعافية) أن لا قدرة لك على ركن السيارة أو الخروج بها من غير إشاراته العبقرية وحركاته المهلبية ، التى يبقى الغرض الوحيد منها أن (يستنطعك) فى نصف جنيه على الأقل لأنك إذا تهورت وأعطيته ربع جنيه فقط، سينظر إليك شزرا ، ويوشك أن ينتقل بنظراته من حد(القوة) إلى حد(الفعل) السابق الاشارة إليهما ، لولا أنك تسارع بالاعتذار والتأسف متضرعا إلى حسن ادراكه للأمور .. بأنه ليس معك فكة فعلا .. وإذ به ،كاظما غيظه ، وصابرا عليك ،

يصرخ مفحماً لك، ومبطلا لحجك التعبانة البائسة : هات .. أفك لك يا أستاذ ! ويسقط في يد الأستاذ .. ويشعر انه لو لم يخرج فورا الورقة الكبيرة المطلوب فكها سيحدث مالا يحمد عقباه بالانتقال المباشر السريع من حد القوة إلى حد الفعل .. وتعزى نفسك- وأنت تدفع له بالورقة صاغرا- بأنك تصرفت بحكمة وعقل حفاظا على هيبتك وسيارتك وربما حياتك! .. وفي ثوان يخرج من جيبه رزمة ضخمة من أوراق البنكنوت ، هازئا من طرف خفي بتحديك الذى اعتبرته جبارا له بإعطاء ورقة من فئة الخمسين جنيها ، وإذ به في سرعة البرق ،حتى لا تفلت منه السيارة الأخرى الموشكة على الإقلاع ، يعطيك ٤٩ جنيها ، منصرفا عنك بلا لحظة تردد واحدة ، وبدون أن يرمش له جفن ، ودون أن يبدى حتى شيئا من احترام مدعى ، وتأخذ بقية فلوسك ، مقهورا ، مغتاظا ، يائسا ، بائسا ، لاعنا اختيارك للوقوف في الشارع ، توفير لجنيه تدفعه في جراج محترم آمن ظليل ، على اعتبار أن مشوارك لن يستغرق إلا دقائق معدودات !. وتتابعه بنظراتك ، وهو يكرر المسألة مع ضحية أخرى ، وتتعجب لهؤلاء الأنطاع الذين ملأوا شوارع البلد، وهم جميعا في هيئة المصارعين مفتولي العضلات بكامل الصحة والقوة والشباب ، ويستخدمون قوتهم في إرهابه ، أنت وغيرك ،وفي عمل استنطاعي من الدرجة الأولى، غير منتج ، ولا معنى له بالمرة ، فأنت لست بعاجز عن أن تقف وتقلع في شوارع الحكومة لوحدك ! .. وتعجب كيف للحكومة ، ولوزارة الداخلية ، تطلق يد هؤلاء الأنطاع وأمثالهم ، في فرض (الفردة) المقنعة على الناس ،وتشعر أيضا ، أنك تدفع ما تدفعه في معظم الأحيان! لا لقيامه بخدمة لك -حقيقية أو مدعاة -وإنما لدفع شره ، وشراء أذاه ، ودرء عنفه المستتر عن أن يتوجه إلى سيارتك في غيابك بالتخريب انتقاما منك (لسبب لا تدريه!) .. ويزداد عجبك حينما تلاحظ أن بعض هؤلاء الأنطاع الآن ، يضعون ترخيصا نحاسيا يلمع في أشعة الشمس من البلدية أو المحافظة- الله أعلم- يعطى لعملهم(المتنطع أصلا) صفة رسمية ! .. وذلك لأن هناك(متنطعاً) آخر- موظفا هذه المرة- يجلس على مكتب أو خزينة حكومية،، يتقاضى من هذا الشخص الطفيلي صاحب العمل يجلس على مكتب أو خزينة حكومية، يتقاضى من هذا الشخص الطفيلي صاحب العمل- أقصد اللاعمل- الطفيلي جزءا من إيراده السافل الطفيلي ، تحت مسمى ضريبة طفيلية ، يتقاضاها النطع الموظف من النطع الشوارعي من قفا ضحايا النطاعة المواطنين المغلوبين على أمرهم ، دون أن يسأل نفسه هذا الموظف -كبير كان أو صغيرا- هل هذا يحق له ؟ .. هل هذا تصرف مشروع أصلا؟ .. وياللعجب العجاب من بلد تمنح الشرعية القانونية ،والشكل الرسمي ،والاعتبار الحكومي ، لما هو غير مشروع فعلا ، لأنه لا يخرج -في جوهره -عن كونه نطاعة وبلطجة وبجاحة ، بالقوة وبالفعل معا!.

ماجد يوسف

جرّ شَكَل

لا جائع ولا أمى

. قالت لى صديقتى المدرسة الشابة فى إحدى مدارس «امبابة» الابتدائية إنها تعجز عن مساعدة الأطفال المكدسين فى الفصل على الاستيعاب لأن الكثيرين منهم يأتون إلى المدرسة دون إفطار ، وتبدو على وجوههم علامات سوء التغذية ، وينام بعضهم فى الفصل خاصة فى الشتاء عاجزين عن التركيز.

تذكرت ما كان «أمين فهيم» رئيس جمعية الصعيد للتربية قد قاله فى حوار مع راديو لندن حول دور الجمعيات الأهلية .. قال :إن الفقر فى صعيد مصر أخطر مما يتصور أحد .. ونحن فى «جمعية الصعيد» نتعامل مع عائلات ترسل الأبناء بالدور إلى المدرسة إذ ليس لديهم سوى حذاء واحد ، ويتناول بعض الأطفال إفطارهم بالدور أيضا من يفطر اليوم لا يفطر فى الغد..

كنت قد نسيت ، وتذكرت وصديقتى تحكى أن امبابة قريبة جدا من العاصمة وذات مساء أخذت أقلب الصفحات الداخلية لجريدة فقرأت أن مناقشات المجلس المحلى لمحافظة القليوبية - وهى بدورها قريبة جدا من القاهرة- كشفت عن تدهور العملية التعليمية فى المحافظة وتعانى مدارسها فى القرى والمراكز العجز الصارخ فى مدرسى اللغة الانجليزية والعربية والرياضيات ، وزيادة الكثافة العددية للطلاب فى الفصول مما يؤثر على درجة استيعابهم ، إضافة إلى تكدس أجهزة الكمبيوتر فى مخازن المدارس دون فائدة كذلك عدم الانتهاء من ترميم بعض المدارس. وجاءتنى« صابحة » من حلوان تحمل شكوى تريد أن أنشرها فى الجريدة. ابنها طالبة فى إحدى

الثانويات الصناعية رفضت إدارة المدرسة أن تسمح له بالانتظام فى الدراسة لأنه لم يسدد مائتى جنيه مصروفات العام بل ورفضت الإدارة أن تقسط المبلغ على مدى العام.

أما أوجاع «حميدة» التى خرج ابناها «محمد و«محمود» من المدرسة لأسباب مختلفة رغم الوساطات وأشكال الرجاء فلا تزال حية فى الذاكرة لأنها تزورنى بين الحين والآخر باحثة عن عمل لها وعن سكن آدمى لها وعن بصيص أمل.

هؤلاء الأبناء والبنات هم بعض من حلمت طيلة عمرى بأن أكتب لهم عن وطن جديد حر. عن شعب سعيد تتفتح كل قدراته ويستطيع كل فرد فيه أن يسيطر على مصيره ويصل إلى أبعد ما يمكن أن تحمله إليه طاقاته وأحلامه، وها هم عاجزون عن القراءة وأنا أحلم نيابة عنهم فماذا أفعل الآن؟ ولمن أكتب؟ وما جدوى الكتابة؟.

هل كان صلاح جاهين مثيرا للسخرية حين قال: أحلم بتماثيل رخام ع الترعة وأوبرا» وهل كانت دعوة طه حسين» إلى تعليم مجانى فى كل المراحل مع مكافآت ووجبات لكل التلاميذ مجرد رؤية لمفكر رومانسى؟ أخذت أنا أنتقد دعوته قائلة إنه يتصور أن المجتمع سوف يتغير إلى الأفضل لو وجد من ينفذ برنامجه للتعليم وذلك دون أن يضع برنامجا أشمل لاعادة توزيع الثروة فى البلاد..

والآن وقد تمت بالفعل عملية وحشية لإعادة توزيع الثروة حتى ازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا منذا سوف يكون بوسعه أن يفرض على التحالف الطبقى الحاكم مضاعفة ميزانية التعليم مرات ومرات وإقرار مجانيته الفعلية وإلزاميته سوى حركة شعبية متنامية وديمقراطية تضم بين جناحيها كل هؤلاء فأكتب من أجلها وأحلم بعالم جديد تبنيه ليس فيه جائع ولا أمى.

وحتى لو بقيت هذه الحركة جنينا يكبر على مهل وينضج فى الألم العظيم خارجا من الحصار والعنف المادى والرمزى فإننى أمنحها قلبى .. وأقول مع محمود درويش دون أعرف من هم الذين قمت بجر شكلهم:« هل يعرف البوليس أين ستحمل الأرض الصغيرة بالرياح المقبلة».

فريدة النقاش

جر شكل

تحية .. بنت البلد

١

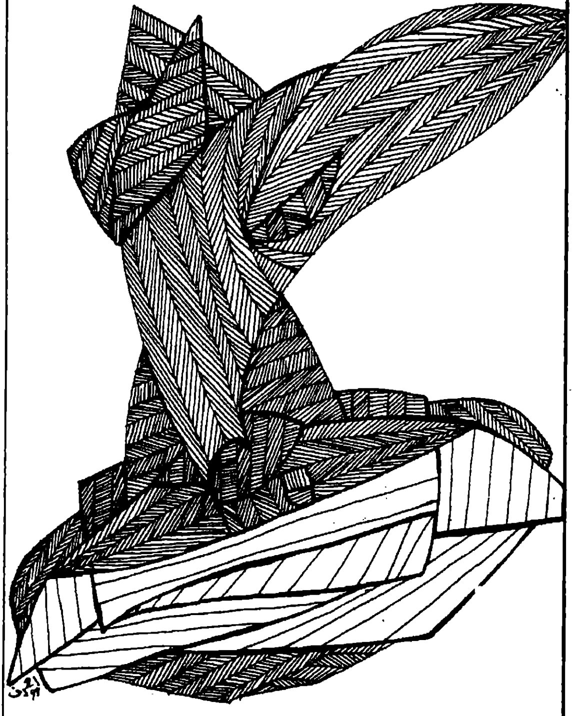
أجمل ما فيها أنها (بنت بلد).

بنت بلد » بكل ما كان يشير إليه هذا التعبير من معان وقيم اجتماعية وخصال شخصية .ففى الوعى الشعبى العام كان هذا التعبير دلالة موجزة على صفات وقيم الشهامة ،والغيرية والجسارة والاعتداد بالنفس .وكلها صفات إلى جانب وعيها الفطرى ، استندت عليها الفتاة الصغيرة (بدوية محمد كريم) منذ خرجت من مدينة الاسماعيليةولم يتجاوز عمرها الرابعة عشرة ، إلى عالم القاهرة الواسع بكل ما يموج به من بشر وصراعات وأحداث.

ولولا هذه الصفات لما تمكنت من مواجهة تحدى وجودها الإنسانى كأنثى ناضجة مستقلة وفنانة مبدعة ، ولربما انتهى أمرها سريعا إلى متسولة بائسة ، لكنها استطاعت أن تحفظ لنفسها مكانتها وجدارتها وأن تجعل اسمها «تحية كاريوكا » علما لأكثر من ستين عاماً.

٢

ولدت «بدوية » أو تحية- كما أصبحت تعرف فيما بعد- عام ١٩٢٠ ، لأب تاجر لكنه مزواج مسرف مات مفلسا ،وكان على ابنته الصغيرة أن تتجرع الفقر وتسلط الأخوة الذكور . ومقاومة أخيها الأكبر لحلمها أن تكون مثل جارتهم (سعاد محاسن) راقصة شرقية . وإزاء رفضه العنيف الذى وصل حد



حلاقة شعر رأسها ، فرت إلى القاهرة تبحث عن جارتها . ولصغر سنها عملت كمبارس لفترة بصالة « رتيبة وإنصاف » بضع سنوات إلى أن قدمتها جارتها إلى الفنانة الأشهر فى زمانها : بديعة مصابنى ،حيث كانت كوكبة النجوم:،بشارة واكيم وفريد الأطرش ومحمد فوزى وعبد المطلب ومحمود الشريف وفتحية أحمد ورسماعيل ياسين ومحمود شكوكو .. وغيرهم.

لكن بديعة لم تتعامل معها كراقصة أو كمبارس ،وإنما كابنه يتيمة تحتاج إلى رعايتها.

إلا أن (بنت البلد) المتمردة سرعان ما ترفض استمرار علاقة العطاء باتجاه واحد ومشاعر الإحسان والعطف التى تحاصرها بها بديعة ، فتسعى إلى مدرب الفرقة ليدربها سراً بعيدا عن عين المعلمة .وتشترى لنفسها بدلة رقص لتفاجهئا وهى ترقص منفردة .. رقصا آثار إعجاب الجمهور كما آثار غيرة راقصة الفرقة الأولى فى ذلك الوقت (حورية محمد) . وربما آثار مشاعر التحدى لدى راعيتها الأكبر ، فرفضت علاقة الندية التى أرادت الفتاة الصغيرة أن تفرضها عليها. فحرمت عليها الرقص.

واللافت للانتباه هو تفسير «تحية كاريوكا» بعد سنوات طويلة لهذا الموقف وبعد أن حققت نجاحا مدويا ، فهى لا تحمل إلا مشاعر الامتنان لمعلمتها وتلتمس لها العذر فتقول بتواضع بنت البلد:

«-كانت تريد أن تعلمنى أن النجاح لا يأتى بسهولة وكانت تخاف علىّ من الغرور واندفاع الشباب» .

وقد يكون تفسير بنت البلد أكثر صوابا منا ، إذ قررت بديعة مصابنى أن تخص «تحية» برقصة خاصة رأتها فى فيلم «الوصول إلى ريو» فكلفت مدرب الفرقة (إيزاك ديكسون) أن يدرب تحية عليها ويعلمها كيف ترقص مثلما رقصت (جنجر روجرز) في الفيلم على أنغام الرومبا . ونجحت تحية فى أداء رقصة«الكاريوكا» حتى التصق بها اسمها وصارت تعرف منذ عام ١٩٣٩ باسم تحية كاريوكا.

رأت تحية فى الرقص الشرقى فناً جميلا أحبته وسعت إلى امتلاك أدواته وأسراره لاجادته ولتطويره كفن تعبيرى .

وكان ذلك تحديا جديدا لها مع مجتمع يضع الراقصة فى مرتبة الجوارى والمحظيات . ويتخذ موقفا ملتبسا من هذا الفن، يشوبه الغموض والتناقض

ما بين الاحتياج إليه والاعجاب به سراً ،وإنكاره ورفضه علنا.
وهو موقف يشبه ما تعرضت له كل الفنون الشعبية لعهود طويلة.

٢

قبل طه حسين لم يكن أحد من جماعة المتعلمين يكترث بما يتداوله العامة من حكايات وأغانٍ وأقوال تجرى على ألسنتهم مجرى الحكمة والقانون .وكان الظن أن هؤلاء الاميين غارقون فى بحر من الجهالة والتخلف . واختلط عند هؤلاء المتعلمين مفهوم الثقافة بمفاهيم التحضر والمعرفة لأبجديات عربية ولاتينية يرطنون ببعض كلماتها كطلاسم لا يعرف غيرهم معانيها ،فأستاثروا لأنفسهم بلقب(المثقفون) . ثم كرست الملابسات التاريخية التى صاحبت الاحتلال الأجنبى والتفوق المادى والتكنولوجى الأوروبى تعميق الهوة التى قامت بين جماعة المثقفين وغيرهم من أبناء شعبهم الذين بقى كل ما يقولونه أو يفعلونه موصوما بالتخلف.

وحده طه حسين الذى أدرك أن للشعب المصرى ثقافته (المختلفة) لا (المتخلفة) ،وحين كشف عما تحويه تلك الثقافة الشفاهية من فنون الأدب وسحر البيان وبلاغة التعبير ، ثم قاد تلاميذه إلى نفض الغبار عن تراث الحكايات والسير والأمثال والأغانى الشعبية ، وبفضل بصيرته نجحت سهير القلماوى وعبد الحميد يونس ورشدى صالح فى رد الاعتبار إلى الأدب الشعبى.

ثم تواصل العمل العلمى بجهود الأجيال التالية من الباحثين فى الكَشف عن جوانب أخرى من كنوز الفن الشعبى شملت فنون الأداء التعبيرى وصور الثقافة المادية والعمارة الشعبية والعادات والتقاليد . وتدعمت هذه الدراسات بفضل مناخ المد الوطنى والقومى الذى رافق ثورة يوليو ١٩٥٢ ليصبح لتلك الدراسات علم يجمعها هو (الفلكلور) أو التراث الشعبى الذى أصبح محل عناية أكثر من جهة رسمية وعلمية.

غير أن هذه الجهود لم تفلح- حتى الآن- فى تغيير الموقف العام للمثقفين أو المتعلمين تغييرا شاملا فى نظرتهم إلى ثقافتنا الشعبية . فما زالت مشاعر الإنكار أو الاستعلاء قائمة بينهم تجاه بعض صور وعناصر الثقافة الشعبية.

أما(الرقص الشرقي »)فحاله أسوأ . إذ يلقى الإهمال والإنكار ليس فقط من المتعلمين بل أيضا من باحثى علم الفلكلور أنفسهم . الذين لم يجدوا له حتى الآن مكانا فى تصنيفاتهم العلمية للثقافة الشعبية . ويترفعون عن دراسته أو حتى الحديث عنه إذ هو مختلط عندهم بمفهوم (الفعل الفاضح) . ويرى بعض خبراء الرقص أنه مجرد حركات لاستثشارة الغرائز بهز البطن والأرداف تخلو من أية دلالة تعبيرية ،وغير قابلة للتطور والارتقاء لتبلغ ما بلغه فن الباليه.

والملاحظ أن هذا المنطق يخلط بين المعايير العلمية أو الفنية والأحكام الأخلاقية فى رؤيته للرقص الشرقى . .والأحكام الأخلاقية قد تفسر الموقف العام من هذا الفن ،وهى كما نعلم أحكام نسبية ومتغيرة لكنها لا تصلح لبناء موقف نقدى صحيح من أي عمل فنى . وهى قد تفسر اعراض المؤسسات الرسمية عن دراسته وإحجام الجانب الأعظم من الفتيات عن اتخاذه مهنة لهن بينما تقبل فتيات أخريات من روسيا وأوروبا على التدريب . عليه والعمل به عندنا . لكن المعايير الأخلاقية وحدها لا تفسر بقاء هذا اللون من الرقص حتى الآن . أما التقييم الفنى له فما زال بعيدا عن اهتمامات الجميع.

وقد لا يكون لهذا الفن مكان بين الفنون الشعبية أو الرسمية . لكن استمرار المشاهدين فى الاقبال عليه يدعو للسؤال عن معنى هذا الاستمرار الطويل. فهل له ضرورة اجتماعية أو وظيفة حيوية تدفع إلى استمراره فى حياتنا ؟ .

هذا هو السؤال الغائب الذى لم يطرحه أحد- فى حدود علمى -حتى الآن . وإن كان أديبنا الكبير نجيب محفوظ قد اقترب منه فى ثلاثيته الكبيرة عند تعرضه للعلاقة بين السيد أحمد عبد الجواد ورفاقه مع زبيدة العالمة وتلميذاتها ، فلم يكن الجنس محوراً لهذه العلاقة التى جمعت مجموعة من الرجال المتزوجين فى مسكن (العالمة) التى لم يقدمها الأديب فى أى موقف يمكن وصفه بالعهر . كانت هذه العلاقة كما بين لنا نجيب محفوظ تمثل « محطة لالتقاط الأنفاس » أو ثغره فى جدران نظام سياسى واجتماعى قائم على التسلط والقهر ،وبفضلها يمكن للأفراد احتمال الضغوط المفروضة عليهم يوميا والقيام بأدوارهم الاجتماعية.

ربما يكون المجتمع قد اخترع مهنة الراقصة الشرقية لينفث الأفراد عن ضغوطهم . ولتصبح الراقصة فى حياة كل منهم هى المرأة الأخرى التى تقدم إليه ما لا تقدمه الأم أو الزوجة . وأحيانا يقع الخلط بين دور كل من (الراقصة) و(العاهرة) بسبب النظرة الاجتماعية الغالبة للعرى وملابس الراقصة التى تكشف عن أجزاء من جسمها . وربما أيضا لبعض الحركات والاشارات المبتذلة التى تقوم بها بعض الراقصات ، إلا أن أداء تحية كاريوكا وراقصات أخريات كان يخلو تماما من هذا الابتذال ، وأظن أن هذا هو الخط الفاصل .فالعرى بحد ذاته ليس هو الفيصل . إنك تشاهد لوحة عارية لفنان مثل مايكل انجلو وغيره من الفنانين فتشعر بسمو وجدانى ومتعة فنية خالصة بينما تشعر بالابتذال فى صورة فوتوغرافية أخرى .. الجسم العارى لا يثير فى المحقق أو الطبيب أو دارس الفن شعورا بالابتذال ولا يثير فى أحد منهم غرائزه الجنسية .بينما قد تبدو امرأة أو رجلا غاية فى الابتذال وكل منهما فى كامل ثيابه.

فقط .. الأداء وما يضفيه من معان هو الفيصل ،وكانت تحية كاريوكا فى أدائها ورقصها فنانة بحق ، يتسق أداؤها الفنى مع الحالة الثقافية والتيارات الفنية المعاصرة لها.

٤

قبل أن تكشف تحية كاريوكا عن ملامح جسمها ،كان محمود سعيد مفتونا فى لوحاته بما يشيعه الجسد الأنثوى من طاقة متدفقة بحب الحياة .وكان محمود مختار مشغولا بترويض الصخر . ليكتسب الاستدارة وانحناءات الخطوط والكتل فى جسم الفلاحة المصرية وحاملات الجرار والخماسين . وتجاسر بيرم التونسى فرأى فى فتنة الجسد دليل إعجاز الخالق ومدخلا للإيمان بقدراته فخاطبه قائلا:

ولك قوالب فى الأجسام
غلب الرسام
يقلدك بحجر ورخام
يلقاك أشطر.

أما تحية كاريوكا فتقول : «أنا أعتبر أن المناخ الفكرى والثقافى الذى

تفتح عليه عقلى بفضل مساعدة سليمان نجيب واتصالى بطبقات متفاوتة من البشر هو الذى فجر روح الثورة فى أعماقى وجعل اهتماماتى تتجاوز الشكليات والقشور التى تبهر النساء إلى ما هو أهم وأعمق».

كان سليمان نجيب هو الذى قادها إلى عالم أرحب فيه الشاعر عزيز أباظة والكاتب محمد التابعى وأحمد حسنين وأسمهان ومحمد عبد الوهاب وغيرهم عندما كان يصحبها أسبوعيا إلى الأمسيات الثقافية والشعرية التى كانت تعقد بالنادى الأهلى . واستطاعت «بنت البلد» بذكائها أن تنضج وعيها الفطرى بأبعاد إنسانية ووطنية أعمق . انعكست على أدائها الفنى ،كما انعكست على مواقفها العامة.

وقد نرى ذلك فى بعض سمات آدائها الفنى القائم على الحركة الهادئة البطيئة فى حيز محدود المساحة ،تعيد بتحريك ذراعيها إعادة التشكيل فى تكوينات أو موتيفات متكررة شيئا يشبه الايقاع المتكرر للوحدات الزخرفية وتفعيلات بحور الشعر.

وما كانت (بنت البلد) تشعر بأن أنوثتها شئ منكر ، أو نقيصه ، بل كانت فرحة بهذه الأنوثة فتكشف بحركاتها عن شاعرية الجسم الجميل بحركات متدفقة هادئة تبعث على الفرح بالحياة وتشيع البهجة فيمن حولها. وبهذه الحركات تدنو وتتباعد فى قربها يشعر المشاهد كأن ثمرة الحياة الناضجة قد دنت منه وحده لكنه سريعا ما ينتبه إلى بعدها الشاهق عنه ، فيرتد إلى عالمه الداخلى . وتلك حالة تناسب المشاعر الرومانسية الشائعة فى زمنها .. زمن بنت البلد.

أحمد عزب العرب

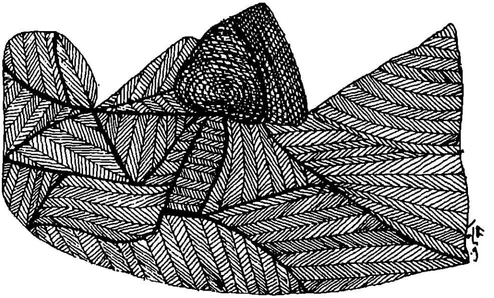
جزّ شَكَل

لعبة الست

أحس الكثيرون منا بالاستغراب حينما وجدوا المفكر العالمي- الفلسطيني الأصل- ما بعد الحداثي، إدوارد سعيد يكتب عن تحية كاريوكا قبل عشر سنوات ، ثم يعود للكتابة عنها منذ أسابيع ، بعد أن انتقلت إلى رحاب السماء. وقد كنت واحداً من هؤلاء المستغربين ، منطلقاً من سؤال يقول: ما الذي يجمع بين الراقصة والمفكر ؟. ثم : أليس الفكر مختصا بالغوص في المسائل العويصة المعقربة ، لا الغوص في الرقص وقلة القيمة؟.

لكن هذا الاستغراب راح يزول ، رويداً رويداً ، بعد قليل من التأمل ، خاصة حينما تذكرت أن رولان بارت كتب عن مادونا ، وأن يوسف إدريس كتب عن الخطيب . وأدركت أن السؤال الصحيح في مثل هذه الحالات ليس: لماذا كتب المفكر أو الأديب عن الراقصة أو المغنية أو اللاعب ؟، بل : ماذا كتب؟ .وبالقراءة المتمهلة لما كتبه هؤلاء عن هؤلاء ستعرف أن كثيراً من الظواهر أو الشخصيات أو الحالات التي نعتبرها- نحن أهل الثقافة المحترمة -خارجة عن نطاق عملنا الجاد ، إنما هي ظواهر وشخصيات وحالات تكتنز مجموعة هائلة من الدلالات على الحياة والمجتمع والتطور الثقافي والحضاري .وعلى رأس كل ذلك مثال: تحية كاريوكا.

الراقصة التي انتقلت بالرقص الشرقي من طور بديعة مصابني (يمكن تسميته : الطور التقليدي) إلى طور جديد(يمكن تسميته : الطور الحديث) صارت علامة عليه ، كمدرسة مميزة ،حتى أن فيروز الصغيرة قالت في فيلم « دهب » : «طبل لي وشد الدرابوكا ،وارقص لك فشرت كاريوكا » .وهي الفنانة التي ساعدت حركة المقاومة الشعبية في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات (وهي الفترة نفسها التي انتقل فيها الشعر من طوره التقليدي العمودي إلى طوره الحديث الحر- لاحظ المواكبة بين الرقص والشعر) حتى

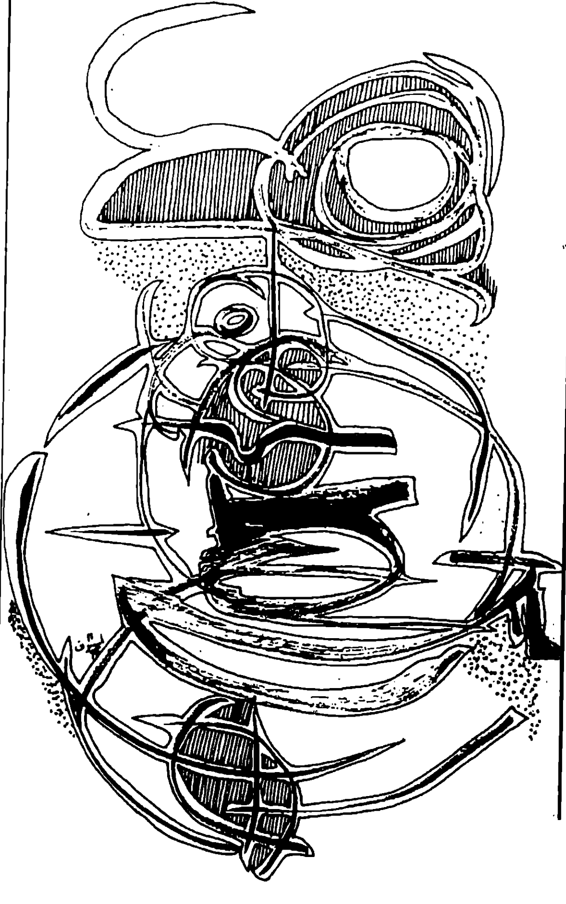


اتهمها البعض بالشيوعيه (مثلما اتهم رواد الشعر الحر) . وهى السيدة التى عاشت حياة طويلة عريضة تنقلت فيها- بخفة الراقصة المبدعة- بين التمثيل والفقر والغنى والرقص والسينما والزيجات والنضال الوطنى والمسرح والتحجب الدينى فى مركب مصرى عجيب.

كاريوكا: الراقصة التى مثلت دور الراقصة فى عنفوان الصعود ،ومثلت دور الراقصة فى شيخوخة الغروب ،مقدمة قوسا باهراً بين «شباب امرأة» حيث الفتنة والإغواء ،وبين «خللى بالك من زوزو» حيث ارتضت أن يصفوها بأنها «شوال المورتا ديللا» وقد أنجزت قوسها الكبير بلا حرج أو مداراة ،وكان بإمكانها أن تتحصن بجملتها الخالدة فى«لعبة الست» : «ما اقدرش ، ما اقدرش».

هكذا تجسد تحية كاريوكا حالة فريدة من حالات تحول التمثيل إلى حقيقة ، وتحول الحقيقة إلى تمثيل ، فلا نعرف الخيط الفاصل فى سيرتها بين الحياة والسيناريو . لكننا حين نتدبر حياتها الكثيفة وموتها وحيدة فقيرة ، لا نستطيع إلا أن نتذكر «الأم شجاعة» لبريخت ، ولا نستطيع إلا أن نتلقى شريط حياتها المتنوع باعتباره «لعبة الست» .وهنا لن يكون غريبا أن يكتب إدوارد سعيد- أستاذ العولمة -عن كاريوكا «العالمة» ،حيث ثمة شعرة تراجيدية رفيعة بين «العولمة» و«العوالم» ، فى عصر يقدس الصورة والعرض ولغة الجسد.

حلمى سالم



مات سارق الفحم

عبد المنعم رمضان

كانا - زوجتى وابنى - واقفين ينتظراننى ، ويتأملان ويخشيان أيضاً أهل الله الجالسين على الأرض بأسمالهم المتسخة وعيونهم ذات البريق الغامض ، ووراءهم أو أمامهم جميعاً كان البحر ، واسكندرية كلها تغتسل فيه ، والشمس تحاول الهبوط أيضاً ، وكنت أفكر فى القطار الذى سيقلنا فى السابعة مساء إلى القاهرة ، وأنه يجب أن أغادر ساحة المسجدين ، مسجد أبى العباس المرسى ، ومسجد البوصيرى ، ولاأعرف لماذا شممت رائحة بخور ظننتها تهب من خلوة بعيدة جداً ، خلوة سيدى الشيخ الأكبر ، ولاأعرف لماذا سعيت خلف الرائحة ، أستزيد وأقترب وأرجو أن أرسو ، والرائحة تتدانى جزئياتها وتتلاحم ، وتستقر عند مكان قرب البحر ، أبلغه ، فأجدها قد أصبحت على هيئة شيخ فى الثمانين ، له لحية طويلة وهشة ، وعلى جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء ، لها نور يتلألأ.

" السلام عليكم " واستندت على درابزين الشاطئ ، ووقفت أمامه ، وقبل أن يرفع رأسه ، وينظر فى وجهى ، سألنى : من القاهرة أنت ؟

قلت : نعم

سألنى : هل تعرف زقاق القناديل؟

أجبته :لا

سكت طويلا ، فتهيبت وتهيئات للانصراف ، وأنا أوشك أن أفعل ، فاجأنى :

كنت سأذهب إلى زقاق القناديل ، إلى أصحاب خلصاء هناك أبو العباس الحريرى الإمام ، وأخوه محمد الخياط ، وعبد الله الموروري ، ومحمد الهاشمى اليشكرى ، ومحمد بن ابى الفضل ، هل تعرف ، إننى أفر من قبرى ، منذ أيام وفد مشيعون ورجال حكم ، ولحادون حفروا وأدخلوا رجلاً عراقياً سمعتهم يندبونه ويرثونه ، مات عبد الوهاب البياتى ، قلت لنفسى بعد أن ينصرف المشيعون واللحادون سأتعرف عليه وأرحب به ، وأعينه على التآلف والاعتياد ، إن كل إنسان هو ابن الأرض كلها ، ولاتهمنى جنسيته ، ولكن هل تعرف أننى قابلت فى بغداد الشيخ شهاب الدين عمر السهروردى صاحب عوارف المعارف ، نظرنا كل منا إلى الآخر وقتاً طويلاً كنا صامتين جداً ، وانفصلنا دون أن ينصرف الصمت ، وبعد زمن أبلغنى تلاميذه أنه قال لهم : إن ابن عربى بحر الحقائق ، وفى مكة كانت عين الشمس والبهاء ، ست المملوكين ، وست الدنيا ، النظام بنت مكين الدين أبى شجاع ، والتى تجلت دائماً ساحرة الطرف ، عراقية الظرف ، أبهجتنى النظام، وشعشعت ، فأوحت بكتاب هو قصائد غزلية موجهة إليها فى الظاهر ، جعلت عنوانه " ترجمان الأشواق " وخارج الموصل ، وبالتحديد فى بستان على بن عبد الله بن جامع ، تلقيت لثالث مرة ، خرقة الخضر ، أشهد وأعترف أننى تلقيتها من يدى ابن جامع الذى تلقاها مباشرة من يدى الخضر نفسه ، وحرصت فى أحوالى ومقاماتى أن أضع العراق فى عيون أحبابى ، وأن أضع أحبابى فى عيونى ، ونتوكل على الله ، ولكن عندما وفد اللحادون ، وحفروا وأدخلوا رجلا عراقيا يقال له : عبد الوهاب البياتى ، قلت فلأتذكر موتى ، كانت الليلة التى قبضت فيها ، ليلة جمعة ، حولى أهلى وأصحابى ، ودمشق النائمة تتأرجح بين آخر الخريف وأول الشتاء ، وابن الزكى لاينفد حياؤه ولايستنفد كرمه ، وبعد أن زارنى الملاك الضائع وانطلقنا معاً ، تركنا خلفنا حجرتى وعصاى وجلبابى وجسمى ، لم يعترض سبيلى أحد ، فقط قام ابن الزكى مع السيدين ابن عبد الخالق وابن النحاس بواجبات الضيافة ، وحملونى إلى خارج دمشق حيث القرية القائمة على سفح جبل قاسيون ، قرية الصالحية ، همس أحدهم ، لقد زارها الأنبياء جميعاً ، ونظفوها ، خصوصاً الخضر

غسلها بدموعه ، وبينا أتذكر موتى ، إذا بالعراقى الوافد يستيقظ وينهض ويخبط الأرض بقدميه وينشد كأنه شاعر:

النهر للمنبع لايعود

النهر فى غربته يكتسح السدود

قلت: لعل لوثة أصابت الرجل وأذهلته ، لابد أن خياله مازال يلتصق بالتراب والغبار وصناديق الوقت ، فلنتركه ، ولننشغل عن عباراته البرانية ، وننتظر ، بعد قليل سمعت فاصل شهيق ، وفاصل زفير وبكاءً ، وسمعت كلاماً من النسيج نفسه ، كلاماً برانياً ، كان كأنه يعرفنى ، ويختال علىَّ ، ويتمادى ، سمعته يقول: أتيت لأطردك فأنت أيضا سارق نار ، لم أفهم معنى قوله ، استمعت بجد خالص إلى صراخه :

الفنان الثورى إذن هو تجسيد لإرادة الكائنات المتناهية المكبوتة المضطهدة ، وامتداد لها على مدى التاريخ عبر لحظات التجدد إلى ذات أكثر اكتمالاً ، هنا نصل إلى أن الطبيعة بالرغم من تآكلها وميكانيكية قوانينها ، تتفوق على الكائن المتناهى ، وأنها تستطيع أن تسحقه وتعيده إلى صدرها تراباً ، وعظاماً نخرة ، ولكن المتناهى هو الذى يحول أحلام الفنانين والثوريين والفلاسفة إلى واقع وعمل ، وفى ذلك سر عظمته ، الفنان الثورى ، الفنان الثورى.

انتهى كلام العراقى الجديد الوافد ، لم أستطع أن أحتمل المزيد من رطانته ، فاستوحشت ، وخرجت أبحث عن أصحابى وأستشيرهم ، وأبحث عن أصحابه وأسألهم عنه ، والحمد لله.

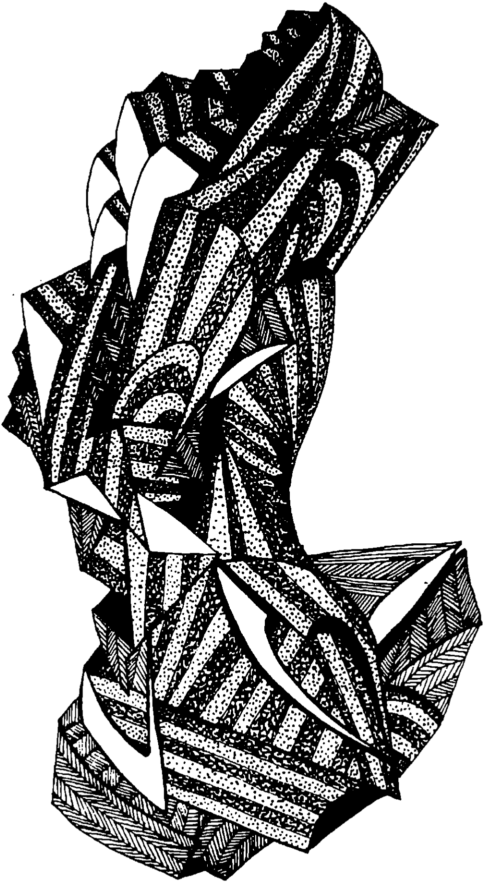
كان وجه ابن عربى فى هذه الأثناء ، قد أصبح وجه شيخ فى الثمانين حقيقة ، عرفت اسمه من روحه وحكاياته ، وأشفقت عليه ، وقلت له : ستسمعنى طويلاً ياأبت

انفعل وأمرنى : لاتقلها ثانية ، هل تذكر ابنتى زينب هى فقط المسموح لها أن تصبح : هذا أبى هذا أبى ، وأن ترمى بنفسها فى أحضانى وتضحك : ياأبت ياأبت ، لذا لاتقلها ثانية والآن ، أين تفكر أن تذهب ، هل نذهب إلى قلعة قايتباى؟

قلت له : نذهب إلى القاهرة

قال : بالقطار التوربينى ، الأسبانى

عبس وقال: لن أجد محمد الحصار فى انتظارى ولن أجد أبا الحسن البجائى اسمعْ، قابلنى عند أقدام الجبل قرب ضريح ومقام ابن الفارض ، هيا ، قم ناولنى العصا ،



وقبل أن نفترق سأروى لك شيئاً آخر عن بغداد ، رأيت فى واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة ، أنه قد فتحت أبواب السماء ، ونزلت خزائن المكر الإلهى مثل المطر العام ، وسمعت ملكاً يقول: ماذا نزل عليه من المكر؟ فاستيقظت مرعوباً ، ونظرت فى السلامة من ذلك ، فلم أجدها إلا فى العلم بالميزان المشروع ، فمن أراد الله به خيراً وعصمة من غوائل المكر ، فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله .

ابتسم الشيخ ، كان يضغط كفى ويوصينى : حدثنى عن عبد الوهاب أثناء سفرك ، لاتخف سأسمعك ، هل هناك من سيسافر معك؟ أشرت باصبعى إلى الجهة الأخرى حيث تقف زوجتى وابنى ، نظر

وقال : من هذان ؟

قلت: سامية وأحمد ، العفو زوجتى وابنى

قال: أبشر، وجه زوجتك يذكر بوجه النظام ويذكر بوجه زينب ابنتى ، هل يمكن أن تدلنى على أسماء النساء فى زمنكم قلت : خالدة سعيد ، مها بيرقدار ، فريال غزول حنان الشيخ ، ليلى بعبلكى ، هدى بركات ، غادة السمان ، فيروز ، سعاد حسنى ، ميرفت أمين ، درية شرف الدين ، ألف الروبى ، نجاة الصغيرة ، فاطمة المرنيسى ، أناييس نين ، سيمون دى بوفوار ، كيم نوفاك ، اليزابيث تايلور ، فرجينيا وولف ، مى عصوب ، أسماء عبد الوهاب البياتى.

قال: تمهل تمهل ، يكفينى ذلك ، هه ، فى القطار احك لزوجتك عن عبد الوهاب البياتى ، وبهذا تخدع الجمهور العام – ولايظنونك معتوهاً يكلم نفسه ، وثق أننى سأسمعك.

أعطانى ظهره ، كنت أخشى من يقظته ، وأخشى من غفلتى ، وأفكر كيف أغسل اللغة من رؤاها وأدرانها ، وهل ستفسد ، وأين أتخلص من ماء الغسل ، وأفكر هل استقر عبد الوهاب البياتى بجوار الشيخ ليجبره على الرحيل ، والبحث عن منفى.

فى القطار ، جلست جنب النافذة ، وحشرت البياتى فى جماعات غفيرة من قومه ، ليصبح صغيراً ، وأحتمله، وعلى حافة صحيفة لأهرام المفرودة أمامى بدأت أدوّن لأسئلة اللازمة ، خيِّل لى أن الشيخ يريد تقريراً ، ويجب أن أصوغه بموضوعية وحذق ، يمكن إذن أن أطلب من شبح عبد الوهاب البياتى أن يجلس على المقعد المواجه لى بدلاً من ذلك الشخص ، وأن أسأله :

١- عبد الوهاب من أنت ؟ وأين ولدت ومتى ؟

٢- ماذا تعمل؟

٣- كيف تقرأ شعرك؟

٤- لماذا أنت متجهم جداً؟

٥- لماذا أنت نمام لهذه الدرجة؟

٦- هل تحب الروايات؟

٧- أتظن أنك شاعر فرد؟

٨- متى اخترت المنافى لتستفيد منها؟

٩- هل تعرف القتلة الحقيقيين للسياب؟

١٠- وهل استخدمك بعضهم؟

١١- من هم إذا كان الأمر كذلك؟

١٢- عندما تنصت من بعيد إلى وطنك ماذا تسمع؟

١٣- صحيح أنك لاتسمع سوى صوت الحاكم؟

١٤- هل تزور الأضرحة؟

١٥- أرجوك أشح بوجهك عنى وأنت تجيب؟

١٦- هل تذكر مقدمة عبد الرحمن الشرقاوى المبتذلة لديوانك المجد للأطفال والزيتون؟

١٧- ماذا فعلت بها فيما بعد؟

١٨- لماذا توقفوا عن إخراجها فى المناسبات؟

١٩- سمعت أنك مصاب بعقدة النقص؟

٢٠- هل ضايقتك؟

٢١- قبل أن تنصرف اعطنى كتبى ، أرجوك وهدونى

حين تعب شبح عبد الوهاب وذهب ، قلت لنفسى : كان من الخطأ أن أستدعيه لأن الشيخ لايحب هذه الطريقة ، ولايحب خضوعى لمناطقة الأدب والفن والسياسة إنه يريدنى أن أفتح قلبى ، وأن أحذر الكلام عن تعاستى أو سعادتى ، ومن الأفضل ألا أفكر ، تنحنحت ، ونظرت إلى زوجتى ، كانت مسترخية ، نبهتها ، فانتبهت ، كنت أعلم أنها لن تقاطعنى قلت لها بعد أن طويت الصحيفة وأهملتها :

للعراق قامة تشبه قامات النخيل ، حيث جذع كل نخلة هو ظل لقتيل أو شهيد أو منتدب لموت ، وأغلب نخيل العراق كلما انسدل الليل بكى ، وفى الصباح تشرق الشمس ، وتغطس رأسها فى البحيرة ، وترفعها ، وترتدى المريلة ، وتمسك مكنستها ومنديلها وفوطتها ، وتكنس قبل أن تمسح فتات الدموع التائهة ثم تختفى ، يقولون إنها تبكى فى سريرها ، ويقولون إنها تغيب عن الوعى ، ويقولون إنها تتذكر ، ونخيل العراق يرتفع فيسمو ويشف ويعرف مفقوديه ، يعرف علياً وفاطمة وزينب والحسن

والحسين وزيداً وجعفر الصادق ومحمد الباقر والشريف الرضى والرصافى والزهاوى وعلى الوردى ويعرف - قلتها على استحياء - زيارات الشيخ الأكبر محيى الدين ، ويعرف مستبدين ومخلصين وخونة ، ويعرف أصدقائى وخصومى ، ويعرف سماء بابل وألواح آشور وقلق دجلة ، ويعرف الفرات . أذكر أن البعض الطيب من أصدقائى ومنهم عباس بيضون ، يرون أنه تجمعنى مع الشعر العراقى صلة قرابة حميمة لايمكن إغفالها ، وأنه فى السنوات الأخيرة انفتحت فوهات القبور فى أنحاء الأرض كلها لتستقبل أحلام العراقيين ، ثم لتستقبل أجسادهم جسداً جسداً ، مما جعل صلة القرابة الجامعة تستحيل إلى قنطرة تصل فراغين ، قنطرة تئز أخشابها فتنطلق تحتها الفئران فى كل اتجاه ، أذكر أن بلند الحيدرى غافلنى ومر على القنطرة ، وهبط ودخل قبره ، ولأننى أحببته نزفت جزءاً من محبتى على الأوراق ورشقتها فى الهواء ، وكذا غافلنى الجواهرى رغم سنيه المائه، ومر وهبط ، ودخل قبره وفعلت معه الفعل نفسه ، وغافلنى هادى العلوى الذى بعد ماأدخلوه ، انتحيت وبكيته فى غرفة مغلقة ، ولم أفصح ، ومر المنفيون والبدو والفلاحون ،والعمال والطلبة والنسوة والأطفال ، مروا وهبطوا ودخلوا ، وهاهو عبد الوهاب البياتى يحمل جسده ، ويدخل ، كان عبد الوهاب رفيق المائدة الأكثر قدرة على الصمت والكلام ، كان هو وحده الذى عرف كل مدينة كما لو أنه عاش فيها طوال عمره ، والذى عرف كل فرد كما لو أنه صاحبه الأول ، والذى عرف الشعر باعتباره سلسلة من الأعمال غير السحرية ، ومع ذلك فان رحيله سيدوم ، وطيفه سيظل على هيئته الرمادية يترجرج ، كأنه يرغب فى الطيران ، ليس جميلاً أن يظهر الموت هكذا لعبد الوهاب ، فى يديه قفازان ، وجسمه مرشوش بالملح ومسترسل وأسنانه طويلة وحادة وأجنحته قوية ، ولغته واضحة تعتمد على النثر ، وعلى حدود المعنى ، وتفخر بأنها سفينة الطيران الوحيدة ، وقبل أن تزمجر اللغة ، يصعد عبد الوهاب سفينته ، وللمرة الأولى يمشى فى الأعالى ، وللمرة الأولى يصبح المغامر الحائز على حريته ، والذى يقفز من شرفة ذهبية إلى أخرى دون أن يسقط فى الفخ .

كانت عينا زوجتى قد أصبحتا مبلولتين ، تركتها تتحرر قليلاً ، ثم

أكملت: ذات مرة حلم عبد الوهاب حلماً طويلاً، وصحا وهو يمسك طرف خيط آخره مكتوب عليه : الشاعر هو سارق النار، ولم ينتبه عبد الوهاب أنه سيردد في خشوع :

النهر للمنبع لايعود
النهر للمنبع لايعود
النهر للمنبع

وعندها استعار من أسلافه ومعلميه خرقة الصوفية ، وأحب عائشة ، أحبها كثيراً ولبس الخرقة ، فاختفى تحتها ، كانت الخرقة واسعة ، وبمدية حادة شقها ، وقطع جزءاً كبيراً يمتد بالصدفة من القلب إلى الأطراف إلى آخره ، وعندما لاءمته كانت قد أصبحت خرقة فقط ، وقرب فجر كل يوم يستيقظ عبد الوهاب ، يلبس الخرقة فقط ، ويجهز رحلته إلى ينابيع الجحيم ، عله يستطيع أن يسرق النار ، ولأسباب بعضها مجهول وبعضها أرعن كان يذهب إما مبكراً فيسرق بعض الفحم الرطب والنيئ ، أو متأخراً فيسرق بعض الفحم المحروق الخامد ، يقولون بعض الرماد ، وفي حمأة خجله وغضبه صنع عبد الوهاب كومة من اللافتات ، إلى ألبير كامى ، إلى ناظم حكمت ، إلى مالك حداد ، جلال الدين الرومى ، إلى أرنست همنجواى ، إلى شتراوس ، عذاب الحلاج ، محنة أبى العلاء ، قصائد حب الى عشتار ، هبوط أورفيوس ، هكذا قال زرادشت ، إلى سلفادور دالى ،صورة للسهروردى فى شبابه ، عذابات فريد الدين العطار ، تحولات نيتوكريس فى كتاب الموتى ، إلى خورخى بورخيس ، إلى نجيب محفوظ ، إلى يلمازغونيه ، إلى أوكتافيوباث ، إلى بشار كمال ، إلى صلاح جاهين ، عيد الشمس أو تحولات محيى الدين بن عربى ، عن وضاح اليمن ، رسائل إلى الإمام الشافعى ، مرثية إلى اخناتون ، إلى رفائيل البرتى ، قراءة فى كتاب الطواسين للحلاج ، مراثى لوركا ، ديك الجن ، روميات أبى فراس ، موت الاسكندر المقدونى ، فالى طرفة بن العبد ، إلى غابرييل بيرى ، إلى ماوتسى تونج الشاعر ، إلى شارلى شابلن ، إلى فيروز إلخ إلخ

وأخذ بعد أن ينتهى عمله النهارى ، يجلس وفوق رأسه قنديل ويلصق كل لافتة بقصيدة ما ، سأحاول فيما بعد أن أبحث عن مجرى يضم القصيدة واللافتة ، ولن أجد ، وسوف أكتشف بالمصادفة أنها محاولة للانتساب إلى العائلة ، عائلة سارقى النار ، كان حلم عبد الوهاب أكبر من قدرته على الصراخ ، وكانت

محاولاته لاتكف ، ولاتفلح ، لذا أدركت عبد الوهاب بتاريخ الحروب ، حارب الذين سافروا مثله إلى ينابيع الجحيم وبلغوها فى التوقيت الصحيح وسرقوا النار واحترقوا وأضاءوا ، حارب السياب والجواهرى ونزار قبانى وعبد الصبور وأدونيس وأنسى الحاج ، ولم يتعلم اللعبة أبداً ، أن يدفع الباب فيفضى به إلى مدخل كبير فيه رسوم غريبة ينحنى مع المدخل إلى مدخل ثان تختلف رسومه ومساحته ثم إلى ثالث قبل أن يصل إلى الغرفة التى يقصدها ، وفيها طائر صغير إذا لم يفهم لغته سيظن أنه كائن تافه قيل لعبد الوهاب : لكى تصبح سارق نار أصيلاً لابد أن تطير.

فسأل : كيف؟

قيل له : لابد أن تصير خفيفاً بغير مواريث وبغير أملاك.

فسأل : كيف؟

قيل له : هكذا.

فسعى عبد الوهاب وراء هكذا ، استغنى عن أزميل النحات وأعلن أنه لايحتاجه فهو لن ينحت اللغة ، واستغنى عن فرشاة الرسام وأعلن أنه لا يحتاجها فهو لايحب العيون المفتوحة عن آخرها ، واستغنى عن آلة الإسكافى وأعلن أنه لايحتاجها ، واستغنى عن أدوات الموسيقى ، وأعلن أنه سيحتفظ فقط بالطبول لأنها تصلح لمهمته ، ولما خيل له أنه أصبح خفيفاً ، لبس الخرقة ، وتجهز ، ولكنه كالعادة ذهب لاتذكر مبكرا أم متأخرا ، ومنذ ذلك اليوم ، طاشت قدماه وأخذ يتجول فوق الأرض ، فى كل مرة دخل علينا الحجرة ، السياب وأنا ، تركناه وانصرفنا ، ولكنه لاييأس ، فاذا دخل ثانية علينا، الجواهرى وأنا ، تركناه وانصرفنا ، وأيضا لاييأس .

استأذنتنى زوجتى فى الذهاب إلى مكان قضاء الحاجة ، وسألتنى أين هو؟ ودللتها ، ونظرت من خلف الزجاج ، كانت أنوار طنطا تبرق وتلمع ، رأيت الشيخ يمشى فى الهواء وعصاه فى يده ، وخلفه ثلاث نساء ، عرفتهن بالتقريب أولهن زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائى ، وهى امرأة صالحة لها منامات تدل على الطريق ، وبعدها ياسمين المرشانية التى موطنها مرشانة الزيتون من بلاد الأندلس ، امرأة مسنة ، تولاها الله بالتأوه مما تجده فى صدرها من الرد ، لقصورها عن عين الكمال ، فصارت من الأواهات ، بعدها فاطمة القرطبية التى صحبها الشيخ سنتين متتاليتين ، مريدا وخادماً ،

وعايشها عيشة طاهرة فى كوخ من القصب قام ببنائه هكذا فى أشبيليه ، وكان يتدرب على العزلة وعلى قراءة الظواهر العجيبة مثل حضور الجن حينما تدعوهم فاطمة.

فجأة اختفى الشيخ واختفت النساء وظهرت ثانية الأنوار الضعيفة كان القطار قد تجاوز طنطا، وزوجتى قد عادت واستقرت بجانبى وحثتنى على الإكمال ، فقلت : صحيح أننى استربت كثيراً فى شعر عبد الوهاب ، استربت كثيرا فى محبيه الذين كانوا يقفون دائما وراء راية لاتصلح لكى تكون راية الشعر.

آخر مرة رأيت فيها عبد الوهاب كانت خاطفة ، رأيته يجلس فى كافيتريا شيراتون القاهرة ، وحيداً وشيخاً ومهجوراً ، تفاديت أن يرانى ، وتذكرت أننى أواخر الستينات ، أحسست دون وعى» بحمى البياتى وهى تفارق أجساد محمومين كثيرين ، كان بعض زملاء جيلى قد أصيبوا بهذه الحمى ، أصابت حسن طلب وأحمد طه ، فيما بعد زالت عنهما ولم تترك أية اثار ، المهم أن حمّى البياتى تصاعدت سخونتها حتى بلغت أقصى درجات الحرارة قبل هزيمة ١٩٦٧ ، وقبيل أو بعد هزيمة ١٩٦٧ كان بعض اليسار المصرى النشط والمحتفى به فى أروقة النظام ، قد نشر وثيقة من أسوأ وثائقه الأدبية ، كتاباً جامعاً لمقالات مختلفة حول كما أذكر الانسان والقضية فى شعر البياتى ، كانت الحمى تزدهر كأنها العافية الوجوه حمراء وعضلات القلب نابضة ، ولكن الهزيمة أتت وكأنها أول الشفاء من الحمى ، هكذا كان العالم يفور فى إناء عبثى ، وكنت أفور فى الإناء نفسه . فى الدار البيضاء قابلت عبد الوهاب ، وقابلته أيضا فى مراكش ، كان شعره الأبيض الذى يكسوه ناعماً ، كأنه حزن ، ناعماً كأنه فجيعة قاهرة، ومثل أقل الممثلين المسرحيين براعة نجح فى أن يقنعنى أن كل فاتنات المدينة يطاردنه ويراودنه ، وأن عائشة تنتظره فى غرفة عالية ، وفى قصر ، وفى بستان ، نجح فى أن يقنعنى أن دواوينه وأعماله الكاملة تنفذ فور صدورها وأنه بذلك يسبق كل الشعراء العرب ، كنت أعلم أن مراكش مدينة حنون ، وأن أهلها يسمحون للضيوف أن يتمتعوا بحقوق العزاء والسلوى ، وأن يصبحوا أرباب آلهة ، لذا صدقته ، نجح أيضا أن يقنعنى أن المرأة المراكشية الطيبة التى تلازمنى ،

تريدنى ، وأنه يقبل أن يكون الشاهد الوحيد فى زواج على ورقة طلاق ، وأمام أصدقائى حلمى سالم وأمجد ناصر وآخرين ، وكيفما أتفق اندفع عبد الوهاب خلف خيال أدونيس وظل يطارده ، ويلتمس منا المعونة ، كان يلهث ، ويشتم ، ويحتد ، ثم ظن أن خيال أدونيس يسحبه بعيداً فى اتجاه غرفته ، غرفة عبد الوهاب فانصرف.

عبد الوهاب يازوجتى ، نصف قرن من الترويج لرؤية شعرية المؤسف أنها يجب أن تزول ، نصف قرن من الضياع والتشرد والخوف من الشعر ، عبد الوهاب البياتى يحتاج منا الآن إلى دموع أكثر من الدموع ، لأن موته موت مؤكد ، موت أخير.

انتهت حكايتى مع وصول القطار إلى القاهرة ، استعجلت ، وأدخلت زوجتى وابنى التاكسى الذى سيوصلهما إلى البيت ، وفورهما دخلت سيارة أخرى توصلنى إلى أقدام الجبل قرب ضريح ومقام ابن الفارض ، الغريب أننى وجدت الشيخ واقفا ، بمفرده ، عصاه عمودية على الأرض ، قال لى" عرفت مايلزمنى ، سأطلب منك مالن تفعله ، إن ضيوفى الأعزاء الذين يزورونني فى دمشق لاأريدهم أن يعلموا أين ذهبت ، لأننى سأرحل كل يوم إلى مكان أبعد من أقدام الذين يظنون أنهم يكتبون على ألواح الطين ، كل يوم سأدخل خلوة ثانية ، ولن أعانى ظل الوحشة ، لاتزعجهم لأنهم ضيوفى ، ولاتسألهم كيف يُحبس من حلَّ منه اللاهوت فى الناسوت ، لاتسألهم أبداً ، قالها واختفى.

غياب

برومثيوس عصرنا الجديد

عذاب الركابي

١) عبد الوهاب البياتي .. حياةٌ وشعرٌ وحُبٌّ ..!!
يبدّلُ الحياةَ بالشّعر ، والشّعرَ بالحياة ، ومابينَهما الحبُّ الأعظمُ الذى منحَ أصابعَه الودودةَ هذا القدرَ الهائلَ من السِّحر ، فصارَ كلُّ مايمسّهُ البياتى يُصبح شعراً(يشبُّه الملكَ ميداس) حسب تعبير " ماركيز" وهوَ يتحدّثُ عن " نيرودا"!!

٢) عبد الوهاب البياتي .. سَفرٌ دائمٌ ..!!
لأنّهُ فى السّفر يتجدّدُ ، وفى الأمكنة الخضراء الجديدة يلتقطُ مطالعَ قصائده، وربُمًا ينتقى وجهاً سماوياً - امرأةً يعشقُها ويكتب مرارةَ شكواه على ذراعيها ، أو على فمها الكرزىّ يتركُ وصيتَهُ رُبّما هى " لارا" أُخرى ، أو " هند "، أو " خزامى" ..!

٣) عبد الوهاب البياتى .. الشاعرُ الثائرُ أبداً..!!
يفتحُ جسدَهُ الناحلَ لرياحِ التغييرِ وهوَ المؤمنُ بالثورة ، حاملاً وصاياها. وبقلبٍ فولاذى ، وساعدٌ صلبٌ يُساهمُ فى بناء مملكة الإنسان، وهذاماجعلهُ يضعُ أنظمةَ الحكم المتغطرسة والمتجبرة وراءَ ظهره ، مُطلقاً رصاصَ قلبه الموجع على الطّغاة وسارقى الثورات ، ومالئى مدننا الجميلة بالدّخان ، والدماء ، والجثث ، والتراب!

٤) كتابى « صلواتُ العاشق السومرىّ» عن الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتى رغمَ تواضعه ، لم يُرضِ طموحى ومازال الحديث عن شاعرية البياتى وإنسانيته نهراً يتدفّق ، لايعرف التوقف وهوَ الشاعرُ الكبير بقلبه ..، والنّخلةُ الشامخةُ بأغداق الإبداع ، والحبّ ، والوفاء !!

٥) أبداً لم يكن الرهانُ خاسراً على وفاء البياتى - بروميثيوس عصرنا الجديد ، وأكبر شعراء الحداثة ، شاعرِ الإنسانية فقراءَ ، وعشّاقاً ، ومنبوذينَ ، هوَ كلُّ هؤلاء ، فى تقاطيع وجهه يمكنُ أن تقرأ مدى شراسة هذا العالم الجاحد ، ويمكن أن تسمعَ غناءَ عصافيرَ صباحٍ جديد تَعدُ به ملامحُه وأحاديثُه

وقصائده..!

وهو صاحبُ الذاكرة المدهشة ، وصناديق البريد المتعددة في كلّ مكانٍ من العالم حيثُ يتواجدُ الأصدقاءُ الأوفياء ، تحتَ كلّ نجمةٍ غريبةٍ منكسرة،تقولُ : إنّ البياتي الكبيرَ لن ينسى أحداً من أصدقائه ، وأنّ أقفالها لنْ تصدأ ، ومفاتيحها ستظلُّ تصهل بصوتها الصّباحي الملائكيّ مادامَ قلبُ شاعرنا الكبير ينبضُ بالحياة ، والحبّ ، والجنون لعلاقات إنسانية جديدة..!!

٦) وقبلَ أيّام قليلة وصلني كتاب « فتوحات البياتي .. نور الشعر ومرآته » ، وهو بقلم ثمانينَ كاتباً وشاعراً وناقداً ، وقد ضمَّ الكتابُ المقدّمات الجميلة ، والنظرات النقدية الجادة ، وشهادات في شعره ، والذكريات والمواقف ، ثمَّ القصائدَ الرائعةَ المهداة إلى شاعرنا الكبير من مختلف شعراءِ العالم الإنسانيين !!

٧) ماذا أكتبُ عن شاعرنا الكبير ، والكلمات قَدْ غادرتْنا صوبَ بيته المسوّر بالأحلام ، والرؤى ، والأسفار الجميلة؟!! .. ماذا بوسع قلمي أنْ يخطّ ..!؟ ماذا أقولُ بعدَ ثمانين مُبدعاً ، جادت قرائحهم الصافية وأزهرت ورداً وعصافيرَ نادرةَ اللّون والإيقاع وهي تتحدّثُ عن الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي ..!!؟

وبعدَ قراءة متأنية هادفة جعلتُ للكتاب فصولاً وأبواباً يمكنُ أن تمهّدَ الطريق لقارئٍ جادٍ فكانتْ كالآتي :

أ) المقدّمات

يقول د. علي عباس علوان في مُقدمته :« إنّ البياتي قَدْ وصلَ بشعره إلى كلّ أرجاء عالمنا الحديث والمعاصر ، فقد ظلّ يتدفّق منذُ نصف قرن من الزّمن ومازالَ يتدفّق قوياً خصباً مؤثراً يشعلُ حرائق الشّعر في كلّ المناخات وفي كلّ الساحات . اسماً لايُمكن تجاوزهُ أو تخطّيه أو محايدته أو تحجيمه ..» ص ٨.

وكانت تلك المقدمات تؤكّدُ على أصالة البياتي « إنّهُ شاعرٌ أصيلٌ جداً ومتعمّق جداً في الجذور - أنطونيو جالا » ص ١٨ ، وعلى دوره في حركة وهُويّة شعرنا الحديث « إنّها قصيدة ثرية مليئة - عبد الرحمن الربيعي » ص ١٢٥ وأنّهُ مؤسّس مُخلص للحداثة الشعرية العربيّة والعالمية « لأنّ الشعرَ عندَهُ رؤية وإبحارٌ في فضاءات المُطلق والحميمي - حاتم بن عثمان » ص ١٦٢ و« ينبغي ألاّ يستغرب أحدٌ عند قراءة شعره وإيجاد مواقف وشخصيات أسبانية مثل اليكساندري ، ورفائيل ألبرتي ، أو بيكاسو أو لوركا وماشادو - خواكين بنيتو » صـ ١٨٨.

ب) النظرات النقدية :

وقد أكّدَ هؤلاء النقّاد على حُبِّ البياتي للتجديد « لم يكن عبد الوهاب البياتي شاعراً يقفُ به الشّعر عندَ نقطةٍ معينةٍ يتحجّر عندَها ، بل كانَ دائماً

مُبدعاً خلّاقاً متطوّراً .. إنَّ البياتي يتجدّد ويتطوّر مع كلّ ديوان شعري جديد يصدرُ لهُ - د. إحسان عباس » صـ ٥٤ ، وعلى جمال موسيقاه الشعرية التي أثّرت في أجيال عديدة من الشعراء:« إن النغمَ الرقيق حتّى في القصائد السياسية هوَ من أكثر النواحي القريبة إلى قلبي في شعر البياتي - ناظم حكمت » صـ ٢٤ ، وعلى رؤياه الشعرية العظيمة حتّى صارَ نموذجاً للشاعر الرؤيوي بامتياز حسب تعبير د. صلاح فضل صـ ٦٠ ، وعلى ثوريته وإخلاصه لفكرة الثورة: « إنَّ عبد الوهاب البياتي شديد الإخلاص وحتىّ التوحد لفكرة الثورة والتغيير .. وأنّهُ خارج أي تصنيف أيديولوجي ، إنّهُ من حزب الحلاجَ وسبارتاكوس ، وزوربا اليوناني - محموة الريماوي صـ٨٦ ».. وهذا ماجعلَ قصائده :« مناشير تداولناها في أزمنة عديدة - د. عبد الرضا علي صـ١١١ »، وعلى التوظيف الأسطوري الرّائع للواقع الأليم « إنَّ شاعرنا الكبير لايلجأ إلى استخدام الأسطورة خارجياً بل يكشفها داخل القصيدة نفسها ، إذ لافواصل بين الأسطوريّ والراهن في قصيدته - محمّد مظلوم صـ١٥٠ ».

جـ) شهادات في شعر عبد الوهاب البياتي:

كانت شهاداتُ كلّ هؤلاء الشعراء والكتّاب تدور حولَ شاعرية البياتي الكبيرة ، وعذاباته الخالدةَ ، وهي عذابات الإنسان المقهور والمظلوم في كلّ مكان من الكرة الأرضية « إنَّ البياتي شاعرٌ رقيقٌ يمضهُ ألمٌ كبيرٌ وهُوَ إنسانٌ معذّبٌ في المنفى ، وهُوَ كذلك مسيح مصلوب . من أجل فكره وعقائده - د. علي الراعي صـ ٦٢ » وأنّهُ « يلتقي مع أعظم الشعراء الذينَ عرفتهم الإنسانية في القرنين الأخيرين كرامبو وريلكة وإليوت وسان جون بيرس - المنصف الوهايبي صـ٦٥ » و« ظلَّ يعاني عذاب التشرّد وألم الحنين - عبد الملك نوري صـ٧٢ » ، وأنَّ البياتي هُوَ بروميثيوس عصرنا الجديد« النارُ التي يريدُ البياتي أن يوقدها في الجبال وفي منازل البشر هي الردُّ الوحيد على عبث الموت بالعالم - صادق النيهوم صـ ٨١ »، ويحملُ البياتي جرحَهُ وصليبَه وحيداً بعيداً عن عكاكيز المؤسسات الهشّة والأنظمة الهزيلة :« فانَّ أبا علي يبدو على قدر كبير من البراءة الحقيقية فهو خارج كلّ الأجهزة والمؤسسات الثقافية والإعلامية وسواها- محمود الريماوي صـ ٨٢ » ، وذاعَ صيتُه وازدادت شعبيته لا في الوطن العربيّ بل في العالم « أصبح معروفاً على المستوى الجماهيري بصفته واحداً من أكبر شعراء العرب المعاصرين - د. كارمن برابو صـ ٨٨ » ، وهذا راجعٌ لأصالته :« عبد الوهاب البياتي رائد أصيل من روّاد الحركة الشعرية الحديثة - يوسف الخال صـ ٩٢ » وعبقريته كشاعر شغلَ الناسَ ومَازال ، لأنّهُ « في طليعة النُخبة المتمتعة بروح المرض العبقريّ الخلّاق الإله ، لانُخبة المثقفين الأدعياء - أنسي الحاج صـ ٩٣ » ، وصوفيته الجميلة كعاشقٍ توضّأ بالدم وفيه من « محيي الدين بن عربي ، وفيه من الحلّاج ، ولوركا وبيكاسو حيث يُصنَع البطل النموذجي لعصرنا -

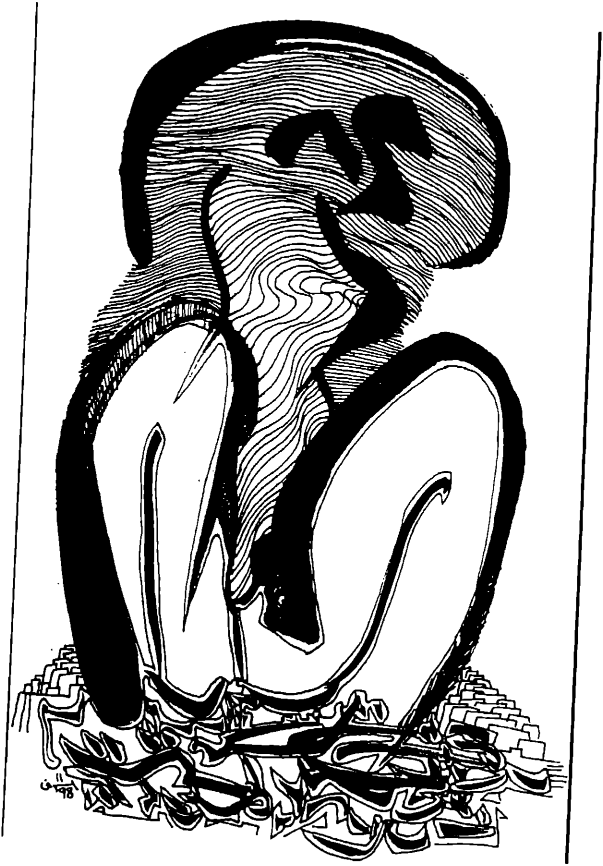
محمَد الجزائري صـ٩٥ » ، وأنَهُ قَدْ تعرّضَ للظلم والنّفي والعسف السياسي طوال سنين عمره ومازال ملكُ النفيّ والتشرّد » وربَّما كان واحداً من أبرز شعراء القرن العشرين تعّرضاً للعسف السياسي واجراءاته التي اضطرتهُ إلى حياة النفيّ والغربة والترحال المستَمر من بلد إلى بلد ومن منفيً إلى منفى - عواد على صـ١١٤ » ، وأنَّهُ شاعر القضايا الكبيرة:« إنَّ البياتي استطاعَ أن يسكب في جلّ قصائده قضايا عميقة وكبيرة - د. عبد السلام المسدّي صـ١٣٣ » ، .. وشاعر المستقبل بدون مُنازع :« البياتي شاعر المستقبل ، أنا على يقين من هذا الحكم - د. محيي الدين صبحي صـ١٣٥ » وهُوَ « من أكثر الشعراء الأحياء إثارة للإهتمام - ديزموند ستيوارت صـ ١٥٢ ».. وسيظلُ البياتي بشهادة كل هؤلاء:« أكثر الشعراء العرب اتّصالاً بالروّح العالمية ، وأكثرهم دخولاً فيَها وامتزاجاً بها ، أو قُلْ إنَّهُ شاعرٌ مسكونٌ بروح عالمية - د. حامد أبو أحمد صـ١٨٥.

د) الذكريات والمواقف:

وكانت تلك الذكرياتُ تدور حول نشأة شاعرنا الكبير ، وبداية حياته وماتضمنت من متاعبَ ومفارقات ، ومن صحاب وأصدقاء ، وكانَ المكانُ يلعبُ دوراً كبيراً في هذه الذكريات ، وبغدادُ هي المكانُ الذي أنجبَ الشّعر والأصدقاء والأحلام :« تَحت شمس بغداد المبهجة الرقيقة ، كُنّا نسيرَ نحنُ الأصدقاء الأربعة ، كما سمّانا عبد الوهاب ، على جهة من نهاية شارع الرّشيد ..» و« كُنّا ننزل إلى بغدادَ بعد ظهر يوم الخميس .. وكان الحديث غالباً مايدور حول شؤون عامة أو شخصية أول الأمر ، ثم يتركز حول همّنا الأساسي نحنُ الأربعة - الأدب » فؤاد التكرلي صـ٦٨ ، ولولادة القصائد وفعلها دورٌ هام في نسج هذه الذكريات ، حيث أنَّ لقاء الأصدقاء يكوُن نارياً عندما تُداهم أحدَهم القصيدةَ: « لقد كنتُ أجدُ البياتي مزهواً بشعره وشبابه وقوّة بلاغته وعمق ثقافته ..» صـ٩٩ و« البياتي حيثما حلَّ أمة وحَده ، منَ الشعر والثقافة المتنوعة مواطنوها من كلّ دين وجنس : قصّاصون ، شعراء . فنّانون ، صحافيوُن ، أساتذة جامعيون حتّى عامل المقهى هُوَ من مواطني البياتي يحفظ قهوته ، ومواعيد حضوره ، وأسباب غيابه - طرّاد الكبيسي صـ١٠٣ » ،. ورُغمَ مالتلك الزيام من مرارة لكنُّها ألهبت نيران الذكرى وصارَ الحديثُ عنها مُمتعاً شيّقاً رُغمَ قساوته :« فارسُنا الجوّال الذي أمضى حياته ينظمُ الشعر ويصارع خراتيته وديناصوراته في عصرنا الحَديث .. أنَهُ قَدْ ألزمَ نفسَهُ بلزوم مالايلزم من التحديات والخصومات والمعارك والجراحات والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة - فاروق البقلي صـ١٤ »..

هـ) الرسائل :

لقدْ كانت رسالةُ الشاعرة الكبيرة " نازك الملائكة" تحملُ الرغبة في التواصل ، وتبادل الرأي في قضية ما أو في مسار القصيدة الجديدة: « وإنَّهُ



ليسعدني أن أكتبَ إليك ثانيةً بعدَ أن تبادلنا أنا وأنتَ رسالتين عام ١٩٧٤ ثم سكتنا، والساكتة كنت أنا لأنني سألتك في رسالتي: كيف يمكن الجمع بين تصوفك الذي تعلنهُ وإلحادك الماركسيّ المعروف ، فأجبتني إنَّ التصوّفَ عندك إنّما يعني : وحدة الحضارات - نازك الملائكة صـ٤١ » .

أما رسالة الشاعر الكبير (نزار قبّاني) فقد كانتْ تحملُ من الودِّ والدفء قدراً كبيراً ، مليئة بالشّعر ورائحة الوطن والحرص على صنع جوٍّ أدبي وثقافي صحّي على الساحة الثقافية العربيّة :« أما مناخ الأدب فهو ماعرفته قبيح الوجه واليد واللّسان لأنّه يصدر عن مشوّهين ، أطلّ إقانتك مااستطعتَ في هذا الجوّ النظيف ، واذكرنا في جنّةِ كاساتك ، وصديقاتك .. ولكَ الحبُّ الأخضرُ - نزار قبّاني صـ٤٦ ».

وكانت رسالة الشاعر(د. عبد العزيز المقالح) تحملُ للبياتي وفاءً كبيراً وهو يدعوه دعوة مفتوحة للرقامةُ في صنعاءَ ، إقامةً طويلةً أو قصيرة ، مصحوبة بدعوة لحضور المعرض الدولي للكتاب الذي سيقام في جامعة صنعاءَ وقتها : « ثمَّ أدعوكَ لتجربة الإقامة في صنعاء حيث التلاميذ والأصدقاء وماتزال الدعوى قائمة ومفتوحة وستكون هذه البلاد - بلادك - أسعد بقعة في الأرض عندما ستنوي في يومٍ من الأيّامَ أن تلقيَ عصا الترحال عندها - د. عبد العزيز المقالح صـ٦٣ ».

أما رسالة الشاعر الصّديق (عدنان الصّائغ) فقد دارت حول الجوّ الثقافي في السّويد ، ثم ماأحدثه صوت البياتي وقصائده من فعلٍ وتأثير في نفوس الكتّاب والشّعراء في السّويد :« أتحدثُ عنك كثيراً ويسألني عنكَ بعض الشّعراء والمثقفين السويديين ، فأقول لهُم كلّ مافيه ينبضُ شعراً ، إنّهُ كوكب شعريٌ لايتوقف ولايهدأ - عدنان الصّائغ صـ٢٠٧ »..

و) القصائدُ المهداة إلى الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي

فقد أهدى مجموعة من الشعراء قصائد جميلة ، عذبة ، ورقيقة ، إلى الشاعر عبد الوهاب البياتي منهم:« سعدي يوسف ، حسب الشيخ جعفر ، محمد علي شمس الدين ، أحمد عبد المعطي حجازي ، عزّت سرايليتش ، محمد مظلوم ، كمال عمّار ، دورين ، سفيتلانا باتيسيبفا ، خوليو بيلث ، خوان مونيجرو ، كارمن بسادري . زاهر الجيزاني ، عدنان الصّائغ ، محمد لافي ، علي الشلاه ، علي السوداني ، نصيف الناصري ، غريب اسكندر ، ياسنا شاميج ، مالفينا ماريلكوفا ، غريب اسكندر، هادي الحسيني ».

حوار

عز الدين نجيب:

الواحة : مسرح أطلال نفسى

حوار : أشرف ابراهيم

شهدت القاهرة أخيراً معرضا لواحد من الفنانين الذين أثروا الحياة التشكيلية المصريةوالعربية بجهد ودأب لايكلان إبداعاً ونقداً ، المعرض بعنوان" سيوة: نداء الواحة" للفنان والأديب والناقد التشكيلى عز الدين نجيب والذى أقيم فى قاعة " بيكاسو" للفنون الجميلة

كان من الضرورى أن نلتقى بالفنان وأن نتحاور معه حول هذا المعرض الجديد ، وقد آثرنا أن نترك له المساحة للبوح ، وللغوص فى مكنونات ضميره الابداعى والفكرى فى محاولة منا لأن نستخلص شهادة فنان وناقد كبير مثله عن فنه وعن عصره ومعاصريه.

..... ؟

أقيم أغلب معارضى فى هذا الشهر " إبريل" .. ربما لأنه شهر ميلادى (إبريل ١٩٤٠) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهذا هو المعرض الأخير لى خلال هذا القرن ، وكنت حريصاً أن يقام هذا العام وليس العام القادم ، وهو (.بشكل ما) رؤية أفقية ممتدة لتجارب عديدة سابقة لى ، وكأنه " كشف حساب" لهذه التجارب ، ولو كان من منظور له موضوع محدد وهو واحة سيوة.

........؟

قصدت جمع هذه التجارب فى

معرض حتى يتبين لى من ناحية وللمتابعين لأعمالى من ناحية أخرى ايقاع التواصل والتطور من خلال موضوع محدد ، وإن اختلفت الأزمنة فى تعاقبه ومراحله السنية المختلفة ، داخل الفنان وداخل الوطن والمكان وهو البقعة النائية المعزولة عن أرض الوطن ، لكنها موصولة به بآلاف الخيوط ، ورغم ذلك فالمكان الجغرافى ليس هو القضية فى حد ذاته ، وانما المكان لدى أشمل من حدود الجغرافيا ، إنه جغرافيا أخرى تمتد بمساحة الوطن وتحمل جيناته ، وإن تباينت وتعددت المعالم ، أضف إلى ذلك أن المكان فى النهاية مسرح لإسقاط المشاعر والرؤى الذاتية للفنان ، بما يسمح باطلاق خياله ومفردات رموزه لما يجاوز الحدود والأزمنة إلى اللامتناهى .

........؟

لاأحبذ أن أكون أنا صاحب الكلمة فى تقييم عملى ، إنها للناقد والمتابع ، حتى يتبين مدى التطور والنمو عبر مراحلى الفنية ، لكن بشكل عام يمكن القول إن أعمال الثمانينات – وهى بداية تعرفى على المكان – تتسم بالقرب الشديد من عناصر الطبيعة ، مع تحليلها وإعادة صياغتها بحس ذاتى لتحمل صفات جديدة ، فكان معرضى عام ١٩٨٧ الذى شهد مزيداً من التحليلية والتركيبية لعناصر المكان ، خاصة الأطلال التى حملت سمات إنسانية وميتافيزيقية فى الوقت ذاته ، لكن ماكان يميز لوحات هذا المعرض هو حالة المسرحة ، حيث تتبدى المشاهد وكأننا أمام مسرح من نوع سوريالى ، تقف فوقه شخوص أسطورية متشكلة عضوياً من أبنية منهارة ، تقوم بأدوار درامية فى مسرحية تنتمى إلى اللامعقول ، وتواجه المشاهد بنوع من المحاكمة لما آل إليه أمر هذا الزمان.

......؟

ربما أكد على هذا المعنى: أن المعرض حمل عنوان " حوار الأطلال "، ومابين معرض ١٩٨٧ والمعرض الحالى كانت هناك تنويعات متباينة على هذا اللحن الأساسى . أما فى معرضى الأخير فربما كان التعبير الفنى والدرامى فيه أقرب إلى المونولوج منه إلى الديالوج أو الحوارية ، بمعنى أنه تعبير أكثر



جُوانية مما شهدته المرحلة السابقة . وهذا قد يبدو واضحاً من التركيز على أجزاء محددة من المرئيات : الطبيعة والأطلال ، بعيداً عن الزوايا البانورامية ، وكلما زاد الاقتراب من تفصيلة من التفاصيل اشتدت درجة عضويتها ، حتى تبدو وكأنها تنبض بأحاسيس انسانية مثل عضلات الجسم أو نبضات القلب . وربما يؤكد ذلك المعنى أيضا قوة الألوان وخشونة الملامس ، حيث تصل فى بعض الأحيان إلى حد الصرخات التعبيرية ، وفى بعض اللوحات إلى درجة الحلم أو الفلسفة.

.........؟

كلما ازداد الفنان اقتراباً من أعماق ذاته أصبح أكثر استقلالا عن الطبيعة ، وبالتالى أكثر جرأة على تحويرها وتحريفها بما يخدم الحس التعبيرى داخل نفسه ، وتطبيقاً على ماسبق أن قلته ، فان هذه اللوحات كانت شديدة الالتصاق بالمنطقة الذاتية فى هذه التجربة ، وهذا ماأتاح لى الفرصة للتجرؤ على هدم وإعادة بناء الطبيعة ، بالحس الداخلى أكثر منه الحس البصرى ، فاذا أوحى ذلك بايماءات تكعيبية كما ذكرت وقد تكون فى بعضها لآخر سوريالية أو تجريدية ، فان ذلك لايعنى لى أمراً مهماً ، لأننى لاأتبع نظرية أو مدرسة بعينها ، خاصة تصنيفات المدارس الأوروبية سواء الحداثية منها أو مابعد الحداثية ، بل اتبع قبل كل شئ دافع الصدق والانتماء إلى روابط حميمة بالمكان والزمان ، وأملك المقدرة على تجاوزهما معاً فى الوقت ذاته ، لأحقق مكانى وزمانى فى هذا العالم ، وترى مكتوباً فى مقدمة المعرض هذه الجملة:

« .. لم أكن أطل على أطلال سيوة ، بقدر ماأطل على الانسان فى نهاية الألفية الثانية بعد الميلاد ، بل على أطلال نفسى ، علنى أستنهض بعض ما اجتاحته الرياح والرعود ، فى داخلى أو فى العالم ، أو أستعيد القدرة على الفرح من وسط الأطلال . أهى شهادة استشهاد إذن ، أم شهادة ميلاد أخرى ضد الموت ؟ »

... . ؟

العمارة الفطرية تمثل بالنسبة لى مقابلاً رمزياً للإنسان ، فهى وإن

كانت جدراناً طينية ، إلا أنها تشكلات عضوية تحمل بصمات الإنسان وأنفاسه ، بل وفى بعض الأحيان هيئته الجسمانية ، من خلال استداراتها وانكساراتها وحركاتها فى الفضاء ، وأشعر بألفة شديدة مع مثل هذه الأبنية التى تمثل لى درجة من الصمود والتماسك والاستمرارية أكثر ربما مما يمثله أصحابها الراحلون ، فهؤلاء فنوا واندثر ذكرهم ، لكن تلك الشواهد تملك الحضور القوى على فعل الانسان فى الزمان والمكان ، ربما كانت مدينة " شالى" القديمة بشكل خاص تمتلك الخصائص الملفتة لكل هذه المعانى ، بل أيضاً تملك الشواهد على حماقة الإنسان فى بعض تاريخه إزاء الواحة ، إذ دفعته نوازعه الأنية الضيقة إلى الصراع الذى وصل حد الحرب الأهلية فى وقت من الأوقات ، وأدى فى النهاية إلى هجرانه لهذه البيوت ، وهو ماقلته فى مقدمة المعرض: " مؤكداً نبل الإنسان وخيانته فى الوقت ذاته : نبله فى مواجهة الطبيعة وفى ترويضها والتكيف معها ، وفى الانتصار على الغزاة والطغاة بابداع معمارى لاتقهره السنوات ، وخيانته لنفسه ، بهدم مابناه بيده أو تركه نهباً للضياع والاندثار .. ولاأعنى انسان الواحة بالذات ، بقدر ماأعنى الإنسان عموماً فى عصرنا التعيس."

... .؟

عنوان هذا المعرض أخذته من عنوان رواية كتبت مسودتها عن تجربة لمجموعة من الفنانين فى سيوة ، وقد أعددتها فى معالجة سينيمائية ، وتعاقدت مع إحدى الشركات على تقديمها للسينما ، إلا أن المشروع لم يتم وسوف استكملها كرواية أدبية قبل خروجها فى عمل درامى سينمائى.

الوشائج كثيرة بين تعبيرى التشكيلى والأدبى فى مجموعاتى القصصية السابقة ، حيث يمكن أن تجد فى أسلوبى القصصى رسماً بالكلمات ، واحتفاء بالمكان وجمالياته ، وغوصاً وراء المعانى المبهمة التى تلامس حدود الميتافيزيقا ، وهى سمات مشتركة مع عالمى التصويرى.

... . ؟

ليس خافياً على أحد أن الفن فى العالم يمر بأزمة خانقة وهو فى ذلك البرزخ قبل الدخول للقرن الحادى والعشرين . لقد مر القرن الماضى أكمله تقريباً فى تجارب معملية على كافة الأصعدة الجمالية والتقنية بمختلف المراحل والمدارس والاتجاهات ، بحثاً عن صياغة تبنى ماهدمته اتجاهات الحداثة من مدارس الفن فى القرن التاسع عشر ، لكنها لم تستطع جميعاً أن تصمد كما صمدت مدرسة واحدة من ذلك القرن الماضى فجميعها مثل النباتات الصحراوية الجافة ، قصيرة العمر والفروع محدودة الأثر والجمهور ، وذلك أدى فى النهاية إلى عزلة الفن عامة عن الجمهور ، مع انكماش وظيفته الاجتماعية قياسا على ماكان عليه فى القرون السابقة من ارتباط بالمجتمع فى كل تفاصيل حياته حتى اليومية منها . وقد كان حريا ببلد مثل مصر ، يحمل وراء ظهره تاريخاً عبقرياً من الفنون مازالت عظمته تحير العالم وتدهشه ، أن يكون بحثه الفنى نابعا من هذه الخصوصية ، منطلقاً إلى الحاضر والعالم خارج حدوده ، ومن ثم كان يمكن أن يكون لفنانيه إضافتهم الحضارية ومخرجهم من أزمة الفن العالمى ، لكن ماحدث هو العكس تماماً ، لقد كان مسار الفن المصرى الحديث فى مجمله انسياقاً خلف تيارات الفن الغربى المأزوم ، ولانستطيع رغم ذلك أن ننكر أن فى الفن الغربى الحديث إبداعات رائعة ، بعيداً عن منظومة التصنُّع والافتعال وإثارة الدهشة للدهشة إلى ملامسته المناطق الذاتية العميقة للإنسان وإعادة صياغة ذوقه بشكل بنّاء ، مثل بعض فنانى التعبيرية والسوريالية وربما التجريدية كذلك . لكن فنانينا لم يركزوا على التأثر بهؤلاء الفنانين قدر تأثرهم بالاتجاهات العبثية الطائشة ، لمجرد إثبات مدى حداثتهم ومعاصرتهم ، والنتيجة يمكننا أن نلمسها بوضوح فى انعزال حركة .الفن المصرى عن الشعب بما فيهم المثقفون ، على عكس ماكان عليه الحال فى فترة جيل الرواد فى الثلث الأول من هذا القرن ، وهو ماتعرضت له فى كتابى " فجر التصوير المصرى الحديث" عام ١٩٨٥

، من ارتباطهم بمشروع قومى للنهضة وبجذورهم الحضارية والبيئية ، مما يقربهم من نبض الشعب ، كما تعرضت لهذه القضية فى كتابى الأخير " التوجه الإجتماعى للفنان المصرى المعاصر" ١٩٩٧. وأعتقد أن كثيراً من خطوطه العريضة صالحة للتطبيق على أغلب حركات الفن فى البلاد العربية ، من حيث تبعيتها للإتجاهات الغربية وانعزالها عن خصائصها الإقليمية وجذورها الحضارية ، حتى لو تكلفت استخدام بعض المفردات المحلية مثل حروف الكتابة أو الزخارف العربية ، إذ أنها فى النهاية محكومة باطار عام يتبع الأساليب الغربية، ثم تبدت ذروة هذا الانفصال عن التراث والواقع فى محاكاتهم لاتجاهات مابعد الحداثة ، خاصة فى استخدام المخلفات التافهة فى أعمال فراغية لاتضع لمسمى بعينه ، وإن كان إصطلح على تسميتها مجازاً " بالأعمال المركبة" وبلغت ذروتها فى بيناليهات القاهرة والاسكندرية والشارقة وغيرها ، إلا أن مكمن الخطورة بالنسبة للمستقبل : هو أن الأجيال الجديدة من الفنانين الشبان تقتفى أثر هذه الاتجاهات ، ليس عن قناعة بها بقدر ماهو محاولة لاكتساب رضاء المسئولين عن المؤسسات الفنية المانحة للجوائز الكبرى ، خاصة صالون الشباب بالقاهرة ، مما أسس قاعدة حرجة لفن المستقبل المحكوم عليه بمزيد من العزلة عن مجتمعه.

مسرح

مهرجان المسرح التجريبي

لا حجر في البحيرة الراكدة

خالد سليمان

منذ عدة سنوات وأثناء قيامي بتغطية فعاليات إحدى دورات مهرجان المسرح التجريبي .. كان العنوان الذى اخترته لتلك التغطية التي نشرت في إحدى الدوريات العربية هو (العرب قدموا من أجل المسرح والأجانب من أجل السياحة) فقد كان مستوى العروض العربية مرتفعاً بالقياس إلى العروض الأجنبية التى كانت فى معظمها رديئة المستوى ، ووجه البعض إلى انتقادا حادا واتهامات متنوعة أهونها الانحياز للعرب ؟!!

وأنا لاأخفى انحيازا موضوعيا للمسرح العربى والثقافة العربية عامة ، وهذه ليست سبة ، لكن العار الحقيقى هو الذى يحمله على عاتقه البعض من حملة الألقاب (المخيفة) ومن لف لفهم ممن يستأسدون على المنتج الثقافى العربى ، بينما هم الذين يتقزمون وينبطحون أمام كل مايأتى من الغرب ، ومن يجرؤ على الاعتراض فهو ..... أو على الأقل جاهل فاقد القدرة على الاستيعاب ، أن هؤلاء المكارثيين من عبدة السيد الغربى طالما نادوا بكسر التابوه ، بينما لم يجد هؤلاء أى غضاضة فى صناعة أصنام غربية يقومون بالتبشير لها ودعوتنا إلى عبادتها معهم.

لم يشعر هؤلاء بالدونية والعارحين تم فرض الحماية الثقافية عليهم فى بداية القرن الواحد والعشرين ومطلع الألفية الثالثة ، واستقدموا لهم لجنة مشاهدة للعروض المشاركة فى المهرجان مكونة من بريطانى وفرنسى وأسبانى ، وكأن العالم العربى من المحيط إلى الخليج لايوجد به مثقف أو مسرحى واحد موضوعى يمكنه القيام بهذه المهمة ..، ولكن الحجة جاهزة بالطبع وهى أن المهرجان دولى .. وعليه فان اللجنة أيضا دولية ولايصح أن يشارك العرب بها ربما لأن اتفاقية الجات تمنع ذلك ، أو لأن النظام العالمى الجديد استبعد العرب من الخريطة الثقافية والاجتماعية والسياسية وأسقط عضويتهم فى عصبة الأمم (عفوا) أقصد الأمم الأمريكية المتحدة.

لم تأخذ هؤلاء الحمية ولا الغضبة المصرية أمام قرار فرض الحماية الثقافية عليهم ، لكنهم استمرأوا الاستئساد علينا وفى الوقت نفسه استمتعوا بالانكفاء والانبطاح أمام المندوب السامى للعالم الغربى الذى جاء لفرض الوصاية والحماية الثقافية علينا جميعا

ومثلما حدث فى دورات سابقة للمهرجان ، كان التمثيل العربى قويا ومشرفا .. أما التمثيل الأجنبى فقد كان مخيبا للآمال إلى حد بعيد إذا أخذنا فى الحسبان النسبة والتناسب .. فقد كان عدد العروض الأجنبية المشاركة يزيد على عدد العروض العربية بمقدار الضعف ، لكن العروض الجيدة منها أو التى رأى البعض أنها كذلك تكاد تتساوى مع عد العروض العربية ، كما يجب أن نذكر من ينسى أو يتناسى إن عرضا كالعرض التونسى " حب فى الخريف" قد رشح بالفعل لأربع جوائز من مجموع خمس جوائز يمنحها المهرجان للعروض الفائزة ...، وهى جائزة أفضل عرض ، أفضل إخراج ، أفضل ممثلة ، أفضل ممثل ، أفضل سينوغرافيا ... وتم ترشيح " حب فى الخريف" لكل هذه الجوائز عدا جائزة أفضل سينوغرافيا .. والتى رشح لها أيضا عرض عربى .. هو العرض " البحرينى" (ضوء .. ظل) ضمن العروض المرشحة لهذه الجائزة ، وقد فاز العرض التونسى بجائزة أفضل تمثيل عن الأدوار النسائية التى منحها المهرجان مناصفة بين الممثلتين التونسيتين "

ليلى طوبال" ..و" صابرة الهميسى " ، كما فاز بجائزة أفضل ممثل " سامى العدل" من مصر (دولة عربية أيضا) عن دوره في " طبول الشيطان" أو "طبول فاوست ٢ " ، مناصفة مع بطل عرض . فويتزك) الأسبانى ، كما تم التنويه عن العرض البحرينى (ضوء - ظل) في تقرير لجنة التحكيم التى أشادت به (وهو عرض عربى أيضاً) !! وكان (ضوء .. ظل) كما ذكرنا سلفاً مرشحا بقوة للفوز بجائزة أفضل سينوغرافيا ..

كما أثارت بعض العروض العربية جدلا واسعا ، خاصة في ندوات العروض مثلما حدث على سبيل المثال في الندوة الخاصة بالعرض " اللبنانى" " برمة الحوض" من تأليف وإخراج " جنى الحسن " ، والعرضين الأردنيين " ميديا" لجان أنوى "، " وملهاة عازف الكمان" عن" سوء التفاهم "" لألبير كامى" وهما من إخراج " حكيم حرب" إلى جانب العرض الفلسطينى " مسك الغزال" الذى أثار هو الآخر جدلا بين الجمهور وإن كان لم يحظ بندوة خاصة به مثل العرض الأردنى ومعظم العروض العربية الهامة

وكانت أهم العروض العربية من مصر ، تونس ، البحرين ، الأردن ، فلسطين ، هى تمثل حوالى ٥٠٪ من العروض العربية المشاركة فى المهرجان .. ولعل هذه النسبة ترد على ادعاءات المكابرين وأغلبهم لم يشارك في الفعاليات الخاصة بالمهرجان بل والفضيحة الكبرى أن بعضهم لم يشاهد هذه العروض من الأصل لكنه جرؤ وعلى توجيه انتقادات حادة جداً إليها ..، ولم تكن لهؤلاء مشاركة تذكر اللهم إلا فيما يخص الحفلات والقعدات ، ومع ذلك لديهم القدرة على خوض المعارك من بيوتهم الزجاجية ، .. إنهم جنرالات الأوهام الرائعة ..

وقد يختلف البعض ومنهم كاتب السطور مع بعض العروض العربية من حيث الشكل أو المضمون ولكنها ولاشك لاتقل من حيث التقييم عن أفضل ماشاهدناه من عروض غربية عبر دورات المهرجان ، بل وكانت كما أسلفنا مثار جدال مما يؤكد أنها جديرة بالمشاهدة.

حب فى الخريف
علاقات جدلية لاتنتهى

كان العرض التونسى " حب فى الخريف" تأليف وإخراج " عز الدين

قنون" أفضل عروض الدورة الحادية عشرة لمهرجان المسرح التجريبي - شكلاً وموضوعاً والسبب في ذلك هو توافر بنية العرض المسرحي الحقيقي فلم يطغ أحد عناصر العرض على عناصره الأخرى فجاء عرضا محكماً ومتوازناً محققاً أكبر قدر من المتعة على المستويين " البراني والجواني" (المصطلح المستخدم لأستاذنا / عثمان أمين رحمه الله)

وتدور قصة العرض في البداية حول الصراع بين " هانية" تلك العاشقة المخذولة التي هجرها الحبيب هي وابنتهما ، وبين " ياشار" سارقة الحبيب ، التي لوحت له بالثروة والنفوذ لكي يتزوجها ، ويزداد الصراع احتداما بين المرأتين بعد أن تتعرض الابنة لظرف مرضي طارئ .. وتجرى لها " ياشار" التي تعمل طبيبة .. جراحة تخرج منها الابنة بعاهة مستديمة ، فتحملها " هانية" مسئولية ماحدث لطفلتها وتتهمها بأن ماحدث كان عن قصد ..، وعلى جانب آخر نرى ابن عم " هانية" المغرم بها منذ نعومة أظافره لكنها لاتلق بالا إليه .. فهي تكرهه وتكره أباه الذي كان يراود أمها ذات يوم حتى سقطت وانتهى بها الأمر الى الانتحار في بئر منزل العائلة القديم ، ولاترى هانية في ابن عمها سوى امتداد لأبيه الشره الذي يريد الاستيلاء على كل شئ ابتداء من منزل العائلة القديم وليس انتهاء بالجسد والمشاعر إن أمكن ، ويحاول ابن العم استمالتها عن طريق مساعدتها للانتقام من الحبيب الخائن وسارقته" ياشار" ، لكنه لايفلح في ذلك أبداً فقد تأصلت كراهيته في قلب" هانية" ، وعلى صعيد آخر .. نرى خادم " ياشار" وزوجها يسعى للاستيلاء على ابنة " هانية" المعاقة بكل الحيل كرد فعل على احتقار الجميع له .. ، خاصة أن تلك الابنة المراهقة تتوق الى واقع مختلف تشعر فيه بأنها أنثى حقيقية .. ويستمر الصراع الدرامي الحافل بالرموز والمفاجآت ..

ومن خلال العلاقات الجدلية بين كل عناصر العرض وشخوصه تتعرى ذوات الجميع .. فالكل جانٍ والكل مجني عليه ، والقهر يشمل الجميع حتى الزوج الذي لانراه أبداً .. وقع يوماً ما ضحية لثراء " ياشار" التي هجرها هي الأخرى . لتتحول إلى ضحية ، ويضيف " عز الدين قنون " بعداً جديداً للنص عندما يوظف "

جهاز الراديو" كشخصية سادسة موجودة ومتجسدة بالفعل فى مساحة اللعب ، أو كشخصية سابعة على مستوى النص إذا أخذنا فى الحسبان الزوج .. ذلك الحاضر الغائب الذى لانراه أبداً..

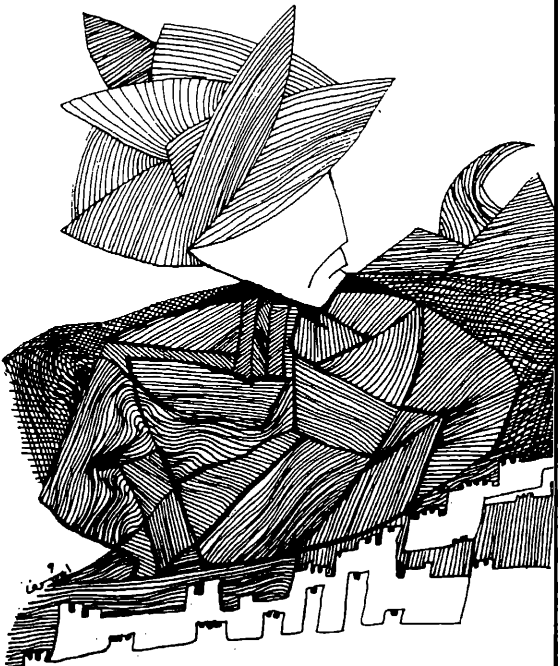
تتعرى ذوات الجميع إلى حد القسوة وجلد الذات ، ويتعرى معها الواقع الاجتماعى بماله من علاقات مع الواقع العام ككل بكل بشاعته .. ، أيديولوجية المجتمع الذكورى ، الجشع ، القهر.

كل عناصر العرض تتفاعل لتشمل العلاقة الجدلية المكان الذى تجده مقحما بقوة بكل مايحمله من تاريخ وأحداث فيفرض على المتلقى إسقاطا خاصا جداً ، وتارة تشعر وأنت تشاهد العرض بالحميمية فى علاقة الشخصية بالمكان ، وتارة أخرى بعكس ذلك ، فالمكان هنا تم توظيفه كفضاء حى .. لتشعر أن ثمة حواراً داخليا بينه وبين شخوص العرض .. يصل الى حد الصراخ المكبوت أحيانا ، والمتلقى هنا فى حالة توحد مع الحالة المسرحية ككل باعتباره أحد عناصر العرض الذى لايكتمل بدونه ، وقد كان اختيار " عز الدين قنون" لوكالة الغورى اختياراً ذكياً موفقاً

وبدا العرض الذى قدمه وكأنه أعد خصيصاً للمكان .. حيث تم توظيف تفاصيله المعقدة لخدمة العرض ، ونجح " قنون" فى خلق مستويات متعددة للعرض مستغلاً فى ذلك إمكانات المكان بأقبيته ودهاليزه ، وفسقيته التى استخدمها لإبراز أكثر من معنى .. فتارة هى معادل موضوعى للتطهر ، وتارة أخرى هى المعادل الموضوعى للموت والانتحار.

وكانت خطة الإضاءة الذكية الواعية التى استخدمها المخرج .. تأكيدا موفقا للمعانى " الجوانية " التى يحملها النص .. بالإضافة لإبرازها جماليات العرض ككل لتحقق ثراء فى المتعة البصرية أيضاً..

واجتهد المخرج فى صياغة (ميزانسين) " خطة مركبة" شديدة الإنضباط لتفسير أبعاد العرض المتعددة والمركبة ، لتعكس رؤيته الخاصة ..، ولعل أكثر هذه المشاهد روعة مشهد صراع الغريمتين على حافة البئر بحركاته الأفعاونية ..، وكأن المتلقى يشاهد صراعا حقيقيا بين زوج من الأفاعى لايسمع فيه سوى " الفحيح" ، والمشهد الذى ترقص فيه الابنه المعاقة ، ومشهد



النهاية المغلف بأستاتيكية الشكل " وبركانية " المضمون..

ومشهد الخادم وهو سكران على حافة البئر الذى كان متقنا وتألق فيه " جعفر القاسمى"

ويرجع الفضل للمخرج فى رقى الأداء .. فقد بدا بوضوح جهده المضنى الذى بذله لصقل حرفية الممثل وهى إحدى السمات المميزة للمخرجين التوانسة عموماً

أما عن التمثيل فحدث ولاحرج عن البراعة والتميز غير العادى للممثلين الخمسة الذين قدموا مباراة ، أو بالأحرى سيمفونية متناغمة فى الأداء فلا تستطيع وأنت تشاهد العرض أن تقرر أيهم أفضل من الآخر لان كلاً منهم كان يكمل الآخر ليتحقق مايمكن أن نطلق عليه " هارمونية" الأداء ، ولم نكن نعرف فى " مصر" منهم سوى القديرة " ليلى طوبال" التى لعبت دور " هانية" فقد شاهدناها من قبل ، وقد أشفقنا فى بادئ الأمر على زملائها منها ، لكننا سرعان ماكتشفنا أنهم أنداد لها ، وعلى رأسهم " صابرة الهميسى " التى لعبت دور" ياشار" واقتسمت معها جائزة أفضل ممثلة ، و" توفيق العايب" الذى لعب دور ابن عم " هانية" باقتدار وخفة ظل ، وأيضاً " جعفر القاسمى" الذى لعب دور الخادم .. وقد رشح الاثنان (توفيق وجعفر) لنيل جائزة أفضل ممثل عن استحقاق ، وكذلك " فاطمة" التى لعبت دور الابنة - يبقى للعرض التونسى " حب فى الخريف " أن نشيد بانضباطه الشديد وتقديمه كوميديا نظيفة رغم قتامة النص وجديته ، حيث إنه عرض نخبوى فى المقام الأول

ولابد أن نذكر للقائمين على العرض قيامهم بواجبهم على أكمل وجه ، على الرغم من أنهم عرضوا فى ظروف غير عادية ..، فقد كان العرض الأول الذى حضرته لجنة التحكيم .. ينقصه (ديمر) إضاءة لم ترسله تجهيزات المهرجان إلا بعد انتهاء العرض ، أما العرض الثانى فقد توقف حوالى (ربع ساعة) لنشوب مشاجرة ومع ذلك يثبت أبطال العرض فى وضع " فيكس كادر" كما لو كانوا صورة فوتوغرافية ثابتة طوال هذه الفترة حتى لاينقطع التواصل بينهم وبين الجمهور .. (إنه الانضباط وحرفية الممثل فى آن واحد).

برمة الحوض المتوسطى والتفسير الخاطئ

المخرج مؤلف أيضا من خلال رؤيته الخاصة للنص، لكننا في هذه الدورة للمهرجان نصادف أكثر من مرة المخرج المؤلف .. فكما كان فى العرض التونسى " حب فى الخريف" المخرج هو المؤلف ، كذلك كان العرض اللبنانى " برمة الحوض" من تأليف وإخراج " جنى الحسن" .. والعرض يدور حول الأحاسيس الإنسانية وعلاقتها بالمجتمع والتابوهات .. المتحكمة فيه وتوظيف "الجسد كمصدر للمعرفة الحقيقية (حسب وصف المؤلفة المخرجة) باعتباره هيكلا للروح.

و" جنى الحسن" اختارت عنوانا لعرضها يحمل إسقاطاً خاصاً فهى كما قررت فى الندوة الخاصة بالعرض .. تعنى " ببرمة الحوض" " الحوض" بالمعنى التشريحى ، و" الحوض المتوسطى أيضاً ، حيث إن شعوبه تحمل قيما إنسانية واجتماعية واحدة تقريبا ومخرجة العرض تتعرض فى عملها لإشكالية لم يقترب أحد منها تقريبا خاصة من السيدات اللائى يشتغلن بالإبداع .. وهى قهر الرجل وإحباطاته المتكررة فى علاقته بالأنثى فى المجتمع الشرقى بشكل خاص و" المتوسطى" إن أردنا التوسع فى نطاق الطرح

وقد اجتهدت " جنى الحسن " فى تكثيف هذه الإشكالية من خلال منظومة متقنة جداً من الأداء الحركى بمصاحبة جمل حوارية قصيرة جلها من الأمثال والأقوال السائرة ، بالإضافة إلى مقتطفات من أشعار " أبى العلاء المعرى" و" الوليد بن المعتز"، و" ديك الجن الحمصى " وغيرهم .. كان المقصود منها تأكيد المضمون وإثرائه ..

وقد نجحت " جنى الحسن" إلى حد بعيد فى تقديم عرض متميز على مستوى الأداء الحركى ، لكن جماليات العرض لم تكتمل بسبب ضعف خطة الإضاءة النسبى والرؤية السينوغرافية التقليدية فلم يتكامل عنصرا الإضاءة والسينوغرافية كعناصر تقنية هامة مع الحركة والنص والموسيقى التى كان مستواها أفضل كثيراً فبدا البون شاسعاً بين هذا وذاك فأضير العرض من حيث الشكل ضررا جسيما.

كما كان الفارق فى الأداء واضحاً بين بطلتى العرض ، فبينما كانت

إحداهما " وداد" متميزة جداً فى كل سكناتها وحركاتها ، كانت الثانية " زاى" أقل فى القدرات الحركية وبدت بدينة مترهلة رغم جمالها الواضح ، ولاأدرى كيف فات على " كريوجراف" قديرة مثل " جنى الحسن " مثل هذا الأمر..

فيما عدا الملاحظة السابقة عن الأداء الحركى كان أبطال العرض متميزين للغاية وعلى مستوى عال من التدريب.

وقد أثار عرض" برمة الحوض" جدلا عنيفا وكانت الندوة الخاصة به ساخنة جداً .. خاصة أن البعض أساء تفسير ماتقصده" جنى الحسن" شكلا وموضوعا إلى حد إتهامها بالسخرية من الإسلام وازدرائه لاستخدامها .." المسبحة" بشكل أثار حفيظة بعض النقاد الذين اعتبروها رمزاً إسلامياً!! رغم أن المسبحة أداة طقسية فى الأديان السماوية الثلاثة ، وبعض الأديان غير السماوية أيضا .

– كما اعتبر آخرون هذه الأشكال الحركية التى استخدمتها " جنى الحسن" مجرد شكل من أشكال الباليه المنقول من الغرب ، بيد أن هذا النقد لم يكن فى محله .. لأن معظم هذه الجمل الحركية مأخوذة بتصرف من تراث الندب الحركى " الشيعي" وأقليات تعيش فى بعض بلدان الشام ..

مسك الغزال .. وإهدار جهود الآخرين

دائما المخرج هو مفتاح العمل ومهما كانت عناصر العمل متميزة .. إلا أن تناغمها لايتحقق إلا من خلال عمل المخرج وهو مافتقده العرض الفلسطينى " مسك الغزال" المأخوذ عن رواية للكاتبة اللبنانية " حنان الشيخ" وأعدها للمسرح " إيمان عون" ومخرج العرض " بيتربراشلار " السويسرى الجنسية.

ورواية الكاتبة " حنان الشيخ " المأخوذ عنها العرض تدور حول مشاعر الغربة والاغتراب التى تعانيها أربع نساء إحداهن أمريكية والأخرى شرق أوسطية ، وصحراويتان .. يعشن فى إحدى الصحارى العربية وصراعهن الدائم مع التابوهات والواقع المؤلم ، صحيح أن الكاتبة لم تحدد المكان ولاجنسية النساء عدا .. الأمريكية ، إلا أن المكان يشى بأنه منطقة مافى صحراء الجزيرة العربية أو إحدى

دول الخليج ، أما النساء فيمكن للمتلقى أن يطلق لخياله العنان كى يفرض إسقاطه الخاص بالنسبة لجنسياتهن.

لكن الصحراء التى نشاهد شخوص الرواية يعيشون فيها ليست هى الصحراء الوحيدة ، بل إننا نكتشف صحارى أخرى داخل نفس كل امرأة من بطلات الرواية وتتقاطع الصحارى النفسية التى تعيشها كل واحدة منهن مع الأخرى .. فيتعرى الواقع للجميع ..

وبقدر الاختلاف مع الطرح الذى يطرحه النص إلا أنه بمثابة حجر فى الماء الأسن يحفز عقلك ومشاعرك أحيانا على الجدل والصراع مع مضمونه لأنه ولاشك يستحق المناقشة والمشاهدة على المسرح بشرط أن لايفسد هذه المتعة غياب التناغم بين عناصر العرض.

كانت ممثلات العرض اللائى لعبن أدوار كل شخصيات الرواية بما فى ذلك أدوار الرجال على مستوى عال جداً .. خاصة " إيمان عون" التى فازت من قبل بجائزة أحسن ممثلة فى المهرجان الثامن للمسرح التجريبى ، لكن هذا الأداء المتميز " لإيمان عون" ومعها " منيرة زريقى" و" فاتن خورى" ، " تهانى سليم" .. تأثر كثيراً بترهل خطة الحركة " الميزانسين "، والإيقاع البطئ غير المتوازن وهى مسئولية المخرج فى المقام الأول والأخير ، كذلك ضاع تصميم الإضاءة الجيد والأغانى والموسيقى المتميزة جداً للعرض بسبب افتقاد كل هذه العناصر التناغم بين بعضها البعض بما فى ذلك العنصر البشرى وعلاقته بالعناصر الأخرى فجاء العرض " استاتيكيا" للغاية ، ولم يكن للمخرج بصمة واضحة اللهم إلا فى إهدار جهوة الأخرين.

طبول فاوست تفضح التناقض وتفشل فى الإقناع

لاأدرى من الذى ألقى فى روع " أحمد سويلم" و" انتصار عبد الفتاح" ومعهما " سهام إسماعيل ، وهم من قاموا بالصياغة الدرامية لعرض " فاوست٢" أنه يمكنهم إقناع المتلقى بفكرة أقل مايمكن أن يقال عنها إنها خلط ساذج للأوراق لايمكن أن يقنع أى شخص تخطى مرحلة الجهل البسيط..

فالعرض كما يزعمون رحلة صوفية شرقية داخل فاوست فى

بحثه عن الحقيقة المطلقة وبرؤية خاصة ينزع فاوست إلى العقل والجمال والشهوة من خلال رحلات ثلاث لعله يبلغ الحقيقة ، ويبقى السؤال كيف يلتحم كل شئ مع الكل ؟! (هكذا)

ولأن المصطلحات مجانية لاشرقية ولاغربية يمكن للكل أن يقول أو يفعل مايشاء بشرط أن لايمتهن عقول الآخرين ، وألف باء التصوف هو المنهج إن جاز التعبير وهو باختصار طريق" الحدس القلبي" وليس العقلي .. لأن طريق العقل ليس طريق المتصوفة ولاعلاقة له من بعيد أو قريب بالتصوف ، وحينما " ينزع فاوست " إلى .. العقل والجمال .. إلخ فليس لهذا النزوع أي علاقة بالتصوف ولارحلاته ومراحله حتى لو قرر" فاوست" في النهاية الخلاص والتحرر عن طريق العقل أو تبادل الأماكن مع غريمه .. فالصلة معدومة تماما بين التصوف الشرقي بمفهومه الواسع وبين هذا الهراء الأيديولوجي ، وإذا كانت المسألة مجرد مصطلحات براقة فقد كان يمكنهم أن ينزعوا بالأخ فاوست إلى أضابير الفلسفة الهيللينية . ويمكنهم أن يسألوا في ذلك أستاذنا عبد الرحمن بدوي الذي اعتمدوا على ترجمته لفاوست " جوته"

وكان التناقض يتضح كلما أكد الذين قاموا بالصياغة الدرامية على تمسك " فاوست" بالعقل ، بينما يتم اجتزاء عبارات " النفرى " من المواقف والمخاطبات وهي نتاج رؤية قلبية طبقا للمنهج الصوفي .." وتضفيرها" مع عبارات " شيلي" في " برومثيوس" طليقاً (وبالمناسبة لم يشر إليه من قاموا بالصياغة الدرامية في المصادر والمراجع بأي صورة) ، ولامانع بعد ذلك من إضافة عبارات نثرية ـ" لجبران خليل جبران" من عمله الخالد" رمل وزبد" مع أقوال " جوته" لعل كل ذلك يتحول بعد " خفقة" في الخلاط إلى تصوف شرقي..

وقد استخدم المخرج " انتصار عبد الفتاح" الإنشاد في الحضرة الصوفية مع طقوس وتعاويذ تحضير الجان ، بالإضافة لأسماء الله الحسنى " لسيد مكاوي" ، مع عدد من الممارسات الطقسية بين كل منها وبين الآخر بون شاسع (على الأقل من حيث الدوافع) وكذلك بينها وبين نص" فاوست" أو بالأحرى مايفترض أن

نص " فاوست" الذى لم يأخذوا منه سوى التيمة الرئيسية الخاصة بالصراع بتصرف .. ، حيث لايمكن أن تجد مايربط بين هذه المتناقضات وبعضها سوى منهج " الخلاط"

وكلما أمعنت التركيز فى الدور الذى تلعبه الفنانة " صفاء الطوخى" (روح الأرض) وحوارها مع " فاوست" " أحمد عبد الوارث" تجد كل كلمة يتبادلانها تشى بالعمل الخالد " لشيلى" " بروميثيوس طليقا" ولاعزاء للنص والتناص..

ملك ووزير وحصان هى كل عدة فاوست التى يلعب الشطرنج مع " مفستو" الذى يمتلك مثلهم أيضاً !! ولكن ماالمقصود ومن يربح .. أخيرا يتبادل كل منهما موقعه مع الآخر لينتهى العرض وتبقى التساؤلات معلقة .. ولكننا سنحاول تصور بعض الإجابات..

هل كانت هناك حالة مسرح ؟ بالتأكيد كانت هناك حالة مسرحية وفرجة جيدة ومتقنة وإن لم تكن منضبطة تماما.. مع التحفظ على الطرح .

هل كان هناك مضمون؟ إذا كانت المقدمات خاطئة من البداية فما الذى يمكن أن ننتظره من نتائج.

لقد كان يمكن للمخرج أن يقدم ذلك العرض بكل الأشكال الطقوسية التى قدمها تحت عنوان" طقوس" مثلا أو عنوان أخر .. ودون التعرض" لفاوست" ولاغيره ، ودون ممارسة فذلكات اصطلاحية .. أو حتى بدون نص على الإطلاق ..، وليسقط المتلقى على العمل مايريد من إسقاطات.

لكن النتيجة المؤكدة التى تخرج بها من العرض هى وجود حالة فرجة ممتعة .. موسيقى وغناء على قدر كبير من الجمال ، ولايمكننا إهدار الجهد الرائع فى تصميم الرقصات والأداء الحركى " لسامية علوية" الذى أضفى على هذه الفرجة ثراء ومتعة بصرية كبيرة .. ولايمكن أن نحملها ذنب تناقضات النص الأيديولوجية

بدأ العرض وهو يركن إلى اليقين ، وانتهى العرض وهو قعيد اليقين .. فعلام كانت المعاناة ؟ وفيما كان الجدل؟

تعليق

مراد وهبه وإعلان كوبنهاجن

أيمن فايد

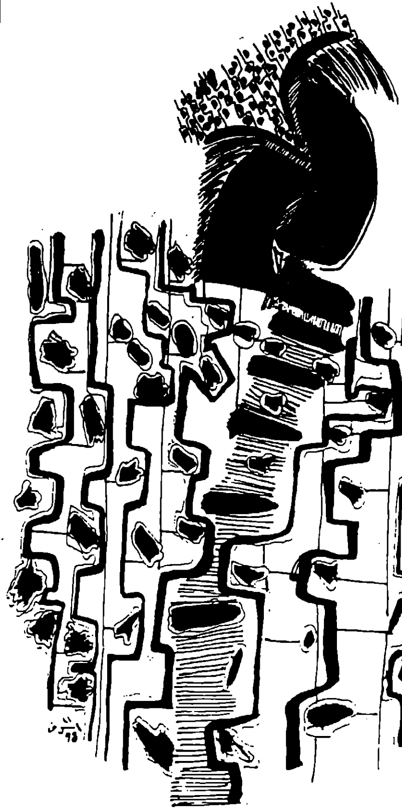
«إن تاريخ الإنسانية كله يعلمنا أن الخيانة تبدأ عندما يتسلل الوهن إلى القلوب ويسود الشعور بالعجز عن إحداث التغيير ولو على مدى زمنى طويل».

فريدة النقاش

فى سبع صفحات من كتابه « ملاك الحقيقة المطلقة »(١) يتحدث د. مراد وهبه عن إعلان كوبنهاجن الذى شارك فيه بفاعلية يفخر بها ويدافع عنها ، وتنشر له الهيئة المصرية العامة للكتاب كتابه هذا ضمن مشروع مهرجان القراءة للجميع بأسعاره المخفضة وبتوقيته الصيفى الذى يضمن له انتشارا واسعا بين القراء ، وبعد أيام من وقائع مؤتمر « الماريوت » المشبوه وما قوبل به من رفض لفيف كبير من المثقفين المصريين الواضح والمتمثل -على سبيل المثال لا الحصر -فى انعقاد مؤتمر معارض وفى نفس التوقيت فى فندق « شبرد » بالقاهرة .. أيمكننا اعتبار ذلك مجرد مصادفة؟!.

على أية حال .. سأتوقف هنا أمام تلك الصفحات السبع فى كتاب د. مراد ، محاولا قراءتها قراءة نقدية على أساس أن « نقد النص هو قراءة له تستخرج منه ما هو فيه أصلا من أساس يحمله .والأساس هذا ليس مرئيا فى مباشرته ، وإن كان فى النص حاضرا ، إذ لا يقوم بنيان هذا النص إلا به . لذا وجب استخراجه -أى قراءته -بعملية من النقد ترجع النص- إلى ما هو منه الأثر ، أى إلى بنية الفكر التى ولدته »(٢)

يقول د. مراد « شاركت » فى« حوار لويزيانا » بكوبنهاجن مع مثقفين مصريين وفلسطينيين وأردنيين وإسرائيليين وأوروبيين لتكوين « تحالف دولى من أجل السلام العربى - الاسرائيلى عرف إعلاميا باسم « إعلان كوبنهاجن » (٣٠ يناير ١٩٩٧) ولم أكن -فى هذا الحوار- إلا ممثلا لشخصى (ص ٣٦١) ، ونتوقف قليلا عند العبارة السابقة ، الدكتور مراد يؤكد على أنه حضر الحوار ممثلا لشخصه فقط .. ولكن .. أى شخص هذا ؟!.. إنه الدكتور مراد



وهبه ، ذو التاريخ الثقافى الحافل والمشرف فى الدفاع عن العقلانية والعلمانية ، مراد وهبه مؤلف محاورات فلسفية فى موسكو ، وقصة الفلسفة ، وجرثومة التخلف ، وعشرات بل مئات الكتابات الجادة والواعية التى شكلت جزءاً من النسيج الثقافى للكثيرين من أجيال عديدة، مراد وهبه ذو الخلفية النضالية اليسارية المشرفة.

هذا هو هو شخص مراد وهبه الذى شارك به فى هذا المؤتمر ، ومما لا شك فيه أن هذا الثقل الثقافى والنضالى الجاد يكسب د. مراد مصداقية كبيرة فى كل كتاباته ، تلك المصداقية التى تكسبه قدرة التأثير على قارئه إلى الدرجة التى تجعله يتقبل كل ما يكتب د. مراد باقتناع كامل.

كما أن تأكيد د. مراد على أنه حضر هذا الحوار ممثلا لشخصه فقط ربما يعكس لنا استنكار العديد من الكتاب والمثقفين المصريين لإدعاء بعض المشاركين فى تحالف السلام العربى- الإسرائيلى انهم يتحدثون نيابة عن المثقفين المصريين، وقد أكدت ذلك الروائية «رضوى عاشور» فى مقابلة تلفزيونية معها من قبل بالتلفزيون المصرى ،حيث ذكرت أنه لا يحق لأحد التحدث بلسان المثقفين المصريين.

ويوضح لنا . د. مراد مبررات مشاركته فى هذا الحوار بسببين .. أولهما «أن الحوار ، على الاطلاق هو الطريق إلى التطور ،والتطور سمة الحضارة . وتاريخ الحضارة شاهد على ما تقول فالثقافة اليونانية تطوير للثقافة المصرية القديمة . والثقافة الاسلامية تطوير للثقافة اليونانية ،والثقافة الأوروبية تطوير للثقافتين اليونانية والاسلامية (ص٣٦١) ولم يستكمل د. مراد ليجيب لنا عن تساؤل بديهى ينبثق عن كلماته السابقة ، ترى .. هل ستطور الثقافة الاسرائيلية الثقافة المصرية الحديثة؟ هل ستطور ثقافة صهيونية استعمارية فى الأساس عمرها فى الحياة لا يتعدى عشرات السنين ثقافة مصرية ضاربة فى جذور التاريخ ، أثرت وتأثرت فى وبكل ثقافات العالم القديم والحديث؟.

ويؤكد د. مراد فى السبب الثانى لمشاركته فى الحوار «على أن الحوار -على التخصص- فى الشرق الأوسط ضرورى بين الأطراف المتصارعة .فإذا كان الحوار سمة التطور ،والتطور سمة الحضارة ،فالحوار العربى -الاسرائيلى لازم من أجل التطور .ولهذا فإن الامتناع عن الحوار سمة غير حضارية . ومن ثم فإن شعار «لا .. للحوار الثقافى» هو شعار لا يستقيم مع مسار الحضارة «(ص٣٦١).

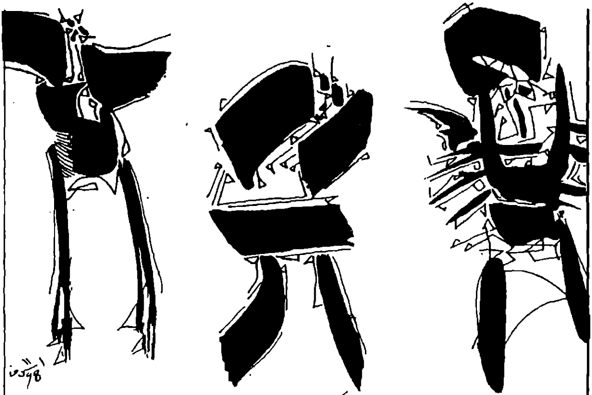
ربما فات د. مراد وهو يكتب كلماته السابقة أمران ، أولهما : أن الحوار الثقافى لا يمكن أن يستقيم فى ظل شعور أحد أطرافه بالتعالى والتميز على الطرف الآخر ،وفى منطقة الشرق الأوسط- على

التخصيص -كما يؤكد د. مراد ، يمتلأ الاسرائيليون بنزعة التعالى والتميز ، فهم أبناء (سارة) الحرة أما العرب فهم أبناء(هاجر) الجارية ، ناهينا عن التفوق الاقتصادى والعسكرى لهم على العرب المتخلفين فى جميع المجالات كما يعتقد الاسرائيليون فكيف إذن يستقيم الحوار فى ظل ذلك الوضع المتأزم.

أما الأمر الثانى : فيؤكده د. مراد نفسه حيث يرى« أن الثقافة من إفراز العقل فى تفاعله مع الواقع الخارجى(ص٣٦١) وهذا الواقع الخارجى ملئ بمظاهر العنف الإسرائيلى شبه اليومى فى لبنان وفلسطين، وأى مثقف عربى لا يمكنه أن يزعم الحياد الثقافى وأرضه . مغتصبة أو مهدده وأهله يقتلون أو يسجنون ، فيجلس هو متجاوزاً عن كل ذلك ليناقش مع بضعة مثقفين اسرائيليين -حتى وإن حسنت نواياهم- قضايا متفجرة وسياسية بالدرجة الأولى.

ويستشهد د. مراد فى خطابه بكلمات من إعلان كوبنهاجن ، يشيد بها حيث يرى أهميتها التاريخية كما يقوله . «إن السلام من الأهمية بمكان بحيث يمتنع معه أن يكون مقصوراً على الحكومات وحدها ، ذلك أن الاحتكاك بين الشعوب أمر حيوى لنجاح الجهد المبذول فى تحقيق السلام فى المنطقة .ومن ثم فإذا كان الأساس الشعبى ضعيفا فإن مسار السلام قد يتعثر (ص ٣٦٢) ، هكذا إذن يتضح الأمر ، فالمسار الحكومى للسلام المزعوم فى ظل أزماته الراهنة بحاجة ماسة لتحرك دعائى وأيديولوجى يقوم به بعض المثقفين ، يهدف إلى تغييب عقول الشعوب العربية ويدفع بها من رءوسها تجاه إسرائيل . إلا أن هذه الشعوب العربية لا يمكنها أن تتقبل حديث مثقف- أيا كانت مصداقيته - يدعوهم فيه إلى نبذ روح العداء المتخلفة !! تجاه إسرائيل ، مبرراً ذلك بأن روح التنوير والمعرفة والكوكبة تطالبنا بذلك . فهيا بنا نسرع بدفن آخر فتلانا لنستقبل القتلة الاسرائيليين فنتحاور معهم فى الثقافة والتاريخ ونحن نصم آذاننا عن دوى القنابل والرصاص المنهمر فوق أراضينا العربية ،حتى نثبت للعالم أجمع تفهمنا العميق لروح التنوير والمعرفة والكوكبة.

ويكتب د. مراد كلمات تصيبنا بالاندهاش حيث يقول : إن اثنين من أعضاء الوفود قد اعترضا بحدة على نقدى للأصوليات الدينية أحدهما من «حماس» والآخر من «الليكود» الأمر الذى أفضى بى إلى التفكير فى أن ثمة وحدة وصراع بين الأضداد «فى منطقة الشرق الأوسط». فثمة «وحدة» بين الأصولية الاسلامية والأصولية اليهودية تكمن فى أن كلاً منهما يريد تجسيد مطلق معين فى الواقع «ص٣٦٧) . ينطوى هذا الخطاب على أحبوله شديدة الخطورة، الأزمة إذن أزمة أصوليات دينية اسلامية يهودية فهل هذا صحيح ؟! وهل إذا قضينا على الأصولية



الدينية ستصبح العلاقات بين العرب وإسرائيل كالسمن على العسل؟ وهل الأصوليون الدينيون العرب هم فقط المعارضون لسياسات إسرائيل ؟ والعقبة الكئود في وجه السلام العربي الاسرائيلي ؟! . وهكذا تصاغ القضية منطقياً بهذا الشكل المغلوط .. أنت معارض للسلام المطروح حاليا بين العرب وإسرائيل ، ورافض لعلاقات التطبيع العربي الاسرائيلي بكافة أشكاله ومجالاته إلى أن يتم سلام عادل في الشرق الأوسط . إذن - وبناءً على المسكوت عنه في الخطاب السابق -فأنت أصولي إما إسلاميا أم يهوديا .. فما أوسع علم الدكتور!!.

وبناء على ما سبق اتساءل .. ترى أي بنية فكرية تكمن خلف هذا النص ؟ فأجيب كما أعتقد انها بنية محايثة لتوجهات سياسية محددة ترغب في تعميم حالة الاستسلام والإذعان للآخر المعتدي والاستعماري يأسا أو تيئيساً من الرفض والمواجهة ، بنية فكرية تقع في منطق التماثل الصوري -الذي تنتقضه ظاهريا -فتضع الليكود وحماس في كفة واحدة ، وتسمي الدفاع عن الأرض والوطن إرهاباً وعنفا مماثلا لعنف الاعتداء على الأرض والشعوب.

الهوامش:

١- مراد وهبه: ملاك الحقيقة المطلقة ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩.

٢- مهدي عامل: أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية، الطبعة السادسة ، بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٨٩ ، ص٨.

متابعات

أزمة الأدب فى بيت ثقافة منوف

محمد عبد الحميد دغيدى

فى ندوة أدبية أقامها نادى الأدب ببيت ثقافة منوف وحضرتها الناقدة فريدة النقاش ، ومدير عام ثقافة المنوفية ، والمسئولون ببيت ثقافة منوف ، ونخبة من أعضاء نادى الأدب ولفيف من مبدعى ومثقفى المحافظة ، نوقش موضوع أزمة الأدب الراهنة ، وهل هى أزمة أدب وإبداع أم أزمة نقد ومتابعة ؟ وبعد كلمة الترحيب التى ألقاها سيد صقر مدير عام الثقافة بالمنوفية وكلمة نادى الأدب التى ألقاها الشاعر - محمد عبد الحميد دغيدى ، رئيس النادى والتى افتتح بها موضوع الندوة ، تحدثت فريدة النقاش ، فتطرقت فى البداية إلى موضوع الانفتاح الاقتصادى الذى حدث فى السبعينيات والذى أثر بدوره فى مختلف مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية والوجدانية بالطبع ، فظهرت تيارات جديدة وحديثة فى الأدب والفن ، وتغير الذوق العام ، كما تعرضت لموضوع تحول الاقتصاد حديثا من الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر الذى هو فى حقيقته اقتصاد مخطط عالميا لتحقيق الهيمنة سياسيا واجتماعيا وثقافيا وأدبيا ، وتناولت مظاهر اهتمامات الناس حاليا ، ومشاغلهم بضروريات الحياة وتبعاتها ، وإقبالهم الآن على العناوين المثيرة الرياضية والاجتماعية أكثر من الأدب والثقافة ، مما أدى نتيجة لغياب النقد والتناول لهذه الإبداعات الأدبية إلى انخفاض مستواها فى كثير من الأحيان ، كما تحدثت عن أثر وسائل الإعلام كالراديو والتليفزيون والسينما فى تشكيل وجدان وذوق المستمع أو المشاهد، ثم انتقلت إلى عملية الإبداع والابتكار الأدبى الآن وطالبت المبدعين والكتاب ببذل الجهد والفكر لبناء وتكوين أعمالهم الإبداعية والاهتمام بالقضايا الملحة المصيرية المعاصرة .

ثم عقب سيد صقر على كلمتها بتأكيده على عملية التواصل وهضم التراث الأدبى وأهمية القراءة وأنه " لاكتابة بدون قراءة"..

وفتح باب المناقشة للأعضاء ، فتحدث القاص - مجدى عرابى عن رسالة

الأديب ولمن يكتب للخاصة أم العامة ؟ وحقيقة الاختلاف بين المبدعين حول الأشكال الأدبية وأساليب التشكيل الإبداعى فى القصة والشعر ..وتحدث الأديب - أحمد سالم عن أهمية العامل النفسى فى التكوين الإبداعى و إلى أى مدى تبدو شخصية المبدع الحقيقية فى أعماله الأدبية ..

وتحدث القاص - حسام الدين شاكر عن موضوع البيئة وأثرها فى إنتاج الأديب والفنان ، وتحدث القاص - سامى جعفر عن مشكلة المبدع الآن وعدم تواؤمه مع الوضع الاجتماعى والسياسى وإحساسه بالعزلة والانهزامية والانسحاق ، وأنه يرى صورة الآتى قاتمة ومحبطة ، وقد تحفظت فريدة على نظرته تلك ، وأوضحت له أن الأمل قائم فى كل صاحب قلم وفكر ..

وتحدث الشاعر - تامر راشد عن أهمية اقتراب المبدع من الناس وتناوله لقضاياهم ومشاكلهم.

واعترض الشاعر - أحمد الصعيدى على إغفال دور الإلهام والتباس الحالة الشعرية للشاعر وأهمية ذلك بالنسبة للإبداع .. فأوضحت الناقدة أنها قصدت بذلك ألا يركن الأديب أو المبدع إلى فعل الإلهام وأن يكون أكثر ايجابية واجتهادا فى إبداعه ...

وأخيرا رحب الكاتب الصحفى - يسرى شاهين بفريدة النقاش ، وأكد على أهمية التواصل والتلاقى بين شباب المبدعين والأدباء ..

ثم استمعت الضيفة إلى عدد من الإبداعات الأدبية من بينها: قصة للأديب - عماد أبو زيد ، وقصيدة للشاعر - موسى الفقى ، وقصيدة للشاعر الأستاذ - على عمر عبد الله ، وقصيدة للشاعر - عبد المحسن عثمان ، وقصيدة للشاعر - أحمد الصعيدى..

وختاما أبدت فريدة النقاش سعادتها بهذه الندوة ، ووعدت بلقاء آخر قريب فى مدينة شبين الكوم ...

شعر

هى لا تنام على قمر

سليمان دغش

ولها نجوم تشتهى عسلا يعذّبها
فتسقط كالفراش على وسادتها
وتملأها شَرَرْ
هى لاتنام على قمرْ
وبها نعاس قابل للانسحاب
كأىّ عصفور يحاول أن ينام
على جناح الريح .. فى فلق
الشّجرْ
هى لاتنام على قمرْ..
وعلى مآذنها القديمة
لايزال الله متكئاً كعادته
على قمر النّحاس
ونجمة من فضّة القرآن
تقرأ سورة
وتعد من ذهب الكلام
صهيلنا الآتى
وتمنحنا سَحَرْ..
وهى لا تنام على قمرْ
هى لا تنام ولا ينام على
شواطئها..
السفَرْ..
هى لا تنام على قمرَ..
هى لا تنام على حجرْ..
وعلى حجارة صدرها
كتبت وصيتّها الأخيرة:
«خذ بثأرى يا حجر»..
هى لا تنام على قمرْ..

هى لا تنام ...
هى القمرْ..

نامت على أفق الفؤاد ..!!
نامتْ على أفق الفؤادِ
وأطفأتْ قنديلَهَا ..
مذْ أعلنتْ
فىَّ البلادُ
أصيلَها ..
وَصهيلَها...
***
ألقيتُ مفتاحى القديمَ على
جناحِ هديلها ...
ووهبتُ روحى
للرّياحِ
لعلّها
ترمى إلىَّ - إذا اقتربتُ-
حبيبتى
منديلَها ...
****
نامتْ على أُفقِ الفؤادِ
وأطفأتْ قنديلَهَا
هىَ فى دَمى
وعلى فمى
وعلى شواطئ أنجُمى
أرخَتْ ضفائرَها
فكنتُ قتيلَها...



***

نـامتْ على أُفـق الـفؤاد
وأشعَلتْ برقاً يُراودُهَا
فراودَنى النخيلُ
ورو ادتنى شَهقةُ الخُلخالِ
ياخلخالها ، خذ شَهقتَى
خُذْ دَمعتى
خذموجتِي
وأعدْ إليَ اذا سَمحتَ
أعدْ إلىَ
دَلالها .. ودَليلها..

***

نـامتَ على أُفـقِ الـفؤادِ
وَخَبأَتْ
فى غيمـة المنفى
جِدائلِ رعَدِها الآتى
وبرقاً كى يُراودَها على عَجلٍ
ويروى
غلّها
وغليلها ...

****

نامتْ على أُفق الـفؤادِ
فايقظتِ فىِّ البَلادَ
وأشعلتْ قنديلها ...


مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com



رقم الايداع ٩٢/٧٥١٢

الثمن: جنيهان

الأمل للطباعة و النشر